
رشيد الياس بركة
يا قمر مشغرة ..
سيرة ذاتية
أبو عبدو البغل

رشيد الياس بركة

يا قمر مشغرة ..

سيرة ذاتيّة

جمع وإعداد

نغـم عرنــوق

تدقيق لغوي

محمــود غزالـــة

إصدار خاص، 2006

تصميم الغلاف والإخراج: «سنديانة» للهندسة والتخطيط.

رشيد الياس بركة



رشيد الياس بركة

عِنْــدُنْ بَلَــــد، إِلْــها قمـــــر بإســــــمها

جَرْحُوا سَهَرْهَا، وما اكتفوا، اغتالوا القمر



مقدّمة

قرأت الكثير من سير العظماء في التاريخ، أو من اصطلح الناس على تسميتهم عظماء. وقرأت، في تجارب الحياة، الكثير من سير الناس العاديين. فوجدت أنّ قيم الحياة الحقيقية ليست حكراً على أحد، وليس لها مقاييس محدّدة، بل تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة؛ ويبقى الثابت الوحيد على مرّ العصور أنّ العظيم هو من عمرت نفسه بالخير والمحبة، واستطاع أن يمنح محبّته للآخرين، حتّى بعد رحيله، معرفةً، أو جمالاً، أو عبرةً ومحرّضاً ودافعاً إلى الاستمرار في طريق الحياة.

سيرتي هذه، هي تجربة حياة إنسان عادي بسيط، عاش مراحل عديدة ومتنوّعة منذ بدايات القرن، إلى نهاياته، عاصر العديد من الأحداث الكبيرة منها والصغيرة، في مقياس التاريخ. يرويها من موقعه هو، ومن ناحية تأثيرها عليه، وعلى حياة المحيطين به. فكلّ حدث مهما كان ضيّقاً بتأثيراته، هو كبير بمعانيه، أليست التجربة الإنسانية واحدة؟ وبقدر خصوصيّة كل تجربة، بعد إنساني عامّ تأخذه بمشاركة الآخرين؟

حاولت قدر الإمكان الابتعاد عن طرح الآراء الفردية، أو استنباط العبر، أو التقييم؛ تاركاً لقارئها دوراً في استكشاف واستخراج المعاني، أو اتّخاذ مواقف وتقييمات تعنيه هو من خلال تجربته. والجدير ذكره، إنّ اعتمادي الوحيد، في كتابة سيرتي هذه، كان على ذاكرتي، التي تكشف أمام ناظريّ الماضي كلّه – كمرآة السائق – وكأنّه حدث منذ ساعات أو أيّام.

ستجد في سيرتي الكثير من القصص، والكثير من المشاهدات، والكثير من العبر، والكثير من المفارقات، المضحكة منها والمبكية. تمضي معها عبر الأمكنة والأزمنة في ارتحال حيناً، واغتراب حيناً، في عزلة أو مع الآخرين. وترى الوطن بين إشراقة أو غروب، في بواطن النفس، ومواطن الحلم.

رشيد الياس بركة

14 / تمّوز / 1993 U.S.A. Burbank

I
(1954 - 1917)

1. بلدتي، مشغرة

تقع مشغرة في السفح الشرقي من سلسلة جبال لبنان، في نقطة تشكّل مع جزّين وصيدا، غرباً، خطّاً شبه مستقيم، ويتابع إلى راشيّا الوادي شرقاً. في نهاية سهل البقاع، من جهة الجنوب. حيث يكوّن نهر الليطاني بحيرة أُنشئت خلف سدّ أطلق عليه وعلى البحيرة اسم البلدة القريبة، "القرعون"، والذي أنشئ في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات. طبيعة أرضها جبلية صلبة، تتدفّق فيها المياه من ينابيع غزيرة على سويّة متقاربة في نقطة قريبة من الخزّانات العميقة العميقة في قلب الجبل، وعرفت عندما كبرت أنّ والدي – مكلّفاً من قبل مجلس البلدة – هو الذي فجّر الصخور وعمل شكل مدخل النبع الكبير كما هو اليوم.

في طفولتي، لم تكن السيّارات تصل إلى مشغرة، ولم يكن هناك طرقات عريضة يصحّ أن تسمّى أسواقاً أو شوارع، بل كانت الأزقّة الضيّقة والأدراج تفصل البيوت عن بعضها البعض، وكثيراً ما كنت أرى الثلوج تغمر البيوت المنخفضة، وأهلها يدخلون ويخرجون من خلال الفتحات التي يصنعونها في الثلج أمام الأبواب.

هكذا كانت مشغرة التي رافقتها منذ العشرينات، وحَبَوْتُ على ترابها ونَمَوْتُ على خيراتها، وحين تفتّحت عيناي على النور، رافقت تطوّرها الصناعي والعمراني والزراعي، ولا أقول العلمي، إذ كان عدد التلاميذ (المشغرانيين) المنتشرين في معاهد بيروت وزحلة وجبّ جنّين وصغبين وسحمر، أكثر من الذين يتعلّمون في مدارسها الابتدائية. إذ كانت الحاجة إلى الأيدي العاملة، أكثر منها إلى المتعلّمين. وكان طابع العمل المميّز، هو الزراعة.

وما ساعد في نموّ مشغرة وازدهارها، دخول صناعة الجلد إليها، قبل وأثناء

الحرب العالمية الأولى، وبعدها، حتّى الحرب الثانية، ويعود تاريخ هذه الصناعة إلى أعوام 1870 – 1880، وكان أوّل من جعلها مهنته وتجارته هو فارس ديب حبّوش، إذ تعلّمها من مصر، ومارسها في صيدا مدّة وجيزة، وكان يعرف مشغرة جيّداً، فهو ابن جارتها عيتنيت، فاشترى قطعة أرض في مكان غزير المياه، وأقام بيتاً ومدبغة كانت الأولى في مشغرة، ومارس تلك المهنة مع أولاده وأحفاده، فحدّت هذه الصناعة من الهجرة بعد الحرب العالمية الأولى، حيث سنحت للشباب فرصة العمل بسهولة. وجرّت هذه الصناعة معها صناعة الأحذية فيما بعد، ممّا أدّى إلى ازدهار الأعمال من عمار ونجارة وخياطة وغيرها.

كما اشتهرت في مشغرة فرقة موسيقية، وكانت تسمّى (نوبة)، قديمة العهد، تضمّ لاعبي السيف والترس، طوّرها أبو حسن، محمّد علي يوسف مرعي، "شيخ الشباب"، ونظّمها وزاد عدد عناصرها، فصار يحسب لنوبة مشغرة حساب في المهرجانات، وتُخْلى لها الساحات.

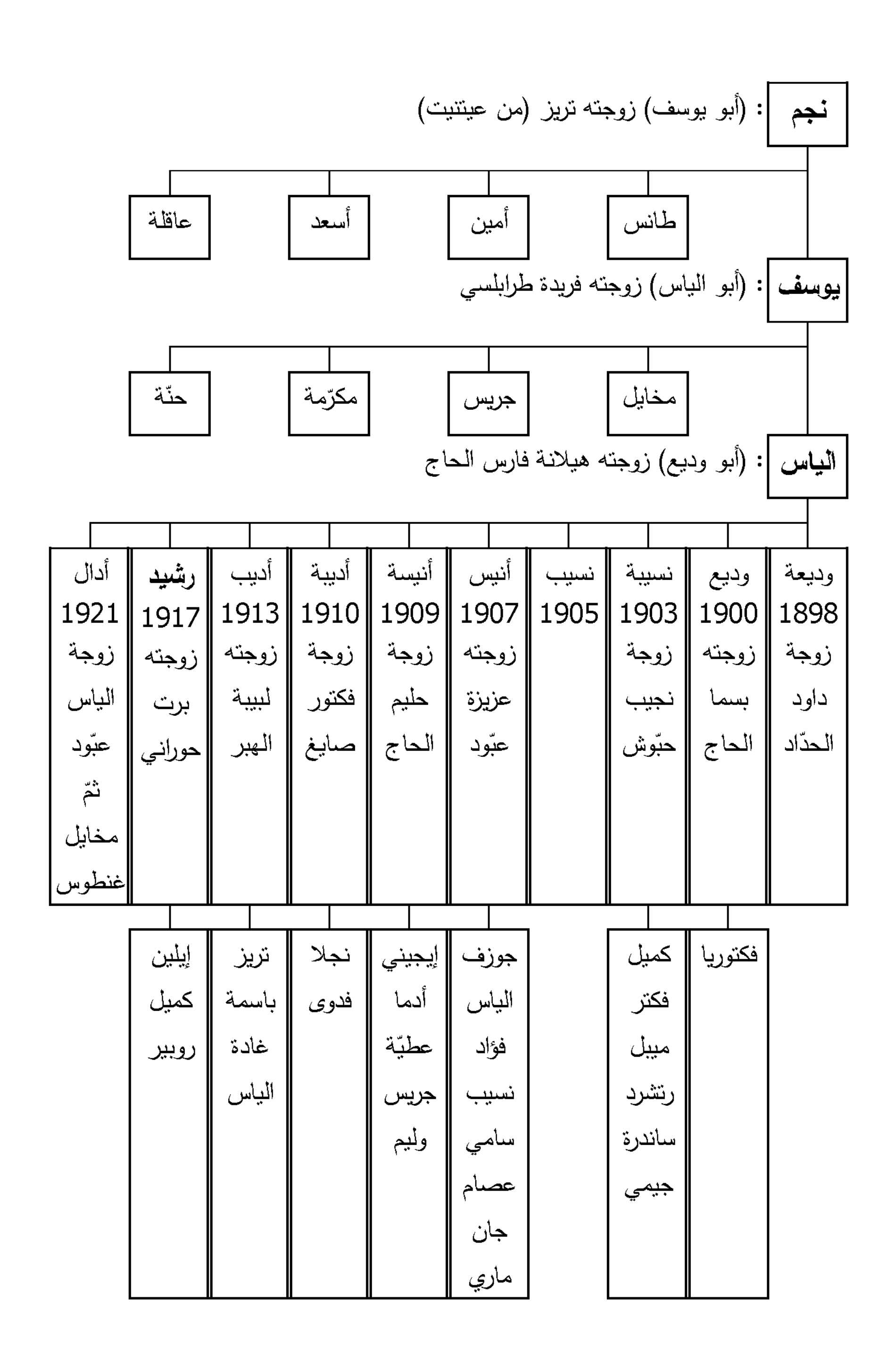
وفي وقت من الأوقات، كانت مشغرة جنّة الله في أرضه، ببساتينها وكرومها وأرضها المزروعة بكلّ أنواع الخضار، فلا يكاد المرء يرى مساحة من الأرض، ولو بحجم حصيرة، إلاّ مزروعة. حتّى الأحراج نمت وترعرعت لتصبح البلدة مغمورة بالأشجار المثمرة والحراجية. وقد اشتهرت فيها غابة "الشعيرية" على مدخل القرية من الجهة الجنوبية، رغم أنّها ليست مترامية الأطراف، ولكنّها كثيفة بأشجارها الباسقة، وغالبيّتها من أشجار "الملّول"، التي تميّزها عن الأرض التي تحيط بها من كروم ومزروعات، بزرقتها الداكنة والدائمة، حيث ترى في أيّام الخريف ألواناً لا حصر لها في لوحة رائعة في مجملها.

2. قصّة العائلة

قصّة العائلة، أرويها نقلاً عن والدتي كما أخبرتني إيّاها على مدى فترة من

الزمن، وكما استوعبتها في ذلك الوقت من طفولتي المبكّرة، إلى أن أصبحت أحفظها عن ظهر قلب.

ولد نجم بركة بين عاميّ 1825 – 1830، في بلدة مشغرة. ولم يكن ضبط تسجيل الولادات دقيقاً في ذلك الزمن. وكان ابنه يوسف (جدّي لوالدي) واحداً من خمسة أولاد، بينهم بنت واحدة. وعلى ما يبدو لم تسجّل أيضاً ولادة جدّي بدقّة، إذ حفظت عنه العائلة أنّه من مواليد 1850 – 1855. وقد أنجب ثلاثة صبيان وبنتين. أمّا ضبط ولادة أبي فلم يشذّ عن والده وجدّه في عدم الدقّة 1880 – 1885، ولكنّه فاقهما إنجاباً، إذ كنّا خمسة صبيان وخمس بنات. وسجّلت ولادتي في دفتر العماد في كنيسة مشغرة عام 1917.



نجم : (أبو يوسف) زوجته تريز (من عيتنيت)
طانس
أمين
أسعد
عاقلة
يوسف : (أبو الياس) زوجته فريدة طرابلسي
مخايل
جريس
مكرّمة
حنّة
الياس : (أبو وديع) زوجته هيلانة فارس الحاج
وديعة 1898 زوجة داود الحدّاد
وديع 1900 زوجته بسما الحاج
نسيبة 1903 زوجة نجيب حبّوش
نسيب 1905
أنيس 1907 زوجته عزيزة عبّود
أنيسة 1909 زوجة حليم الحاج
أديبة 1910 زوجة فكتور صايغ
أديب 1913 زوجته لبيبة الهبر
رشيد 1917 زوجته برت حوراني
أدال 1921 زوجة الياس عبّود ثمّ مخايل غنطوس
فكتوريا
كميل فكتر ميبل رتشرد ساندرة جيمي
جوزف الياس فؤاد نسيب سامي عصام جان ماري
إيجيني أدما عطيّة جريس وليم
نجلا فدوى
تريز باسمة غادة الياس
إيلين كميل روبير

اشتهر جدّنا نجم بركة بأنّه أكول بشكل مميّز، ونسي الناس أنّه ذو قامة مديدة، وقدرة جسديّة مميّزة أيضاً، وقد كان له أخ اسمه "أبو عسلي"، يختلف عنه شكلاً، فبينما كان "نجم" (أبو يوسف) أسمراً كان "أبو عسلي" أشقراً وأصغر حجماً، وتبعاً لهذه المواصفات، وكتاب "تغريبة بني هلال" كان كتاب الموسم، تقاسم جدودنا شخصيات هذا الكتاب "أبا زيد الهلالي" و"دياب بن غانم"، وتقمّصها كلٌّ حسب مواصفاته. كان الأخوين يعملان في استخراج الحديد والفحم الحجري من "تومات نيحا" وتصنيعه، وكانت صناعتهم رابحة، ولكن عائلة أبو عسلي بركة هاجرت إلى استراليا قبل عام 1900، فتوقّف معمل الحدادة تبعاً لذلك.

*

كان جدّ والدي "نجم"، خال جدّي لوالدتي فارس الحاج (أبو أمين)، وهذه القرابة سهّلت المصاهرة بين عائلة بركة وعائلة الحاج. أمّا الحديث عن عائلة جدّي أبو أمين فكان مقتصراً عليه وحده لأنّه (رِبِي يتيم) حسب تعبير ابنته، أمّي، التي كانت تتذكّر جدّتها "كاترين"، وما تعرفه عن والدها كان من أمّها، جدّتي، "أليصابات الغزال" (أم أمين)، والتي كانت تستطيع القراءة بعض الشيء، وتحفظ تاريخ عائلتها وعائلة زوجها عن ظهر قلب، وقد عاشت معنا في آخر أيّامها وتوفّيت عام 1934.

جدّي أبو أمين، دامت ذكراه في أذهاننا من العمارات التي أشادها في مشغرة ولم تزل قائمة إلى اليوم وكأنّها بنيت في الأمس. وتقول والدتي عنه أنّه كان كبير إخوته، توفّي والده وهو بعد يافع، فذهب إلى دمشق للعمل، وعمل في مقالع الحجارة لمدّة من الزمن، ثم انتقل للعمل في النحت والبناء وأتقنهما إتقاناً يحسد عليه، وعاد إلى مشغرة ليمارس مهنته بهمّة لا تعرف الكلل، كان قويّ البنية مفتول الساعدين، قليل الكلام كثير العمل.

أمّا مصاهرته لأبي فكانت عن طريق أخوالي سمعان وسليم، حيث كانا أصدقاء أبي بحكم القرابة والعشرة والجيرة. ومن تقاليد بيت جدّي أن تقفل البوّابة بعد غياب

الشمس، وعلى الطارق أن يعرّف عن نفسه وينتظر الإذن بالدخول فيفتح له؛ وكان والدي معروفاً باسم الياس نجم، بينما هناك الياس آخر هو الياس الحاج، ولكنّ اتفاقاً سريّاً عُقد في بيت جدّي، فإذا كان الياس نجم هو الطارق يفتح له، أمّا الياس الحاج، فلا. وتقول والدتي أنّها كانت خارج الموضوع. أمّا جدّي فقد كان يراقب بهدوء، وبعد فترة دعا والدي للعمل معه في العمار، فاستجاب فوراً لأنّه لم يكن يحبّ الفلاحة بطبعه، وقد أحبّه جدّي حيث كان يستمع إلى حكاياته، ويقّدر فيه تفتّح الذهن، وهكذا تتلمذ أبي على يد جدّي في أحسن مدرسة، وحين طلب والدتي، وافق جدّي فوراً، فقد خبره في العمق وأحبّه.

اشتغل والدي في بناية لأخوالي سمعان وسليم وشريكهما يعقوب أبي سمرة طرابلسي، زوج خالتي ملكة، وكانت في وسط البلدة، ومن الغريب أنّ شكوى جّدي من أبي ابتدأت حين تعلّم الصنعة بسرعة، وصار ينافسه، ممّا أتعبه وهو شيخ المعلّمين، وكانت تلك المنافسة قد ابتدأت في البناية المذكورة، وقناطرها التي لم يؤثّر فيها الزمن، بالرغم من الهزّات الأرضية والانفجارات التي حصلت فيما بعد، إذ لم يتكسّر منها إلاّ الزجاج والأطر الخشبية، والتي أعدت أنا صناعتها فيما بعد، مرّتين. ومن الأبنية المرموقة التي بناها أبي، بناية أنيس مخّول، والكنيسة الكاثوليكية، وأخبرني أخي أنيس أنّ والدي شاهد مدخل الكنيسة في دمشق، وحفظه في ذهنه، ثم نفّذه في كنيسة مشغرة.

3. معركة ميسلون

كانت سنة 1917 السنة الصعبة في الحرب العالمية الأولى، التي أزهقت أرواح نصف أهل لبنان من التجويع الذي اتبّعته القيادة التركية، ومعظم الذين نجوا من الحرب هاجروا، ومنهم شقيقتاي وديعة ونسيبة وأخي نسيب في عام 1920. وكان هذا أوّل حدث علق بذاكرتي من ذلك الوقت، والشيء الثاني كان جلوس والدتي معظم

الوقت وراء آلة عرفت فيما بعد أنّها ماكينة الخياطة، وكلّ من في البيت أكبر منّي، ما عدا أختي أدال التي كانت أمّي توليها عناية خاصّة وترضعها.

كما أذكر جيّداً مشهداً لا أنساه، وكان عمري ثلاث سنوات، يوم وقعت معركة ميسلون التي تبعد أربعين كيلو متراً، كخطّ نظر، إلى الشرق من مشغرة، إذ كنت مع أمّي وأبي، نقف، وكذلك الجيران في البيوت المجاورة، على الشرفات والسطوح، لننظر في اتّجاه ميسلون، ورغم أنّ بيتنا يقع في أعالي البلدة، ومواقع المدفعيّة الفرنسية أقرب إلى جهتنا تقابلها وتواجهها المدفعية السورية من الجهة الأخرى، فقد كانت الرؤية متعذّرة بسبب الجبال والأودية التي تفصلنا عن ساحة المعركة، أمّا الأصوات فكانت واضحة جدّاً، ومع ارتفاعها وانخفاضها، ترتفع وتيرة الكلام بين الذين يقفون هناك، وأنا بينهم، لا أفهم شيئاً ممّا يقال، أمّا تلك الموسيقى الغريبة من الطلقات المتكرّرة، فيصحّ القول أنّها انطبعت على صفحات ذاكرتي البيضاء مثل العناوين العريضة.

4. في حماية السكّين

عام 1923 انتقلنا إلى مبنى قريب من بيتنا كانوا يسمّونه "حارة مخايل"، وقام والدي بتجديد بيتنا، ثم عدنا إليه في الصيف التالي دون أن يكون قد اكتمل، وتولّت أمّي وأخي أنيس إنهائه، وفي عام 1924 وقعت الواقعة، إذ توفّي والدي ذاك الصيف من جرّاء ضربة شمس لم تكن قاتلة، ولكن بدائية الأطباء المتواجدين في مشغرة آنذاك، هي التي أفقدتنا إيّاه.

لبست والدتي الأسود وكذلك الأقارب والجيران، وكانت تبكي باستمرار، وأذكر أنّي كنت أبكي لبكائها، فكانت تسكت وتسترضيني. ثم تفاقم الحال بعد مدّة من الزمن حتى أصبحت كابوساً يجثم على صدري في النهار، وأحلاماً وأشباحاً في الليل حيث كنت أستيقظ وأصرخ، فتستفيق أمّي وجدّتي ويسقياني الماء لتهدّئان من روعي. وعندما تكرّرت الحالة أياماً عدّة أذكرها جيّداً، دخلت جدّتي عليَّ في إحدى الليالي قبل

أن أنام، وهي تحمل بيدها سكّيناً له قبضة مطعّمة، وجلست إلى جانبي في الفراش وأخبرتني أنّ السكّين لوالدي، وكان يحملها في الليالي كسلاح، بالإضافة إلى العصا، وقالت:

– (حطّ السكّين تحت المخدّة وبسّ يجي اللي بتخاف منُّه دقُّه بالسكين).

ففرحت جدّاً ونويت أن أفعل ذلك، ورحت يومها في نوم عميق. والجدير بالذكر أنّه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا، انتزع الخوف من قلبي نهائياً.

5. مدرستي الأولى

في بداية السنة المدرسية 1924 – 1925 أخذتني والدتي، وكانت لا تزال ترتدي الأسود، إلى المدرسة الإنجيلية في بلدتنا. ذلك أنّ جدّي لوالدتي فارس الحاج (أبو أمين) كان من أوائل الذين اعتنقوا المذهب الإنجيلي مع رفاق له مثل فارس ديب حبّوش ويوسف عبّود وغيرهما ممّن لا أعرفهم، وجدّي هو الذي بنى الكنيسة الإنجيلية في مشغرة، وكانت والدتي أوّل من تعمّد فيها حوالي 1880.

كان المسؤول عن المدرسة والمعلّم الأول فيها، في ذلك الوقت، الأستاذ نقولا فارس حوراني، من القرعون، وكان معه بعض المعاونين، ولم أكن غريباً في ذلك الجو إذ كنت أرافق إخوتي في السنة التي سبقت دخولي المدرسة، وكنت أحفظ ما يتردّد ممّا كانوا يتعلّمونه، وقد كان عيد الميلاد في السنة الأولى من المدرسة غريباً وجديداً عليَّ، ولأوّل مرّة أرى شجرة الميلاد المزيّنة في وسط المدرسة. وبعد الصلاة ومدرسة الأحد وزّعت علينا الهدايا، وهي عبارة عن أكياس ملبّس من الورق الملوّن، ولم يكن هذا مألوفاً في الكنيسة الكاثوليكية. وعندما حلّ عيد رأس السنة كان المعلّم نقولا هو المكلّف بإقامة الخدمة وإلقاء العظة. وأذكر أنّي في ذاك الوقت صرت أعرف أسماء الأشهر والتاريخ.

والجدير ذكره أنّ فارس الحوراني والد المعلّم نقولا، كان قد خدم الطائفة كمعلّم

وواعظ في سنوات الحرب وحتّى عام 1920، حيث نقل إلى صغبين، وبقي أولاده يعتبرون أنفسهم من مشغرة. وعندما حضر المعلّم نقولا من صيدا سكن في بيت جدّي (أبو أمين)، أصبح يعرفني شخصياً ويكلّفني بإيصال بعض الأغراض إلى بيته، فصرت أحسب نفسي قريباً منهم وموضع ثقة، وبقيت الحال كذلك طيلة سنوات الدراسة الأربعة في تلك المدرسة.

6. بين "الاستعمار" والعمار

في صيف 1925، وكانت العطلة المدرسية ثلاثة أشهر، رافقت أخبار ثورة جبل العرب، وقد أصبحت وأنا ابن الثمانية أعوام، أنفعل بالأحداث وأعرف الأماكن وأسماء المدن، حيث كانت تتردّد أسماء: مرجعيون، حاصبيّا، وادي التيم، كفرمشكي، راشيّا، الخ... وكنت أشعر بالأسى عند سماع هذه الأخبار، وأتساءل لماذا؟ وما معنى الثوّار؟ وماذا يريد (الدروز)؟ ولماذا الجيش الفرنسي هو الذي يحارب؟ أسئلة لم يجبني عليها أحد في ذلك الحين، إلاّ بعض الإجابات المغلوطة أو الناقصة، ولم أكن أستطيع استيعاب أو فهم معنى كلمة "استعمار"، وبعد معركة راشيّا الوادي ارتحت نسبيّاً، إذ سمعت أنّ الحرب انتهت. ولم يطل الوقت حتى ابتدأت ورشة العمار في المنطقة وأصبحت أنا شبه موظّف، عليّ إيصال الطعام في أوقات محدّدة إلى حيث يعمل أخي أنيس، ثمّ البقاء هناك إلى أن ينتهي العمّال من طعامهم لأعود بالأواني. وكان هذا تقليد متّبع في الورش، حيث لا يغادر أحد من العمّال مكان عمله، ولو كان بيته يبعد مسيرة دقيقة واحدة، وكانت مناسبة لأتعلّم البناء في كلّ أشكاله، حيث كنت أتابع عملية البناء من البداية إلى النهاية.

وفي تلك الفترة، جاءنا خبر وفاة أخي نسيب في أميركا، إثر موجة صقيع اجتاحت المخيّم الذي كان يعمل فيه، مع عشرات غيره، في شركة لتصنيع وتمديد السكك الحديدية، ولم أكن أذكر أخي إلاّ كطيف في الذاكرة.

7. تناولت، والحصيلة صفر

في صيف عام 1928 عاد أخي وديع من دير المخلّص، وكان في ذلك الوقت في الثامنة والعشرين من عمره، يلبس الثوب الكهنوتي ولحيته كثّة. وكان قد ناضل كثيراً إلى أن نال الإذن من "البابا" ليعتزل حياة الرهبنة. وحين حلق ذقنه، شعر بخجل شديد ولم يستطع الانسجام مع وضعه الجديد إلاّ بعد مدّة من الزمن. ثمّ ما لبث أن عيّن معلّماً في المدرسة الكاثوليكية، التي كنت غريباً عنها وبعيداً كلّ البعد، فنقلت إليها، وتغيّر جوّ الأصدقاء. كانت الهيئة التعليمية مؤلّفة من نعيم غطّاس، أخي وديع، ومخّول الحاج الذي كان يمارس خدمة القدّاس للكاهن، والموكل إليه التعليم المسيحي، وأيضاً تعليم كتاب "مجاني الأدب" للصفوف الابتدائية.

وهناك كانت المشكلة مزدوجة، حيث لم أكن في عداد تلاميذ أخي ولا أرى وجهه في المدرسة، ولم أكن أعرف اللغة الفرنسية التي كانت حصّة نعيم غطاس. فبقيت حصّة التعليم المسيحي. وفي المفهوم العام أنا كاثوليكي، وأخي معلّم في المدرسة ويخدم القدّاس في الكنيسة، وقانون المدرسة يحتّم علينا حضور القدّاس. فكنت أشعر هناك بغربة قاتلة تفوق تلك التي أحسّها في المدرسة، إذ لم أكن أعرف كيف أتصرّف أو ماذا أقول، ولم أتناول القربان أو أشترك في الصلاة، إلى أن سألني مرّة المعلّم مخّول:

– "لماذا لم تتناول؟"

– "لأنني لا أعرف كيف أتصرّف في هذا الشأن"، فقال:

– "تناول"، ومشى، وكان صديقي في الصفّ لطفي الدبس واقفاً في الفرصة معنا وسمع ما دار من حديث، فقال:

– (ما بيسوى تتناول أوّل مرّة بدون احتفال)

– "ماذا تعني باحتفال؟"

– "تلبس ثياباً (غير شكل) ويقف عشرة أولاد أو خمسة عشر في صفٍّ واحد

ليتناولوا معاً"

- "وإذن، ماذا سأفعل الآن؟"
- "إسأل المعلّم مخّول"

عدت وتوجّهت إلى المعلّم وسألته عن كيفية التناول، فاقترب من أحد أعمدة الكنيسة، وقال:

- "تستطيع أن تتناول دون احتفال، لكن يجب أن يكون إيمانك بيسوع المسيح راسخاً مثل هذا العمود" ووضع يده على عمود الكنيسة، التي بناها أبي. فقلت:
- "معلوم"، وقلت في نفسي:
- (هيدي شغلة هيّنة)، وكنت في ذلك الوقت قد أتممت السنة الحادية عشرة من عمري، ويوم الأحد تناولت مع الجمهور، وشعرت بالنفور لأنّي اعتبرت الأمر تمثيلاً دون قناعة.

لم أصدّق أنّ العطلة الصيفية أتت أخيراً، أمّا حصيلة السنة الدراسية فقد كانت: صفراً. فلم أسأل عن علاماتي، ولم تعد لي أيّة علاقة بتلك المدرسة.

8. الليرة التركية، والليرة السورية

في سنة 1929 المدرسية عدت بإرادتي إلى المدرسة الانجيلية، وكانت الأمور قد تغيّرت فيها، إذ حصل خلاف بين إدارة المدرسة والأستاذ نقولا حوراني، انتقل على أثره ليتسلّم المدرسة الكاثوليكية، وانتقل بالتالي من بيت جدّي إلى بيت ميشال حبيب طرابلسي الملاصق لتلك المدرسة. أمّا المدرسة الانجيلية فقد تسلّمها يوسف ابن القس موسى القرداحي راعي كنيسة "قب الياس" الانجيلية في ذلك الوقت. وأستطيع القول أنّ السنة التي قضيتها بإدارة المعلّم يوسف القرداحي قد عوّضت خسارة السنة التي سبقتها، فهي بالإضافة إلى حصيلتها الغنية، عدت فيها إلى سابق نشاطي وتفوّقي بالخطابة والتمثيل المسرحي، فقد لعبت دور "سكروج" في مسرحية البخيل لموليير، وقد

حقّقت نجاحاً كبيراً آنذاك.

كان أخي الأكبر يستعير من أصدقاءه كتب تاريخ الإسلام التي كانت تصدر في مصر عن دار الهلال، لصاحبها ومؤسّسها جرجي زيدان، وبسبب تواجد هذه الكتب في البيت صرت أقرأها، ممّا خلق لديّ ولعاً بقراءة كتب التاريخ، رافقني طوال عمري. وكانت نهاية عهد وبداية آخر تحمل الكثير من الإثارة، بين ماضٍ نودّعه وحاضر نتعرّف عليه، إذ كنت أسمع الكثير من الكلمات التي تعبّر عن هذا التحوّل، "عندما كانت تركيا"، "الوالي التركي"، "العسكر التركي". وكان الوجود التركي ما زال تاركاً أثراً كبيراً في العشرينات، حتّى أنّ العملة التركية بقيت إلى الثلاثينات وكان قوامها الليرة العثمانية الذهبية، وقيمتها ألف قرش، يليها (المجيدي) من الفضّة وقيمته مائة قرش، وأصغر وحدة نقدية كانت قرشاً وربع، وكلّها تحمل الشعار التركي، ومصكوكة في الأستانة، ثمّ أطلّت الليرة السورية الورقية واستمرّت إلى جانب العملة التركية ردحاً من الزمن ممّا أوجد خلافات ماليّة عديدة فيما يختصّ بالديون والوفاء، بسبب ارتفاع أسعار الذهب وانخفاضها.

*

كنت آنذاك أجد متعة وفرحاً في الاستماع إلى حديث رجل اسمه منصور رفّول، ذو مهابة، وأنيق في ملبسه، يتحلّق حوله عدد من الأشخاص، يستمعون إليه وهو يروي لهم ما قرأه في صحيفة لسان الحال، لصاحبها خليل سركيس في ذلك الوقت، وبأسلوب شيّق، والسيجارة ملتصقة بأصابعه الملوّنة من كثرة التدخين. كنت أتحيّن الفرصة، وأعرف مكان وزمان جلوسه على حجر كبير يشبه المقعد أمام محلّ الحلاّق، في صباح كلّ أحد، ولا يكتمل المشهد إلاّ بعد أن يكون منصور قد أنهى زينته، وجلس على الحجر ينفث دخان سيجارته، وكنت أنتحي مكاناً يمكّنني من الرؤية والسماع لحديثه، وهناك سمعت لأوّل مرّة بـ "مجلس المبعوثين" في الأستانة، اسطنبول، وروايته الشيّقة عن إغراق البارجة التركية "عون الله" في مكان يبعد قليلاً

عن ميناء بيروت، والتي بقيت ساريتها مدّة طويلة على مرمى النظر من "ضهر البيدر".

في صيف 1930 كان زواج شقيقيّ أنيس ووديع، بفارق شهر بين الاثنين، وكان موقعي في هذه الاحتفالات هو جلب الأغراض إلى البيت بناءً على أوامر والدتي وإخوتي، ودون أن يكون لي إرادة أو غرض فيها، أو منها، إذ كنت مثل (مكّوك الحايك) ذهاباً وإياباً. ومع بدء السنة المدرسية، التحق أخي وديع بمدرسة مرجعيون التابعة لمطرانية الروم الكاثوليك. وانتقل أخي أنيس إلى بيت استأجره، فأصبح أخي أديب (17 – 18 سنة) ربّ البيت.

9. الورشة الأولى، (الأنطش)

كانت سنة 1931 سنة ضياع بالنسبة لي، إذ أنّ صفوف المدرسة الإنجيلية انتهت ومثلها الكاثوليكية، فأخذت صفاً في اللغة الفرنسية وبكتاب واحد فقط "الحرفوش" (تقطيع وقت)، وباءت كلّ محاولاتي للالتحاق بمدرسة عالية، بالفشل. بسبب معارضة أخي أنيس، التي كانت خطأً لغير مصلحتي. وتبعاً لذلك ارتأت والدتي ومعها إخوتي أن أتعلّم صنعة النجارة لأنّها أسهل من البناء، نظراً لصغر جسمي، وهكذا كان، وأذكر أنّه في سنة 1932 أُنجز الإحصاء العام وأُصدرت الهوية اللبنانية.

في دكّان أمين الصايغ التي كانت تعجّ بالعمّال، ابتدأت مرحلة العمل، والبداية هي المرحلة الأصعب دائماً، وهكذا كانت بالنسبة لي، بالدخول إلى عالم جديد كلّياً، فقد تغيّر الناس والمعدّات. وما ساعدني قليلاً وجود عدّة نجارة بدائية في بيتنا، بالإضافة إلى عدّة البناء بكلّ أشكالها. وبعد يومين أو ثلاثة اختارني المعلّم أمين لأصحبه إلى الورش، أحمل العدّة وأعمل حسب أوامره. كان مقصدنا (الأنطش)، المبنى المقابل للكنيسة وهو مكان سكن كاهن الرعية، ليتمّ تركيب سقف القرميد (التكنة) له. وكان الاتّفاق مع لجنة الكنيسة أن يشتغل السقف كلّ النجارين في مشغرة

بقيادة مخايل الغطّاس وشارك في العمل أخوه نايف، معاوناً، ومعهما ميشال حبيب، وشكيب أبو عرّاج، وأمين الصايغ، وأنا.

في اليوم الأوّل تمّ حمل الأخشاب الثقيلة وصعود السلالم والسير فوق حيطان ذلك المبنى العالي، ولم أصدّق أنّي رجعت مساء ذلك اليوم إلى البيت سالماً. وفي صباح اليوم التالي تحاملت على نفسي للذهاب إلى العمل، وكلّ عضلة من جسمي تؤلمني، من رأسي حتى قدميّ، ولكن بعد فترة وجيزة، زالت كلّ تلك الأوجاع بفعل الحركة والتعرّق. واستمرّت الحال حوالي شهرين ونيّف، كنت في نهايتها أستطيع المشي فوق الحيطان وأخشاب السقف، كمن يمشي على أرض معبّدة. وكان يأتي إلينا، أثناء العمل في ذلك المشروع، الكثير من الجيران وخصوصاً المتقدّمون في السن، ويدور الحديث عن بناء الكنيسة وسقفها القرميد، والصعوبات التي واجهت العاملين في حفر أساساتها وتشذيب حجارتها ونقلها، والدور الذي لعبه والدي، حيث كان المعلّم الأول في ذلك الوقت، والأعمال الجبّارة التي قام بها.

*

كان قد مضى عليّ سنتان وأنا أتنقّل بين عمل وآخر من دون أيّ مقابل، حتّى ولا إكراميّة من زبون، ما عدا بعض وجبات الطعام التي كنت أحاول التهرّب من قبولها، وصرت أخجل أن أطلب مصروفي. وفي العمل الجديد أيضاً لم يحدّد لي أجر، فتركت العمل. وبعد وساطة، رضي أمين أن يدفع لي 15 قرشاً سورياً في اليوم، فقبلت، ومضى أسبوعان، ولم أقبض، فما كان منّي إلاّ أن (حردت) من جديد، وبعد تدخّل الوسيط السابق جاء إليّ ليقول:

– (أمين إلو عندك مصاري)، وحين استفسرت عن ذلك، جاءني بفاتورة باسمي لم أذكر منها سوى أول بند وهو (قدّة) خشب 1×2 سم بطول متر واحد كنت قد استأذنته بأخذها بعد أن مسحتها، فقد كانت عتيقة، وسمح لي، وأيضا بضعة مسامير لتثبيتها، وقد أدرجها على الفاتورة بثمن نصف ليرة سورية، 50 قرش، والمسامير

بعشرة قروش، كما أدرج بعض أغراض أتفه من قطعة الخشب إلى أن تجاوز الحساب 180 قرشاً أجرة الأسبوعين، فهمت الرسالة، وبالرغم من أنّ قيمة ما أخذته من محلّه، وبرضاه، طوال مدّة عملي لا تتجاوز الخمسة قروش، عدت إلى العمل، ودون أيّة كلمة، لأسبوع واحد فقط حتّى أسدِّد الفاتورة.

10. عمل جديد

في هذا الأسبوع حصلت مصادفة غيّرت من مجريات الأمور. شكيب أبو خليل، نجّار، له أخ مغترب في إفريقيا تبرّع بمبلغ من المال للكنيسة، فارتأت لجنة الكنيسة (تلزيم) شغل (المنجور) في الأنطش السابق ذكره، لشكيب شقيق المتبرّع، والذي لم يكن له دور في العمل السابق، وزادت كمّية الأعمال عنده فصار بحاجة إلى معاون. التقينا مصادفة، فسألني:

- "كم يعطيك أمين؟"
- "15 قرش"
- "أنا أعطيك ربع ليرة تعال واعمل عندي". فوافقت على الفور.

عند شكيب تغيّر جوّ العمل، والعدّة، وأسلوب التعامل، حيث لم يكن يكبرني بكثير، فنشأت بيننا صداقة في مدّة قصيرة. وفي خريف تلك السنة اشتغل شكيب لدى بيت شاكر ناصيف، بواسطة ابنهم الصديق شفيق، والذي كان مسؤولاً عن العمل، وصلة الوصل بيننا ووالدته، إذ كان العمل من أفكارها وتخطيطها، وتكفّلت أنا بإنجاز معظمه. أمّا شكيب فقد كان على أهبة السفر إلى إفريقيا، وكان يعمل على ذلك دون معرفة أحد، لكنه فاتحني في موضوع شراء المحل. فوجئت حينها بالفكرة وتهيّبت الموقف، إذ وجدت نفسي أمام واقع لست مهيّأً له، وبدأت أحسب الصعوبات التي يمكن أن تواجهني، حيث سيقع على عاتقي إكمال العمل الذي أصبح متشعّباً متداخلاً بشكل يفوق قدراتي وخبرتي الفنّية، ولكن من ناحية ثانية، وجدت أثناء العمل، كلّ

التعاون والتفهّم من السيد شفيق فقد كانت الحلول دائماً في جعبته.

11. الانتماء إلى الحزب

في تلك الفترة الواقعة ما بين 1933 - 1936 لم تتغيّر الحال كثيراً بالنسبة للصداقات، فقد استمرّت علاقاتي مع رفاق المدرسة مضافاً إليهم بعض من ساقتهم ظروف العمل، ومنهم الصديق شفيق ناصيف وأخوه زكي، وكنت أنا من عمر زكي، أما شفيق فيكبرنا بسنتين. وفي صيف عام 1936 وكان عمري قد صار تسعة عشر عاماً، توطّدت العلاقة مع شفيق أوّلاً، وتعمّقت الصداقة بيننا. فصار يحدّثني خارج نطاق العمل في أمور حياتية واقتصادية واجتماعية، وكأنّه أخي الأكبر، ولمس منّي تفهّماً وتجاوباً كبيرين. وكان مردّ ذلك إلى أنّي لم أنقطع عن المطالعة متى أتيحت لي الفرصة، ممّا أكسبني نضجاً يفتقده من ترك الدراسة في مثل عمري.

كان بيننا - كمجموعة أصدقاء - وحدة حياة تقريباً، ممّا ساعدني على الملاحظة أنّ هناك أوقاتاً لا أجد أحداً منهم في منزله، ولفت نظري هذا الأمر، ولكنّي لم أربط بينه وبين الهمس الذي بدأ يكثر عن وجود حزب سرّي يجتمع أعضاؤه خفية في أمكنة سرّية، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما علمت أنّ أفراد (الشلّة) كلّهم، أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي كشف أمره واعتقل زعيمه أنطون سعاده. وكان عتابي على الصديق والقريب الأقرب كميل عبّود لعدم إطلاعي على مبادئ ذلك الحزب ودعوتي للدخول فيه، وبعد أن أتيحت لي فرصة التعرّف على فكر الحزب ومبادئه وغايته، واقتنعت بصوابية توجّهه الفكري والاجتماعي، تقدّمت بطلب انتمائي إليه، وسرعان ما قُبل طلبي، فأقسمت يمين الانتماء بين خمسة من الرفقاء الجدد، في مديرية من مديريات منفذية مشغرة، وكان الرفيق الياس حبّوش في ذلك الوقت مديراً لتلك المديرية.

التزمت بالنهضة القومية الاجتماعية إيماناً منّي بأنّ تعاليمها ومبادئها كفيلة

بنهوض وعزّة هذا الشعب، وأذكر تماماً، وكنت في موضع مسؤولية متواضعة، ذلك الحماس، وذلك الشعور بالألفة والمحبّة بين جميع من احتضنتهم النهضة، التي كانت في عزّ نموّها وانتشارها. وأذكر، كيف كنّا نجتمع في دار أبو حسن مرعي، المختار، في القاعة الكبيرة (المربّع)، حيث كانت ترصّ الصفوف في الاحتفالات، جلوساً على الأرض، حتّى يضيق بنا المكان، وتزدحم الرؤوس على الشبابيك والسطوح، دون كلمة تذمّر أو تأفّف، كلٌّ يحاول أن يجعل رفيقه مرتاحاً، لا فرق في الأسماء أو العائلات، ولا في الطوائف والمذاهب، فقط كلمة واحدة كانت تحكم الجميع: حضرة الرفيق.

*

ويأتي خريف 1936 وقد تمّ شراء دكّان النجارة من شكيب أبو خليل، بمبلغ قدره 22.50 ليرة دفعها السيد شفيق ناصيف، بموجب اتّفاق شفهي بيننا نحن الثلاثة، تعهّدت فيه بإكمال أعمال النجارة عند بيت ناصيف، بعدما استعرضناها واحدة واحدة، والتزم كلّ فريق بكلامه، وسافر شكيب في الأسبوع نفسه، واستلمت العمل والمحلّ.

كلّ هذه الأمور نفّذتها دون مشورة أحد من أسرتي، وصرت أخبر والدتي بها تباعاً وبعد إتمامها؛ ووقفت أمّي بجانبي ودعمتني، على العكس من أخي أديب الذي صار يمثّل ربّ المنزل، والذي أظهر عداءً شديداً تجاهي عندما علم بانتمائي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، فهو كان قد قطع شوطاً بعيداً في تحبيذه وتأييده للحزب الشيوعي، ممّا خلق في البيت حالة لا تطاق، واستمرّيت في العمل متعثّراً لحاجتي إلى بعض المواد والمعدّات اللازمة لإنجاز العمل، وبالتالي لتسديد المبلغ الذي دفعه شفيق، ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن في ذلك الوقت، بالرغم من مساعدة والدتي التي قدّمتها بقدر الإمكان.

حلَّ فصل الشتاء، وحصلت عدّة مشادّات بيني وبين أخي، ممّا جعلني أفكّر في ترك البيت، ولكنّ ذلك كان متعذّراً في الشتاء، وحين جاء الربيع، وبعد عيد الفصح في أواخر نيسان 1937 نفّذت ما كنت قد قرّرته سابقاً، وغادرت منزل الأهل إلى زحلة.

تغيّبت عن البيت لمدّة شهرين، كانت في غاية الصعوبة، إلى أن أتى أخي إليَّ وكأنّه أحسَّ بالذنب، واسترضاني لعودتي إلى البيت، قاطعاً وعداً بعدم فتح مواضيع الأحزاب بيننا أبداً، فعدت إلى البيت، وكان عليّ أن أبدأ من الصفر من جديد.

وفي إحدى مراحل العمل السياسي، وكنّا نتعرّض إلى بعض الملاحقات، مثلنا أمام القضاء، مجموعة من الرفقاء، وكان القاضي آنذاك الشاعر والأديب بولس سلامة، ومن الواضح أنّه كان متفهّماً لأمور الحياة في العمق، فحين وصل دوري للإدلاء بأقوالي، وقلت له:

– "إنّي أتحمّل وحدي مسؤولية هؤلاء الواقفين أمامك"، ابتسم، وبعد صمت قصير وحركة خفيفة من رأسه، قال:

– (بعد بكّير، روحوا استمتعوا بالفيّ والميّ بمشغرة، وبعدين بتتعاطوا بالسياسة)، وأطلق سراحنا، واعتبرناه انتصار على الذين أرادوا لنا أن نسجن، لمجرّد كوننا أخصام في سياسة البلدية.

12. إلى دمشق

حدث في ذلك الوقت أنّي دعيت للعمل في بيت سليم أبو خليل الذي كان قيد الإنشاء، ويحتاج مطبخه الكثير من الأشغال، وكان (المنجور) في ذاك البيت من صنع معمل في دمشق، أُرسل لتركيبه معلّم من عندهم اسمه صبحي البارودي؛ توطّدت الصداقة بيننا خلال العمل، وطُرحت فكرة ذهابي إلى دمشق للعمل هناك في المعمل نفسه، مشجَّعاً من الصديق الجديد صبحي، ومصطحِباً ورقة توصية من جارنا سليم أبو خليل، إلى صاحب المعمل الذي يشتغل لهم.

كان العمل في دمشق عالماً جديداً أكتشفه، وفعلاً كان الصديق صبحي خير معين، فتعلّمت أشياء كثيرة، كانت أكثر من ضرورية، منه ومن المعمل. وكانت إقامتي هناك مع أحد الأصحاب حيث كنت أشارك في دفع أجرة السكن البسيطة،

وكان كميل عبّود وإخوته في دمشق أيضاً، وهو قريبنا وصديقنا، فكنّا نمضي أيام العطل سوياً، ومعنا صديقه من مشغرة بهجت سويدان، الذي كان يسكن أيضاً في دمشق.

ومع مرور الأيّام أدركت أنّ المستقبل هناك ليس واعداً، وأنّ عليّ أن أسافر وأتعرّف على الدنيا أكثر. وحدث أن جاء إلى إحدى الورش رجل مكلّف بتأمين عمّال لمشروع كبير في الأردنّ، فقبلت العرض مع زملاء لي في العمل وكنّا سبعة عمّال.

13. رحلة البادية

أتى اليوم الموعود، ومن مكان التجمّع كان علينا أن ننطلق إلى محطة "الحجاز"، ثم نأخذ القطار المنطلق إلى درعا. وحوالي الساعة السابعة مساءً من يوم 5 كانون الأول عام 1937 وصلنا إلى درعا، ثم قطعنا مسافة 30 كيلو متراً سيراً على الأقدام، عابرين الحدود إلى الأردنّ، برفقة شباب من درعا معهم دوابّ لحمل أمتعتنا. وصارت القافلة ثلاثة عشر شخصاً بما فيهم العمّال والدليل والوسيط والمتعهّد ومعه زوجته. وكان علينا أن نسلك طرقاً فرعية لكي نتجنّب الدوريات حيث أنّنا لا نحمل جوازات مرور. ولكنّنا في منتصف الطريق وجدنا أنفسنا في مواجهة دورية من عنصرين، تكلّما مع الدليل وتركانا نتابع طريقنا.

وصلنا، بعد الواحدة صباحاً، إلى ضواحي قرية تبعد عن مقصدنا مسافة 45 دقيقة، وارتأى الذين أوصلونا من درعا، أن نستريح ليلتنا حيث وصلنا، وأن يعودوا هم إلى درعا كي يتسنّى لهم الوصول إليها قبل الصباح، على أن نتابع نحن مسيرتنا مع الفجر.

أخذ الفريق كلّه أمكنته بين الأمتعة بجانب حائط أحد البيوت من الجهة الجنوبية، اتّقاءً للرياح الشمالية القارسة، أمّا أنا فقد رافقت (الختيار)، وهو الوسيط الذي اتّفقنا معه واسمه أبو ابراهيم، إلى داخل البيت البسيط الذي قُسم نصفين، واحد للعائلة،

والآخر لما يملكه ربّ المنزل من حيوانات. واستفاق صاحب البيت على ضجة من تجمّعوا في الخارج، وفهم الموضوع، فقد كان يعمل في موقع العمل، نفسه، الذي سنقصده مع الفجر. أوقد الرجل ناراً جلسنا حولها، ومكث أفراد أسرته في فراشهم يحملقون إلينا. أمّا الذين في الخارج فقد غلبهم النوم من شدّة التعب، وحينما أعلن المؤذّن طلوع الفجر، خرجت إليهم مع أبو ابراهيم الذي صاح:

- (قوموا يا شباب طلع النهار)

وعلى ضوء القمر الباهت تعرّف كلٌّ منّا على أغراضه وحملها، وخلال نصف ساعة تحرّكنا على شكل قافلة بقيادة صاحب البيت الذي أمضينا وقتاً في ضيافته، باتّجاه موقع العمل المقصود الذي يقع شرقي مدينة إربد، كنّا قد قطعنا شوطاً في الطريق حين بزغت الشمس من وراء خطّ الأفق، وكنّا نسير الواحد خلف الآخر بسبب ضيق الطريق، حاملين أغراضنا فوق أكتافنا، فبدت ظلالنا على الأرض طويلة غريبة، وكأنّنا عمالقة من الأقوام التي سكنت هذه الأرض في عصور غابرة.

حين وصلنا إلى غايتنا في ذلك السهل الفسيح، لم نجد سوى بناء خشبي (برّاكية) ولا أحد هناك، فالوقت لا زال مبكراً، وبعد قليل حضر المسؤول وكان شامياً أيضاً، وعند الظهيرة، أعطونا ثلاثة (شوادر) انهمكنا في نصبها وإعدادها، وكان الزاد الذي معنا قد نفذ، فحُضّر الغداء، بطاطا مسلوقة وبصل مشوي.

14. في الأردنّ

اشتغلنا في ذلك المكان ما يقرب الثلاثة أشهر، كانت كمن يقضي عقوبة في الأشغال الشاقّة، تعرّفت خلالها مصادفة إلى رفيق من الشام اسمه عزّت الزيبق، وإلى زميل في العمل من إربد اسمه فيصل النصراوي، عرف أنّي أعمل في الأصل نجّاراً وليس في أشغال "الباطون"، فدعاني إلى بيته، وعرّفني بوالده الذي طلب منّي أن أشتغل لهم أبواب الطابق العلوي في المبنى الذي يسكنونه، فقلت له:

– "ليس معي عدّة"، فقام وأراني دكّان نجارة مكتملة في المبنى نفسه لابنه الكبير اسكندر الذي التحق بالجيش. حصل هذا قبل أن نُسرّح، الرفيق عزّت وأنا، من العمل في ذاك المعسكر، بفترة قصيرة.

انتقلنا، عزّت وأنا، إلى بيت أبو اسكندر، وبدأنا العمل الذي استغرق شهراً وبضعة أيّام، وبعد أن قبضنا الحساب وجدنا أنّ ما معنا من دراهم لا يكفي لعودتنا، فقرّرنا الذهاب إلى عمّان للعمل، فربّما يكون الحال هناك أفضل. وكان السائق الذي اشتغل معنا في العمل السابق، قد سُرِّح أيضاً، وصار يعمل على سيّارة بين عمّان وإربد، فاتّفقنا معه ليأخذنا إلى عمّان، وهكذا كان.

*

وصلنا عمّان في السابعة مساءً وعلى ضوء الكهرباء أرشدنا السائق إلى نزل نبيت فيه، حيث وضعنا أمتعتنا، ثم رافقنا عبر طريق كثير المنعطفات، إلى مقهى، صاحبه وزبائنه كلّهم، من الشام. دخلنا المقهى الذي يعجّ بالزبائن، وسحابة من دخان السجائر و(الأراكيل) تخيّم فوق رؤوسهم، تلمّسنا طريقنا إلى جماعة دعونا إلى مجالستهم، وكان الرفيق عزّت يعرف بعضهم، وحين انقضاء السهرة، دعونا للنوم عندهم، لأنّ البوليس يأتي ويتحرّى كلَّ ليلة في الفنادق والمنازل العامة، ويقتاد كلَّ من دخل الأردنّ بشكل غير نظامي، إلى النظارة. وسرنا معهم إلى غرفة منفردة أمامها فسحة صغيرة تنتهي عند بئر جافّة، وداخل الغرفة تمتد الفرش مغطّية معظم أرض الغرفة، تاركة فسحة تكفي لخلع الأحذية فقط. نمنا، عشرة أشخاص، في تلك الغرفة في فسحة بمقدار نصف متر عرضاً للشخص الواحد. لم أنم في تلك الليلة أكثر من ساعة، وفي الصباح غادر الجميع إلى أعمالهم، وذهب عزّت معهم، وعند الظهر خرجت إلى النزل وسرّني أنّي وصلت إليه بسهولة مسترشداً بإحساسي فقط، وأتيت بالأغراض إلى الغرفة، ثمّ قصدت إلى شكري مشربش في مكتب المعتمد البريطاني، وكان معي بطاقة توصية له من وليم أبو خليل، بغية مساعدتي في إيجاد عمل،

فرافقني إلى مكتب "بدير وملص" لكنّنا لم نجد المسؤول وقيل لي أن أعود غداً، وعدت إلى الغرفة وكان عدد النزلاء في تلك الليلة أقل من سابقتها.

15. في السجن.. مع السياسيين

بعد ظهر اليوم التالي قصدت مكتب "بدير وملص" في وسط ساحة عمّان، وسرت متوجّهاً إليه على الرصيف المقابل لكي أرى الباب إن كان مفتوحاً أو لا، وإذا بي وجهاً لوجه مع مخفر للشرطة، وللحال أدرك الخفير أنّي غريب، فاقتادني إلى الداخل ليتحقّق من أوراقي، وسرعان ما نُظِّم بي محضر، وتمّ احتجازي في النظارة إلى اليوم التالي، لحين حضور سيّارة السجن التي ستقلّني إلى السجن المركزي الكبير.

في اليوم التالي أتت السيارة، وصعدت إليها، مع غيري من موقوفي النظارة، دون (كلبشات)، وحين وصلنا إلى السجن كان السجناء في الباحة، وأعطانا المأمور ما ننام عليه، وقيل لنا:

– "انتظروا حتى يدخل السجناء لتدخلوا معهم"، فانتظرنا، وتغيّر الموقف حين ابتدأت الصفوف بالمسير، إذ مشيت في أحدها دون أن أعرف إلى أين أسير، ودخلنا الممرّات أمام الغرف، فكنت أنظر إليها متهيّباً الدخول، فضلاً عن أنّي أجهل أيّها التي ستستقبلني، إلى أن وصلت أمام غرفة نظيفة ومرتّبة بشكل لافت للنظر، فدخلت دون أن يأمرني، أو يمنعني، أحد.

وقفت في مكاني حزيناً وأرخيت من يدي ما أحمله من فراش، وكنت الوحيد الذي دخل الغرفة من (زملاء النظارة)، فتقدّم منّي أحد السجناء، ويبدو أنّ لديه تجربة مع تلك الحالات، ورتّب لي فراشي مطيّباً خاطري. وجلست مثل الباقين وكانت فترة هدوء استمرّت حوالي الساعة من الزمن، لمحت خلالها عدداً من مجلّة "الرسالة" التي كان يصدرها في مصر أحمد حسن الزيّات، وكنت أقرأ أعداداً منها في مشغرة عند الأمين عبد الله محسن، فقلت لجاري:

- (من فضلك بتسمحلي بالمجلّة شوي)، فسألني متعجّباً:
- (انت بتقرا بِهَيْ المجلّة)
- (شو بيمنع)، فسألني لماذا أنا معهم، ورويت لهم قصّتي باختصار، فقال:
- (بسيطة خمس ليالي راحت وحدة منهم بالنظارة)، والتفت إلى رفاقه معرّفاً، ولم تعنِ لي الأسماء شيئاً وقتها: هاشم عليّان، د.محمّد أبو راس، عوني عبد الهادي (أصبح وزيراً فيما بعد)، حسن السعودي. وكان هناك ثلاثة أو أربعة سجناء لم يشاركوا في الحديث ولا في التعارف، ما عدا الذي استقبلني "أبو شام".

خيّم الظلام في الخارج وأنوار السجن لم تطفأ، وحان موعد توزيع (القروانة) إذ مرّ الجنود الذين يتولّون هذه المهمّة، لكنّهم لم يلتفتوا إلى غرفتنا، وبعد قليل فتح السجّان الباب، وأُدخلت أطباق وصرر وُضعت في وسط الغرفة، وقام الزملاء الذين ذكرتهم آنفاً فرتّبوا الأكل ودعونا للمشاركة، فشارك الجميع دون استثناء في تناول الطعام بالأيدي، وكنت حريصاً أن أفعل مثلهم، ولكن، لم يخلُ الأمر من بضعة هفوات.

وبقيت مستغرباً من موضوع الطعام المميّز لهذه الغرفة إلى أن عرفت فيما بعد أنّ زملائي كانوا من المساجين السياسيين، وهم يرفضون تناول (القروانة)، فيرسل لهم أهلهم طعاماً خاصاً.

بعد العشاء والاستراحة دار نقاش مبطّن بين زملاء السجن، كنت شغوفاً بتتبّعه، ثمّ بالمشاركة فيه بقدر الإمكان، إذ أنّ غيابي عن الحياة السياسية العامة منذ مغادرتي دمشق، جعلني في عزلة عمّا يدور.

مرّت الأيام الأربعة متشابهة، وفي صباح اليوم الخامس طال انتظاري للسيارة التي ستقلّنا إلى عمّان. وعند الساعة العاشرة من صباح 1938/3/12 صعدنا إلى سيارة السجن، كان معي خمسة أو ستة أشخاص، غادروا السيارة واحداً تلو الآخر بمرافقة الجندي الذي كان يأخذ الواحد منهم تاركاً الباقين في السيارة مخفورين، إلى أن

بقيت وحدي، وحين نادى الجندي باسمي وأنزلني من السيارة وجدت نفسي في وسط عمّان، أمام مبنى كبير، أصعدني الدرج وأدخلني غرفة فيها مكتب واحد وراءه موظف، وهناك سلّمني، وحيّا وانصرف. نظر الموظّف في الإضبارة التي أمامه وتأمّلني وقال:

– "ما قصّتك؟"، فقصصتها عليه بإيجاز ووضوح ودقة في تواريخ أحداثها، استمع إليّ حتّى النهاية ثم قال:

– (روح اشتغل)، وتلفّتُّ حولي وقلت:

– (هيك بدون ورقة أو إذن؟)

– (ما في لزوم). فشكرته وانصرفت.

16. معارف ومفاجآت

أُخلي سبيلي أخيراً، وذهبت فوراً إلى حيث كان يعمل عزّت، ولم أعد أذكر كيف علم بسجني. وفي اليوم التالي عدت إلى مكتب "بدير وملص"، فأدخلوني من باب يوصل، من المكتب، إلى المعمل الكبير المكتظّ بالعمال، وهناك لم أجد أيّ تعاون من أحد، سوى عامل واحد شامي. وحين قبضت أجري يوم الخميس، قررت عدم العودة إلى العمل مطلع الأسبوع. وكنت قد لمحت في طريقي، دكان نجارة، يوم أتيت أول مرّة إلى "بدير وملص"، فقصدته يوم الجمعة. استمهلني يوماً، وحين عدّت في اليوم التالي وجدته في مأزق مع (الشغّيل) الذي يعمل معه، فخلعت سترتي، ودون أيّة كلمة، انهمكت في إتمام المطلوب خلال ساعة واحدة. وحين هممت بالانصراف، قال المعلّم:

– (بكرا شرّف عَ محلّك). استلمت العمل عنده، وقد أعجبني، وأنهيت له عدّة أشغال، إلى أن تعثّر العمل لديه قليلاً، فعاد واستمهلني لبضعة أيام.

في هذه الأثناء، كانت الغرفة التي كنّا نسكنها تعجّ بالنزلاء، أناس يذهبون وأناس

يعودون، وجميعهم (شوام)، فقد كانت الأشغال بين دمشق وعمّان وكأنّهما مدينة واحدة، وتوطّدت علاقتنا وصار بيننا وحدة حال، وطلب منّي أبو محمود الميداني، أحد زملاء الغرفة، أن أتولّى تركيب واجهة خشبية كبيرة في أحد البيوت، كان قد أتى بموادها من دمشق، وبدأنا التحضير سويّاً، ثم صار يشرف على الأعمال ويعطي لي التعليمات والتوجيهات عندما نلتقي مساءً في الغرفة، أمّا في النهار فكنت أعمل وحدي في البيت المذكور، وعلمت أن صاحب الدار فلسطيني من عائلة حدّاد، ويملك محلاً لبيع الألبسة في السوق، وصار بيننا خبز وملح، وكان أبو محمود يشتغل لهم أيضاً أعمال الديكور في محل الألبسة، وحين انتهيت من تركيب الواجهة انتقلت للعمل معه في المحل، وكان يقع للمصادفة، تجاه ذلك المبنى الكبير في وسط السوق، "دائرة الأمن العام".

*

وقتها كانت البلاد تعجّ بالأحداث والمشاورات السياسية، كمشروع الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والأمير عبد الله، ومقتل الملك غازي في بغداد، ثمّ المأتم والتظاهرات في عمّان، وكنت قد اعتدت أن أعود من عملي إلى المقهى المعهود حيث تجتمع (الشلّة)، نتعشّى ونسهر ثمّ نعود إلى الغرفة للنوم. ومساء أحد الأيّام ونحن في المقهى فوجئت بالرفيق حسن منصور، من مشغرة، آتياً يسأل عني، سلّم وانضم إلينا، وبعد العشاء دعاني لمرافقته إلى بيت طرّاف حيمور، وكان لهذا شأن أثناء حكم الملك فيصل في دمشق، وهو من بلدة القرعون وصديق لأمين منصور والد حسن.

كان منزل طرّاف حيمور قريباً من المقهى ولا يبعد كثيراً عن دائرة الشرطة، فبعد بضع دقائق وجدت نفسي في رواق أمام منزله وكان هو جالساً على فراش صغير ومتكئاً على مسند وأمامه عصاه. وما إن سمع وقع أقدامنا حتى هتف:

– "من القادم؟" فتقدّم حسن وقدّم نفسه ثم قدّمني إليه. كان وقتها قد صار كفيف

البصر، منقدّماً في السنّ. وهو الذي نزح من القرعون في العشرينات وأتى إلى عمّان ومعه عائلته، والبيت الذي يقطنه كان لأحد أبنائه. لم نشعر بأيّة حركة في المنزل، وكان في المكان مقاعد فجلسنا، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث عن أيام زمان، وصار يسأل عن أصدقائه في مشغرة ومعظمهم كان قد مات، ثم قادنا الحديث إلى ذلك العهد وأيامه، وأسمعَنا في المناسبة قصيدة نظمها بعد مؤتمر الصلح العالمي في باريس، وكانت رائعة فعلاً، معنىً ومبنىً وموضوعاً. شربنا القهوة وحان وقت الانصراف، فرافقت حسن إلى الفندق الذي ينزل فيه، وأخبرني في الطريق عن المقابلات الصحفية التي قام بها في اليوم الفائت. وأفادني أنّه لم يتلقَّ المال الذي طلبه من بيروت من شركة "الأخبار العالمية"، التي يحمل بطاقتها ويعمل كمراسل لها وهي ملك لعبد الكريم أبو النصر. فأعطيته ما أحمله، فنحن رفقاء ومن بلدة واحدة.

*

في اليوم التالي وعند الظهر وكنت حينها في المحل الذي أعمل فيه، فوجئت بطرّاف حيمور داخلاً إلي، يقوده ولد أظنّه أحد أحفاده، وحالما تقدّمت وسلّمت، بادرني قائلاً:

– "حسن في الحبس يا رشيد". وكنت أعرف أنّ حسناً لا يحمل جوازاً، فقلت له:

– "اطمئن، غداً الجمعة سأذهب لزيارته". وطلب مني أن أبلغه بأيّ جديد ثم غادر.

في اليوم التالي وكان يوم جمعة، وهو يوم تعطيل في الأردن، ويسمح فيه لأهالي السجناء بزيارتهم، توجّهت إلى مبنى السجن الذي كنت نزيلاً فيه منذ وقت غير طويل، حاملاً بعض الأطعمة والفواكه وقابلت حسن منصور، وسلّمته الأغراض بعد تدقيق من أحد رجال الشرطة، وقد كان فعلاً سبب توقيفه هو عدم حيازته جواز سفر، ولم أفكّر بإبلاغ طرّاف حيمور، إذ ليس هناك من جديد.

17. الإبعـاد

في اليوم التالي وحوالي الظهر، دخل شرطيّ إلى المحل حيث أعمل، وهو يحمل ورقة ويسأل عن رشيد بركة، وحين قدّمت له نفسي، فاجأني بأمر لم يخطر على بالي إذ قال:

– "أنت مبعد يا رشيد". دهشت واستفسرت عن السبب، فسألني:

– (بتعرف تقرا؟)، وأراني ورقة تحمل توقيع الأمير عبد الله بن الحسين شخصياً، قرأت فيها: "يبعد رشيد بركة من الأراضي الأردنية، وعلى السلطات التنفيذية تنفيذ هذا الأمر فوراً".

وفعلاً لم يتركني الشرطي إلى أن وضّبت أغراضي في حقيبة اصطحبتها معي إلى دائرة الشرطة، بعد أن مررت بعزّت الزيبق في محلّ عمله، وأخبرته بالأمر الذي لم أكن قد فهمت أسبابه بعد، وكلّفته ببعض الأمور.

طالت القصّة في دائرة الشرطة، واستغرقت ثلاثة أيّام بين أخذ وردّ، إذ كان عليَّ أن أدفع أجرة ركوبي وركوب الشرطيّ، الذي سيرافقني، في السيارة التي ستبعدني حتّى مخفر جرش، ورفضت أنا هذا الأمر.

وبعد جهد جهيد، وصلت إلى دمشق تاركاً حقيبتي في جرش، على أن يأتي بها أحد المعارف. أمضيت مدة في دمشق في بيت آل عبّود تعاطيت أثناءها بعض الأشغال لتحصيل مصروفي اليومي، في انتظار خروج حسن منصور من السجن. وكنت أسأل عنه باستمرار في بيت محمد اللحّام، صهر مشغرة، (والد الفنان دريد). إلى أن وصل من الأردن إلى دمشق، بعد أربعين يوم، وبواسطة سيارة عسكرية حملته حتى الحدود السورية الأردنية، فكان أوفر حظّاً منّي، أمّا سبب توقيفه واستجوابه ومن ثم إبعاده، وإبعادي أنا بالجملة، فقد كان بسبب حمله بطاقة صحفية من "شركة الأخبار العالمية"، وعمله في الأردنّ كمراسل صحفي، وهو الذي دخل الأردنّ بصورة غير نظامية، ودون جواز سفر. وهكذا، بعد أن كنت قد بدأت بالتعرّف على الرفقاء،

وكنّا في بداية النشاط، وأوضاع العمل بدأت بالتحسّن، كانت النتيجة لا شيء، بسبب غلطة.

18. مدرسة أدال

عدت إلى مشغرة، وبدأت أستعيد أنفاسي وعافيتي، فذهبت وقتها إلى فاريّا حيث بيت أخي وديع، وكانت شقيقتي أدال تقيم عندهم، أمضيت بضعة أيّام في ذاك المصيف، وعدنا بعدها إلى البيت معاً.

بعد هذا الغياب كان لا بدّ طبعاً من أن أزور الصديق والرفيق شفيق ناصيف، رحّب بي كثيراً وصار يسألني عن الكثير من الأمور، فأخبرته عمّا جرى معي في الأردنّ، وكان مسروراً في البداية، ومتأسّفاً في النهاية. وأخبرتني والدته، السيدة أمّ توفيق، بعد الترحيب، عن مشروع جديد كان قيد العمل، ودعاني شفيق إلى المشاركة فيه حيث استلمت أشغال (الباطون)، بالإضافة إلى إنهاء أشغال النجارة عندهم.

في هذه الأثناء كانت والدتي في مسعى لإرسال أختي أدال إلى مدرسة صيدا الأمريكية للبنات، وقد حدث أنّ أخي أنيس تدخّل ليمنع هذا الأمر كما فعل معي قبل عشر سنوات، وأسمعَ والدتي كلاماً قاسياً مفاده أنّه هو الذي يأمر وكلمته يجب أن تنفّذ.

تأثّرت جدّاً من موقفه ولم أشأ أن أصبّ على النار زيتاً، فاتّفقت مع والدتي على ألاّ تحدّثه في الموضوع ثانية، وقرّرت أخذ الأمر على عاتقي فاطّلعت على التعليمات التي حصلت عليها والدتي من المدرسة، ووجدت أنّ الإمكانية متوفّرة مع القليل من المساعدة، ابتدأت بالمساعي دون ضجّة، وبعد استشارة الرفيق شفيق بحكم علاقتنا، كتبت إلى عمّي جريس في ديترويت، وإلى رئيسة المدرسة مرفقاً بعنوان عمّي لإرسال التعليمات إليه مباشرة. وكم كانت مفاجأتي وفرحتي كبيرتين حين تلقّينا إشعاراً بريدياً من مدرسة صيدا يفيد أنّ جريس بركة أرسل شيكاً بقيمة 6.5 دولاراً أميركياً، كامل

رسم السنة الدراسية، لصالح أدال بركة، والتي يجب أن تكون في المدرسة عند بدء السنة الدراسية.

أعددنا لوازم المدرسة لأختي قدر الإمكان، وفي الموعد المحدّد أوصلتها والدتي إلى صيدا وعادت، وعاد أخي أنيس ليصبّ جام غضبه علينا، ولكنّ الأمر كان قد حسم، وأمضت أختي أدال في تلك المدرسة سنتين دراسيتين، ممّا أفادها وسلّحها لطوال حياتها.

*

في النصف الثاني من عام 1938 وما يليه. كان وقتها العمل متوفّراً بالنسبة لي، إذ كنت أعمل طوال النهار، أمّا اجتماعاتنا فقد كان لها معظم الليالي، حتّى سهراتنا العادية كانت تتحوّل إلى جلسات مناقشة وبحث، واستمرّ الحال على هذا المنوال حتّى خريف 1939 حيث كان إعلان الحرب العالمية الثانية، وكان قد سبقه سفر زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي أنطون سعاده، ما أدّى إلى تراجع العمل الحزبي آنذاك.

وجاء شتاء 1939 - 1940 وصار شغلنا الشاغل في السهرات الاستماع إلى نشرة الأخبار من أيّ مذياع متوفّر، وكانت قليلة، وصار البيت الذي فيه مذياع أشبه بمكان عامّ لكثرة الزائرين، وترتفع حرارة النقاش أو تنخفض تبعاً لميول الحاضرين وحماسهم.

ومرّ الشتاء والربيع، وأقبل الصيف حيث ذهل العالم من انهيار القوة العسكرية الفرنسية، وعمّت الفوضى العارمة في لبنان، كلَّ مؤسساته ومصالحه ومرافقه العامة.

19. إلى دمشق، مجدّداً

تركت مشغرة في خريف 1940 لأخرج من واقع كان في نظري لا يحتمل، ولم يكن عندي تصوّر للخطوة التالية. كانت وجهتي دمشق، حيث بيت ابنة خالتي، آل

عبّود، وصديقي كميل وإخوته، لأبحث عن عمل وعن مكان أستأجره لسكني، ودُبِّرَ الأمر في مدّة غير طويلة، ومرّت الأيّام بشكل روتيني دون تغيّرات أساسية، وفي شتاء 1941 ساءت الأحوال في مشغرة وكثُر النزوح إلى دمشق، وأصبحت بيوت (المشاغرة) في دمشق مكتظّة بالوافدين الجدد، ومنهم أخي أديب. فأخذنا غرفة في مبنى يحتوي على خمسة غرف، ثلاثة منها، تسكنها عائلات من مشغرة.

خلال هذه الفترة تعرّفت على صديقة من كفر مشكي، كانت ممرّضة أولى في المستشفى الإنكليزي في حي القصّاع، واسمها لطيفة البوشي، وعرفت منها عن مدرسة التمريض التابعة للمستشفى ذاته، والتي تخرّجت هي منها. فكتبت إلى أختي أدال أعرض عليها أن تتعلّم التمريض على مدى ثلاث سنوات، فأجابت بالقبول، وسرعان ما تمّ الموضوع ودخلت أختي إلى مدرسة التمريض في الأوّل من تمّوز 1942، أمّا أنا فقد دخلت المستشفى الإنكليزي في الثاني عشر من تمّوز، على إثر ألم شديد ألمَّ بي، وأجريت لي جراحة استئصال الزائدة الدودية بعد ثلاثة أيّام، غادرت بعدها بخمسة أيّام إلى البيت لأمضي فترة نقاهة امتدّت شهراً كاملاً، وما أن عدّت إلى العمل، حتى دخل أخي أديب المستشفى، هو الآخر، لإجراء عملية جراحية، وكانت والدتي وأختي أديبة قد وصلتا إلى دمشق أثناء عمليّتي أنا، فانتقل سكننا إلى غرفة أكبر نوعاً ما، وكان من الصعب على الشقيقة أدال، أن ترانا الواحد تلو الثاني ضيوفاً عندهم في المشفى، وهي لم تكمل بعد فترة وجيزة من الدراسة والعمل، ولكنّ صداقة زميلتها لطيفة البوشي كانت مفيدة جدّاً، لأدال ولنا.

من ناحية أخرى، تراجعت أشغال الجيش الإنكليزي في دمشق، فعرضوا على العمّال الذين يعملون معهم الذهاب إلى فلسطين، لمتابعة العمل هناك، وتحمّست جداً للذهاب معهم، حين سمعت بالأمر، فأنا أحبّ التغيير واكتشاف الآفاق الجديدة، خصوصاً وأنّي قد خضت تجربة العمل في الأردنّ. ولكنّ أخي أديب كانت له وجهة نظر أخرى، وقال أنّه يحبّ خوض التجربة، لأنّه معلّم عمار، وأقدر منّي على تحمّل

المشاقّ والمتاعب. وسافر أخي إلى فلسطين حيث أمضى هناك نحو خمسة أشهر عاد بعدها إلى دمشق دون أن يوفّق في رحلته.

20. النادي و(طابية) الخوري

أطلّ ربيع عام 1943 وقد انحسر شبح الحرب نسبياً، وأصبح بالإمكان التطلّع إلى المستقبل بنظرة مختلفة. ولكن، وأنا أكتبها الآن، وأعيد ذكرياتها المرّة والحلوة على السواء، يشغلني السؤال، ما الذي تغيّر؟ فالأجوبة الكثيرة على هذا التساؤل، كلّها، لم تقنعني بعد بأنّ التغيير الذي صوّروه، قد حصل فعلاً.

عدت إلى مشغرة وحدي، وكان أخي أنيس، يشغل بيت العائلة أثناء غيابنا في دمشق فترة الحرب، وكان قد بنى في مشغرة بيتاً لآل عبّود، وهم أهل زوجته. وكنت أنجزت في هذا الوقت تفصيل (المنجور) لذلك البيت، فتابعت العمل لتركيبه وإتمامه في مدّة تزيد عن شهر، وبعدها كان العمل عند الصديق شفيق ناصيف في انتظاري. وعادت العائلة من دمشق، أختي أديبة إلى بيروت، وأمي وأخي أديب إلى مشغرة، حيث تدبّر أنيس أمره فاستأجر بيتاً وانتقل إليه، وعدنا للاستقرار في بيتنا الذي كان بحاجة للكثير من اللوازم بعد طول غياب عنه. أما أختي أدال فقد بقيت في دمشق لمتابعة دروس التمريض.

في تلك الفترة وقبل أن تعود والدتي وأخي أديب من دمشق، كنت أقيم ضيفاً عند أخي أنيس في منزل العائلة، أو عند أختي أنيسة، وكنت أفضّل السهر مع الأصحاب وخصوصاً في الصيف، ومرّة دعاني لطفي الدبس إلى اجتماع عند الخوري حيث كانوا بصدد تشكيل لجنة لتأسيس نادي، وأخبرني أنّ رفقاءنا مشاركون. توجّهنا من السوق، والوقت أوّل السهرة، إلى الأنطش مكان سكن الكاهن، وكان آنذاك الأب إيزيدور حنّا، المخلّصي، من "شفا عمرو" في فلسطين، وكان الحاضرون تسعة أشخاص، هم الخوري، ألبير كرم، جوزيف الغزال، عزيز البطل، لطفي الدبس، حكمت

شرارة، جوزف رفّول، ألبير ناصيف، وأنا.

لم يكن اجتماعاً بالمعنى العملي، بل أشبه بسهرة يترأّسها الخوري، ودار الحديث عن النادي المزمع إنشاؤه، وكنت مستمعاً طوال الوقت، ولكنّي أدوّن في ذاكرتي نقاطاً وملاحظات. فما من أحد يقول كلمة أو يبدي رأياً. الخوري وحده يتكلّم ويوجّه، ولاحظت أنّ الخوري يتكلّم عمّا في نفسه، ثم ينتظر ردّات الفعل، وبعد مماحكات قليلة لا أكثر، يقول الخوري:

– "تبرّعوا يا شباب"، فيتبرّعون، وسألت نفسي كيف ولماذا؟. وحين غادرنا، كانت طريقنا واحدة لطفي وأنا، فأبديت له ملاحظاتي على فوضى الاجتماع مقارناً إيّاها مع الاجتماعات الحزبية المنظّمة، فلم يوافقني الرأي، واستمرّ النقاش بروح طيّبة حول هذا الأمر، وفي النهاية اقترح طرح الفكرة على بقيّة المشاركين فوافقت، وافترقنا.

في الاجتماع التالي، بادر الخوري إلى طلب التعرّف إليّ، إذ لاحظ حضوري للمرّة الثانية معهم، وكنت قد لاحظت من الاجتماع الأول، ومن خلال معرفتي العميقة لكلّ الحاضرين، أن ليس لدى واحد منهم أيّ تصوّر أو فكرة عن تأسيس نادي أو ما شابه، وأنّ الخوري وحده صاحب الفكرة التي قد تكون [لغاية في نفس يعقوب]، وقد تأكّدت ممّا أقول مع بدايات الطريق التي انضممت إليها، حيث أنّ نظرة سريعة على مسار الاجتماعات تعطينا فكرة واضحة عمّا سيأتي.

حصل التعارف بيننا إذن، الخوري وأنا، وبعد أن اكتمل الحضور، شكّلنا حلقة حوله وشخصنا إليه، فاستراح في مقعده وقال:

– "يا شباب نريد أن نصنّع خزانة للكتب"

قال أحدهم:

– (نوصّي عليها عند نايف داود)

– (بيت غطّاس بيشتغلوا أحسن)

– (نجلب واحدة من بيروت نختارها على ذوقنا)

واحتدم نقاش اشترك فيه الجميع دفعة واحدة، كلٌّ يدافع عن رأيه، فرأيت أنّه صار لابدَّ من التدخّل، بعد أن بقيت صامتاً طيلة الوقت، فرفعت يدي طالباً من الخوري إذناً بالكلام. بهت الجميع وسكتوا، إذ أنّهم لم يعتادوا هذا الأسلوب، فقلت للخوري:

- "يا أبانا كلّ الكلام الذي انحكى في هذه السهرة سابق لأوانه"
- "كيف؟"
- "لنتكلّم أولاً دون انفعال، ثانياً لو المكتبة موجودة الآن، بماذا كنّا سنحتاجها؟"
- "نفكّر في الكتب لاحقاً"
- "أرأيت أنّه سابق لأوانه؟ المطلوب أوّلاً أساس الفكرة، الجهاز البشري الذي سيشكّل هيكلية النادي، والقرارات والإجراءات التي تصدر عنه هي التي تكفل استمرار مسيرة النادي. أمّا أن نضع العربة أمام الحصان! فقصّة كلّنا يعرفها، المكتبة أو العربة أو غيرها مما يحتاجه النادي، هي وسائل مادّية يسهل توفيرها، نحن بحاجة أوّلاً إلى الفكر الذي يستعمل الوسيلة في مكانها الصحيح". وسكتُّ، وجلست. وفوجئت بموجة من التصفيق من الحضور.

ثم بعد فترة صمت وجيزة، تنحنح الخوري وقال:

- "الحقّ مع رشيد يا شباب، لنهتمّ أوّلاً بهيكلية النادي".

وانفرط العقد، وما تبرّع الشباب. وكنت أقرأ في عينيّ الخوري شعوره العميق باهتزاز موقعه، وبأنّ البساط يسحب من تحت رجليه تدريجياً.

*

بعد فترة قُرِّر إجراء انتخابات لرئاسة النادي، وروّجت لفكرة أن نسمّي الفائز سكرتيراً، تجنّباً لإثارة الحساسيات، ورسمت دوره ليكون محور اللجنة. وحصل الاتّفاق شفوياً بين الجميع، ثم تبيّن لنا في أحاديثنا الخاصّة سعي لطفي الدبس والخوري لربح هذه الانتخابات لصالح فئة سياسية معيّنة. واتّفقنا خمسة من أصل سبعة على تسمية حكمت شرارة ليتولّى هذه المهمّة.

وفي ليلة تمّ اجتماع بدون موعد في الأنطش، ففاجأنا الخوري باقتراح إجراء الانتخاب على الفور، دهشنا، ووافقنا، ووزّع علينا أوراقاً صغيرة، وخلع طابيته لتكون صندوق الاقتراع، وسرعان ما نزلت فيها سبع أوراق، وبدأ الفرز، وقرأ الخوري ورقة باسم مرشّحنا، تلتها أخرى مماثلة، فارتبك، وأعلن:

- "(بالوتاج يا شباب) نعيد الاقتراع"، ووزّع الأوراق ثانية، وبدأ الفرز، وكما في المرّة الأولى، أعلن:

- (بالوتاج...) فنهض ألبير كرم، ووضع يديه على يد الخوري وقال:

- "اترك الأوراق يا أبانا". وكانت نتيجة الفرز الصحيح أربعة أوراق باسم حكمت شرارة مرشّحنا، ورقتان باسم لطفي الدبس، ورقة باسم أحد الأعضاء الآخرين.

انسحب لطفي الدبس على الفور من المجلس وتبعه عزيز البطل، وساد الوجوم للحظات أشفقنا فيها على وجه الخوري المتصبِّب عرقاً، والذي كان يتلوّن كالحرباء.

ومشى النادي متعثّراً أوّل الأمر، ثم انطلق بقوّة لتشهد مشغرة، ولأوّل مرّة في تاريخها، قاعة يُسمع فيها محاضرات وندوات أدبية ومباريات شعرية. وكنت قد وضعت، وبمفردي، النظام الداخلي للنادي من عشرين مادّة عرضت مسوّدتها في اجتماع إداري وصُدّقت دون أيّ تعديل، فكما قلت سابقاً ما من أحد لديه أيّ تصوّر عن أمور كهذه، وقد رسّخت نشاطات النادي لديّ صداقات عديدة، أهمّها مع إميل رفّول، كما رسّخها الانتماء الحزبي الواحد إذ كنت عرّابه، بعد جهود ومعارك كلامية عديدة.

21. أدال، وحيدة

في صيف عام 1944 تلقّيت مكالمة هاتفية إلى غرفة الهاتف العمومية القريبة من مكان عملي، من أخي وديع المقيم في بعبدا، أسرعت إلى المكان، وسمعت صوت أخي المتقطّع بسبب تشوّش الخطوط، واستطعت أن أفهم منه بعد جهد جهيد:

- "اجلب معك نقوداً وتعال إليّ بسرعة، نريد إدخال أدال إلى المستشفى".
ورجعت إلى العمل إذ كنّا في زحمة صبّ الباطون، وكنت أشرف على خمسة وعشرين عاملاً ومعلّماً، سألني شفيق:
- (خير انشالله؟)
- (بعدين بحكيلك)، وبعد الانتهاء من العمل وانصراف العمّال، رافقته إلى البيت وأخبرته ما فهمته من المكالمة الهاتفية، قال:
- (بسيطة)، وكان هذا جوابه الدائم تجاه كلّ مشكلة أراها أنا (عوّيصة)، وأردف:
- (قدّيش المطلوب)، أجبت:
- "قد أحتاج مائتي ليرة"، نقدني المبلغ وقال:
- "اذهب غداً وتدبّر أمرك".
في اليوم التالي استقلّيت البوسطة، واسطة النقل الوحيدة إلى بيروت، ومنها إلى بعبدا، وصلت نحو العاشرة صباحاً، وكانت زوجة أخي وابنته في البيت.
- (وين أدال، شو صار؟)، وأحضرت زوجة أخي كوب عصير، ثم أوجزت لي ما حدث. في دمشق لاحظ الدكتور توماس، رئيس المستشفى الإنكليزي، حيث تدرس وتعمل أختي، بوادر مرض صدري عندها، وعندما تأكّد منه، أخذها إلى بيروت إلى عيادة الدكتور نعمة نخّو، رئيس وصاحب مستشفى الشبانية، الذي أمر بإدخالها المصحّ.
صعقني الخبر وكأنّ كارثة ستحلّ، وهرولت إلى بيروت حيث أختي أدال، في فندق مديره وديع الحاج، شقيق صهرنا حليم، أرشدني إلى غرفتها، وحين دخلت كانت غارقة في دموعها، ومن الواضح أنّ جفناً لم يغمض لها طوال تلك الليلة، أخذت أهدّئ من روعها وأهوّن الأمر عليها، وأقنعتها بأن تغسل وجهها وترتدي ثيابها، ثمّ نزلنا إلى مطعم قريب، إذ أنّ أحدنا لم يذق الطعام ذلك اليوم. وأثناء تناولنا الغداء شرحت لي تفاصيل القصّة، فحين قرّر الدكتور توماس الحضور بها إلى بيروت سألها

عن أهلها وأين هم، فأخبرته أنّ شقيقها في بعبدا وهو قريب من بيروت، وهكذا حوّلا طريقهما إلى بعبدا، ورافقهم وديع إلى عيادة الدكتور نخّو، وأنجزوا الترتيبات لدخولها مصحّ الشبانية التابع لمؤسسة نخّو، وكم عزّ عليها تصرف أخيها وديع الذي تركها تذرف الدموع طوال تلك الليلة وحيدة في غرفة الفندق، إذ أنّ الفكرة الوحيدة التي سيطرت عليه، أنّها مريضة بالسلّ، وقد تنقل العدوى إلى عائلته بدقيقة، إن هو أخذها إلى بيته. ولم يخطر في باله أن يسأل الدكتور توماس لماذا لا تكون إدارة مستشفاه مسؤولة عن ممرّضاتها، وهي أيضاً لم يخطر الموضوع على بالها.

*

صار همّي الوحيد إيصال أختي إلى المصحّ، وهكذا من الفندق إلى المطعم إلى السيّارة، حيث وصلنا الشبانية نحو الخامسة بعد الظهر، سدّدت النقود المتّفق عليها في مكتب المصحّ واتّفقنا على الدفعات التالية، ثم سألت عن مكان أبيت فيه ليلتي، فأرشدوني إلى بيت في سوق حمّانا رخيص ونظيف، وقضيت ليلتي هناك استعرض أحداث النهار الطويل.

حين أصبح الصباح، توجّهت إلى بيروت ومنها استقلّيت البوسطة إلى مشغرة، ورويت عند وصولي تفاصيل القصّة لوالدتي مع محاولة تخفيف وقعها، ولا أزال أذكر كم ذرفت من دموع. وفي الشهر التالي أخذتها معي لزيارتها وكان لقاءها معها مؤثّراً للغاية، ولكنّ نظافة المكان وجماله، وتحسّن صحّة أختي ، هوّن الأمر عليها وارتاحت بعض الشيء. ولم يطل الوقت حتّى استعادت أدال عافيتها، واشتغلت ممرّضة في المصحّ نفسه.

في تلك الأثناء كنت قد تسجّلت في الـ .B.I.O.T أو المعهد البريطاني، بالمراسلة، وكان حينها في فلسطين، وقد قطعت شوطاً لا بأس به في الدروس التي أُرسلت لي لقاء القسط الأول من الرسوم. وكانت غاية في الصعوبة نظراً لضعفي في اللغة الإنكليزية. وبالرغم من ذلك، ومن عدم توفّر المناخ الصالح للدرس في مشغرة،

أنجزت ما مجموعه تسعة عشرة درساً من أصل أربعة وعشرين، وفي ظروف غير مؤاتية على الإطلاق.

22. قسّيس وواعظ

كان خالي سمعان في أميركا، ولم تنقطع الرسائل بينه وبين أخته، والدتي، طوال فترة غيابه التي دامت خمساً وخمسون سنة، بينما كان يوكّل "تسيب" ابن خالتي ملكة بأمور البناء وقطع الأرض العائدة إلى والده فارس الحاج (أبو أمين)، وانتشر خبر في مشغرة عن قدوم سمعان الحاج، خالي، وعقل الحاج، ابن عمّه وشقيق صهرنا حليم، وقد كان قدومهما سوية محض مصادفة.

عندما ترجّل الخال من السيارة في الشارع العام في وسط مشغرة، لا أزال أذكر كيف صار يتلفّت حوله في الجهات الأربع كمن يبحث عن شيء فقده، طبيعة الأرض حول مشغرة وحدها لم تتغيّر عمّا تركها حين غادرها، وتعاونّا على نقل الحقائب إلى بيت جدّي الذي تفصله عن بيتنا قطعة أرض تعود لهم، فيها أشجار من التوت. وفي صباح اليوم التالي جاء خالي إلى بيتنا ليرى شقيقته، أمّي، وكان اللقاء مؤثّراً فعلاً، فقد اجتمعا بعد غياب دام خمساً وخمسون عاماً. ولم يكن أحد يعلم أنّه جاء ليصفّي أملاكه ويعود، فقد كان مستمعاً أكثر منه متكلّماً، وإذا تكلّم فقليلاً وبإيجاز.

صار خالي يوزّع إقامته بين بيتنا وبيت جدّي، واستطعت أن أستنتج مشاريعه وأفكاره دون أن يخبرني بها، وأوّل عمل قام به، حتى قبل أن يرتاح من وعثاء السفر، زيارة للكنيسة والمدرسة الإنجيلية، التي بناها جدي، وقد رافقته في تلك الزيارة، وعدنا دون أن يقول كلمة واحدة، كعادته.

وبعد عدّة أيام بدأ العمل، فأجرى بعض الإصلاحات البسيطة في الكنيسة، ثم دعا العائلة والأقارب والأصدقاء لحضور صلاة يوم الأحد، وحضر الجميع بناءً على الدعوة، فكانت مهزلة ولا أروع إذ تولّى هو مهمّة الواعظ والقسيس، شارحاً ما ينوي

عمله، وكان هذا مفاجأة للجميع، ونوقش الموضوع مليّاً في البيت، لكنّ الأمر حسم، فقد كان مصمّماً على بيع وتوزيع أملاك الأسرة ومن ثمّ العودة إلى أمريكا.

23. بين صيدا وبيروت

في ربيع عام 1946 كلّفني أخي أنيس بالذهاب إلى بيروت لمفاوضة نجيب طرابلسي، ابن خالتنا، في شأن عمل في قناة الليطاني بين صيدا وصور، كما طلب إليّ الذهاب إلى موقع العمل لمعاينته وإعطاء تصوّر عن كيفية إنجازه، ففعلت، واشتركنا فعلاً في العمل، فأعددنا أنفسنا وانتقلنا إلى موقع تحت قرية عدلون، حيث كانت حصّة نجيب وشريكه المهندس ليلكيان، نائب الأرمن. وأدركت من اليوم الثاني صعوبة العمل إذ أنّ أصابع يدي العشرة تشقّقت من خشونة الحجارة والإسمنت، وأمضيت معهم خمسة عشر يوماً، ثم عزمت على الرجوع إلى بيروت.

*

كانت الورشة محاذية لطريق صيدا – بيروت، وصباح ذلك اليوم وضّبت فراشي على هيئة طرد ضمّنته ثيابي، وحزمت المنشار الكبير إلى جانبه، ووقفت في انتظار السيّارات المتّجهة إلى بيروت، وصلت البوسطة، وأجرة الراكب فيها ربع ليرة، وكانت مكتظة بالركّاب، فلم أركب. ثم أتت سيارة تتّسع لثمانية أشخاص، والأجرة فيها نصف ليرة، وفيها أماكن شاغرة، فأخذت مكاني في المقعد الخلفي، بعد أن رفع السائق الطرد إلى ظهر السيارة، وانطلقنا، وبعد أن ابتعدنا قليلاً، وكان الدرك ينتشرون على جانبيّ الطريق، فقد كان نزوح الفلسطينيين إلى لبنان في بدايته، أوقفنا دركيّ وأخذ يسأل الركّاب عن بلداتهم، ثم تطلّع إلى ظهر السيارة وسأل: لمن هذا الطرد؟ فأجابه السائق وكان قد رأى المنشار كطابع البريد:

– (للمهندس ورا)، وتفحّص الدركيّ الركّاب بعينيه إلى أن اكتشفني، واقتنع، وقال للسائق:

– (روح)، وضحكت في سرّي، صحيح لم أوفّق في العمل في صيدا إنّما أصبحت مهندساً! حين عدلت عن ركوب البوسطة، وبفارق ربع ليرة.

24. عملٌ.. لا عمَل فيه

في بيروت، صار همّي الوحيد إيجاد الوسيلة لتأمين لقمة العيش، وكان أخَوَي لطيفة البوشي (الممرضة) قد نقلا سكنهما إلى بيروت، وحصلا على وظيفة في شركة الـ I.P.C. في طرابلس، وفي زياراتي إلى بيتهما في بيروت شجّعاني للذهاب إلى طرابلس بغية العمل مع الشركة ذاتها.

يوم الأحد الذي يسبق عيد الميلاد، في عام 1947، وكان يومها عرس أخي أديب على الفتاة التي اختارها من منصورية بحمدون، وقد شاء أن يكون العرس في غاية البساطة، توجّهت مع أخي وديع وأسرته إلى بيت أهل العروس، وحضرنا العرس، الذي خدم مراسمه أخي وديع، وبعد تناول الغداء، أسرعنا بالنزول إلى بيروت، لأن الطقس كان ينذر بعاصفة، بالسيّارة اليتيمة التي كنت استأجرتها من ساحة البرج، بعدما لفتني شكلها وشيب سائقها. وبعد أن غادر الجميع إلى مشغرة، توجّهت إلى بيت الأخوين البوشي، اللذين سيعودان إلى طرابلس يوم الاثنين، وكان الياس الأخ الأصغر، قد أحضر معه ورقة طلب العمل وملأناها سوية، لأنّها بالإنكليزية ويتعذّر عليّ كتابتها دون مساعدة.

في اليوم التالي انطلقت إلى طرابلس، وكأنّني مسافر إلى مكان بعيد وغريب، وسرعان ما هان الأمر حين التقيت هناك العديد من الأصدقاء من مشغرة، كانوا بدورهم طلاّب عمل. وفي صباح اليوم التالي ذهبنا إلى "التعتور" قرب المصفاة حيث مكاتب شركة I.P.C. التي انتقلت من حيفا، وقدّمت الطلب هناك في مكتب التوظيف حيث رقد مع مئات غيره، وسألوني أن أترك عنواني في طرابلس للاتّصال بي، فتركت عنوان محلّ النجّار شكيب طرابلسي في شارع التلّ. وكان عليّ الانتظار، فأفادني

الأصدقاء أنّ شركة "الكات" توظّف عمّالاً بالمئات، ولم أتحمّس بادئ الأمر لأنّ العمل فيها مؤقّت، وأنا أرغب في الاستقرار والتفرّغ للدرس في الليل، إنّما قلت لنفسي لنبدأ أوّلاً مع "الكات" وننتظر نتيجة طلب الـ I.P.C.

في أوّل يوم من العمل الجديد كنّا خمسة جدد لا أعرف أحداً منهم، وبعد طول انتظار أمام أحد المكاتب خرج أحد الموظّفين وقال:

– "اتبعوني". وتبعناه إلى مبنى كان ثكنة للجيش الفرنسي، وصار يوزّعنا على الأماكن الخالية، فتفرّقنا في المكان الذي يحوي ما يقارب ثلاثمائة نجّار يعملون. أخذت مكاني ورتّبت المعدّات في انتظار العمل، ولكنّ غياب الموظّف الذي سلّمني المكان طال، وكلّ من حولي مشغول بما لديه، فصرت أمضي الوقت متنقّلاً من واحد إلى آخر متحدّثاً معهم ببضع كلمات محاولاً قتل الوقت بالتعرّف إلى أحدهم، إلى أن عاد "المعلّم" وبرفقته فتى وقال:

– (هالشبّ معاون معك)، فسألته:

– (على شو؟)، فضحك ومضى في سبيله. وتعرّفت على الفتى وكان اسمه بطرس وهو من منطقة طرابلس، ثم طلبت إليه أن يأتيني بقطعة من الخشب، فغاب قليلاً وعاد ومعه قطعة خشب بطول متر تقريباً، فتلقّفتها منه كمن لقي ضالّته المنشودة، وبدأت أتسلّى بها معالجاً إيّاها بكلّ دقّة وعناية، أمسح جوانبها وأعرضها على "الزاوية"، وبقيت على هذه الحال حتّى انتهاء الدوام، حيث فعلت ما فعله الباقون من تنظيف المكان وإخفاء كيس المعدّات قدر الإمكان.

في اليوم التالي عدت إلى قطعة الخشب إلى أن ذابت وصارت مثل قلم الرصاص، وماذا أفعل بعد ذلك؟ وبطرس "المعاون" يحدّثني عن أهله وضيعته، وسألته إن كان بالإمكان أن يأتيني بقطعة خشب أخرى، فأجاب بالنفي، وصرت أفكّر بترك هذا العمل الذي لا عمل فيه، وبعد قليل أتى "المعلّم" وأخذ بصحبته النجّار الذي كان جاري في المكان، ثم عادا ومعهما (درفة) باب وقطعة خشب، وغادر "المعلّم"

دون أن يلتفت صوبي. وبدأ الجار يستعدّ للعمل، فاقتربت منه وقلت:

– "صباح الخير، ما رأيك يا جار أن تعطيني قطعة الخشب لأشتغل عليها وتعمل أنت بـ (الدرفة)". فوافق، وأخذت الخشبة و(البيم) المكسور من (الدرفة) لكي أصنع من الخشبة (بيماً) بديلاً، والبيم هو الخشبة التي تغطّي الفراغ بين درفتين. وانهمكت في عملي بواسطة العدّة البسيطة التي معي، وقبل انتهاء الدوام بساعة تقريباً كان البيم الجديد مثل المكسور طبق الأصل، ولم أكن منتبهاً أنّ المعلّم كان يراقبني أثناء تجواله بين العمّال.

25. نجارة بالإنكليزي

في اليوم التالي آثرت عدم التسرّع في ترك العمل، ولم يطل الوقت حتّى أتى المعلّم وهو في عجلة من أمره وانتقى ستّة أو سبعة عمّال كنت أنا بينهم، وقال:

– (ضبّوا عدّتكم وتعالوا معي)، فأسرعنا وتبعناه إلى مبنى قريب كان مستشفى لثكنات الجيش، ويريدون ترميمه، وأدخلنا إلى الطابق الأرضي الذي كان مطابخ لذلك المستشفى، وقال لنا:

– "بعد قليل سيأتي الشخص المسؤول". وبعد بضع دقائق أتى المسؤول وسألنا:

– "من الأمهر بينكم؟"، ولم نجب لأنّنا لا نعرف بعضنا البعض، فاختار واحداً توسّم فيه أن يكون "معلّماً"، وسلّمه بوابة المدخل بعد أن شرح له ما يجب فعله، وهكذا فعل مع الآخرين، إلى أن وصل دوري أخيراً، حيث سلّمني (درفة) باب وابتدأ بالشرح، وحين التفت إليّ ووجد أنّي أنظر إليه وليس إلى الدرفة، سألني:

– "لماذا لا تنظر إلى الدرفة؟" فأجبته بالإنكليزية ما معناه:

– "لقد عرفت من البداية ما يلزمها"،

– "أريد واحداً يعرف بالنجارة، لا واحداً يحكي إنكليزي"، فأجبته بالإنكليزية أيضاً:

– "أعرف الاثنين معاً". فتركني وانصرف.

وانصرفنا كلٌ إلى إعداد نفسه وأدواته وطاولة شغله للبدء بالعمل، بعد أن سلّمونا معاوناً لكل نجّار، وكان من نصيبي شاب لطيف جدّاً اسمه يوسف، كان يلبّي طلباتي بسرعة، وهو أيضاً من أبناء المنطقة ويعرف كلّ الأشياء والأشخاص. عرفت منه أوّلاً اسم المهندس الذي كان معنا، جورج وهبة، من الكورة، وعرفت أيضاً أن "الكات" يملكها إميل البستاني وشريكاه عبد الله خوري وشكري الشمّاس وكلاهما من الكورة، ولم أستغرب ذلك العدد الكبير من العاملين من أبناء الكورة، ومعظمهم من الرفقاء. كما عرفت أنّ شركة "الكات" التزمت تقديم العمّال (بالعمولة) إلى شركة الـ .I.P.C وهذا سبب كثرة العمّال لديهم.

*

بعد يومين عاد المهندس جورج وهبة، وهو أسمر ضخم الجثّة وعليه مهابة الرجال، ودخل في الممرّ، وصوته يجلجل:

– (في واحد هون بيحكي إنكليزي، وينو؟)، فتقدّمت منه وقلت:

– "أنا يا حضرة المهندس"، فوضع على كتفي يداً مثل خشبة ثقيلة، وقال وهو يقودني في الممر:

– (بدّك تروح لبيت مدير شركة الـ I.P.C دبّر حالك)، وسلّمني إلى سائق سيارة شحن صغيرة، فركض يوسف إليّ قائلاً:

– "خذني معك يا معلّمي"، لكنّ المهندس بادرني:

– (في ميّة واحد تحت، خلّيه هون)، وصعدت إلى جانب السائق وانطلقنا من القبّة إلى طريق الميناء، حيث يقع المستشفى الإيطالي والمدرسة والبيت الذي يبدو أنّه لمدير المستشفى من حيث الإتقان وسويّة البناء، رافقني السائق وقرع الباب، ففتحت خادمة ترتدي الأبيض، قال لها السائق:

– "المعلّم الذي طلبتموه"،

– "تفضّل"، دخلت وانصرف السائق، واستمهلتني الخادمة لتعلم السيّدة فانتظرت

في البهو، وبعد قليل جاءت السيّدة، وكانت "سيّدة" فعلاً من حيث الجمال الذي بقي، رغم السنين، على ملامحها التي توحي بقوّة شخصيتها، ألقت عليّ نظرة سريعة دون كلام، واتّجهت ومعها الخادمة إلى غرفة كبيرة، تغطّي كامل أرضها، تقريباً، سجّادة حمراء كبيرة. وتبيّن أنّ المشكلة في الباب الذي يحتكّ من أسفله بالسجّادة الكبيرة والثمينة مما قد يسبّب تلفها، وأفهمتني أنّها لا تريد اقتطاع جزء من أسفل الباب كي لا يتشوّه، فأفهمتها بشرح بسيط أنّه لا يمكننا إلاّ ذلك، لأنّ رفعه يسبب اصطدامه بالعتبة العليا، وأجريت أمامها تجربة عملية، فوافقتني بشرط عدم تشويه الباب. وعدتها خيراً، وطلبت من الخادمة أن تأتيني بأحد ليساعدني في حمل الباب الثقيل، فأفادتني أنّ في البيت المقابل ورشة تابعة للشركة ذاتها. وذهبت إلى هناك لأجد ما يقارب اثني عشر نجّاراً في الدار الواسعة، ورأيت معلّماً عجوزاً أشيب الشعر يضع على عينيه نظارتين، اقتربت منه وسألته:

- "من المسؤول هنا"
- "ماذا تريد"
- "أريد المسؤول"
- "أنا المسؤول"
- "حسنٌ، أريد من يساعدني في البيت المقابل لمدّة نصف ساعة"، فأجابني:
- (روح لنشوف)، اجتزنا الشارع وأريته الباب، فأخذ يتفحّص عدّتي، وسأل:
- "أنت معلّم؟"
- "حسنٌ، هل يمكنك مساعدتي في رفع الباب؟"
- "لنرجع إلى الورشة"، ورجعنا، وراح يتكلم مع معلّم آخر يبدو أنّه مسؤول، وأنا أنتظر دون طائل، في هذه الأثناء وصل رجل في ثياب نظيفة يعتمر قبعة من القش، وأخبره الاثنان عن طلبي، فقال:

- (خلّينا نشوف)، فانزعجت من تفاقم الأمر، حيث عملوا (من الحبّة قبّة)

وقلت له:

- "من فضلك لا داعي وأنا أتراجع عن طلبي"، لكنّه أصرّ، واتّجه نحو البيت وسار وراءه اثنان أو ثلاثة، بينهم المعلّم العجوز، وسرت أنا في أعقابهم، دخلوا البيت واحداً تلو الآخر، فما كان من الخادمة المندهشة إلا أن أبلغت السيّدة التي ما إن أطلّت حتى انحنى (أبو البرنيطة) رافعاً قبعته بيسراه، ويمناه خلف ظهره، على طريقة القرون الوسطى، قائلاً بالإنكليزية:

- "أريد أن أسأل ماذا تريد السيّدة"، فأشارت السيّدة بيدها قائلة:

- "Out.! Nobody comes in this house except this man"، "خارجاً. لا أحد يدخل هذا البيت إلا ذلك الرجل"، مشيرة إليّ. فعادوا من حيث أتوا واحداً تلو الآخر، وبقيت وحدي أضحك في سرّي ممّا حدث، وعالجت الباب وحدي وقمت بالمطلوب، ثم نظّفت المكان، واستغرق ذلك فترة ما بعد الظهر، ودخلت السيّدة وأثنت على العمل، ثمّ قالت:

- "غداً نتحدّث عن بقية الأعمال".

26. كيف الوصول إلى الـ I.P.C. ؟

عرفت فيما بعد أنّ الخواجة الذي حضر كان ألبرت بابوجيان، وهو مهندس مع الـ C.A.T.، ومسؤول عن الأشغال في بيوت مدراء شركة الـ I.P.C.، ولكنّ المهندس جورج وهبة عندما طُلب منه نجاراً يعرف الإنكليزية، تذكّرني وأرسلني لهذا العمل، وقد وجدتها فرصة للتقرب من شركة الـ I.P.C. لأنّ هدفي من القدوم إلى طرابلس كان الوظيفة فيها، من أجل أن أتمكّن من متابعة الدراسة.

جرت هذه الأحداث خلال عشرة أيّام، تدبّرت خلالها أمر سكني عند بيت شكيب طرابلسي، لقاء ثمانين ليرة في الشهر، تشمل وجبة العشاء، وانتقلت من نزل يوسف رزق إلى بيت الطرابلسي. حاولت في البداية التركيز على الدراسة التي أهملتها كلّ

تلك المدّة، وكانت هذه الإمكانية، هناك، متوفّرة جزئيّاً، فقد أنجزت ثلاثة أو أربعة دروس فقط. ولكن بالرغم من هذا كانت فترة جميلة في التعرّف إلى أمكنة جديدة، وبناء صداقات تختلف عن المألوف لديّ. وقد كان آل الطرابلسي أكثر من أصدقاء، بل أهل. وفي العمل تعرّفت إلى الشاعر والرفيق وجيه الأيوبي، وإبراهيم حدّاد وهو من النازحين الجدد من فلسطين، وأصبحنا (شلّة).

كان ابراهيم، في الأصل، من تبنين ولمّا كان من آل حدّاد فقد ذكرت له أنّ صهري، في الولايات المتّحدة، من تبنين أيضاً، واسمه داود أيّوب حدّاد. وفي اليوم التالي أخبرني أنّ صهري هو ابن عمّ أبيه، ودعاني لزيارتهم للتعرّف إلى أهله.

*

في مساء اليوم التالي ودون موعد مسبق مع ابراهيم، اتّجهت إلى منزلهم حسب إرشاداته، وقرعت الباب ففتحت لي صبيّة في ثياب بسيطة وبدون زينة، سألتها:

– "هل هذا بيت ابراهيم حدّاد؟"

– "نعم تفضّل"، ودخلت في بهو واسع يحتلّ أفراد العائلة صدره، وفي أعقابي الصبيّة، ووقف الجميع للسلام، وصار ابراهيم يعرّفني بأفراد الأسرة واحداً واحداً أثناء مصافحتي لهم. عائلة ولا أجمل، الأب والأمّ، وحولهم أولادهم في جو أليف وودود، ودار الحديث بيني وبين الأب يعرّفني بعائلة حدّاد الكبيرة من تبنين، وقصّة الهجرة إلى فلسطين في أعقاب الـ .T.A.P، ثمّ نزوحهم إلى طرابلس لأنّ اثنين من أبنائه يعملان في الـ .I.P.C. ومضت فترة من السهرة لم أستطع خلالها الالتفات أو التحدّث إلى جارتي التي فتحت لي الباب إلاّ نادراً، ثم تحرّكت الأمّ لتحضير القهوة، والأب لتدخين سيجارة، واستدرت إلى الصبية أسألها وأحادثها، متأمّلاً تقاسيم وجهها وطريقتها في الكلام، لخمس دقائق، وحضرت القهوة والفناجين حسب الأصول، ولم أطل الجلوس بعدها، فاستأذنت بالانصراف، وقال الأب:

– (خلّينا نشوفك بعد، نحنا قرايب)

– (واجب)، وفكّرت في سرّي أنّه يجب أن أعود، مرّة ثانية على الأقل.

*

فكّرت كثيراً تلك الليلة، لكنّ هاجس العمل وتأمين الوظيفة والدراسة، بقي هو الأقوى، وتذكّرت عبارة جورج وهبة:

– (بدّك تروح لبيت مدير شركة الـ I.P.C دبّر حالك)، وخطر ببالي أن أطلب من سيّدة البيت توصية من أجل الوظيفة، ولكنّي تهيّبت ذلك، وقد لاحظت أنّ مهندساً اسمه جونز، يتردّد على منزل مدير الشركة، ويعطيني تعليمات عن الأعمال المطلوبة، وصار بيننا شيء من الأُلفة، فكتبت له رسالة مختصرة قدر الإمكان، عن غرضي من العمل والتوظيف، وفي اليوم التالي حاول إقناعي بالبقاء مع الـ كات.

ثم طُلبت مرّة إلى مكتب التوظيف حيث قدّمت الطلب في الـ .I.P.C، وكان رئيس المكتب إنكليزياً، فالتقيت هناك بطالب عمل آخر، وصار المسؤول يوجّه الأسئلة لكلينا، ونحن نجيب، وهو يدوّن إجاباتنا المتشابهة، وكان الرجل الآخر أكبر منّي سنّاً وتركيبه الجسماني أفضل منّي لجهة طبيعة العمل، وهكذا، وبمراجعة سريعة من موظّف مكتب التوظيف، اختار الآخر، وقال لي:

– "متأسف، ربّما لاحقاً".

وباختصار، فإنّ الهدف الذي خطّطت له، وعملت كلّ ما بوسعي لتحقيقه، لم يتحقّق. وبقيت مع الـ كات.

27. (محلّ) بمعنى الكلمة

انتهى عملي مع شركة الكات، وبعض أشغال خارجية، وصادف أن تعرّف شكيب طرابلسي إلى أصحابي آل البوشي، حيث أبدوا لي حاجتهم إلى مفروشات، والتزم شكيب العمل لهم عن طريقي، فسألني أن أبقى في طرابلس لأعاونه، وبقيت ثلاثة أشهر، تعلّمت خلالها صناعة المفروشات التي تختلف كلّياً عن صناعة

المنجور، ثم حان الوقت لأعود إلى مشغرة وأبدأ مجدّداً من الصفر.

كانت حصيلة رحلة طرابلس، من الناحية المادّية، لاشيء، ومن الناحية المهنية، تعلّم نجارة المفروشات، وفشلت في تحقيق مشروع الدراسة والتحصيل العلمي الذي كان يشغل كلّ تفكيري. إنّما استفدت خبرة في الحياة، والتعامل مع الناس، ممّا جعل أمور الحياة أسهل، بالتغلّب على الصعوبات.

في البيت في مشغرة كان أخي أديب قد بدأ يشعر أنّ الانسجام مفقود بين زوجته من جهة، وأمّه وأخته أدال من جهة أخرى، فقرّر أن يجعل سكنه في منصورية بحمدون، بلد زوجته، عاملاً بالمثل الذي يقول (بلد مراتي بلدي)، وصرت في البيت مقيماً مع أمّي وأختي ممّا أشعرني بمسؤولية أكبر، فابتدأت في السعي إلى مدّ الجسور القديمة، ووصل ما انقطع.

*

في زيارة إلى بيت بطرس أبو خليل، حيث أخذت الدكّان أول مرة، وجدت الأشياء قد تغيّرت كليّاً، فبدلاً من البيت القديم، كان هناك بناء شامخ فوق ثلاثة محلاّت واسعة، مفتوحة على الشارع العام، وبيت السكن متعدّد الغرف والصالونات. وكان يلزمه أيضاً أشغال نجارة عديدة، وفي الزيارة الأولى تمّ الاتّفاق معهم على البدء بالأشغال، وكان عدد أفراد العائلة قد أصبح أقلّ من قبل، واقتصر على الأمّ، وثلاث بنات فاتهم قطار الزواج، كانت "نسيبة" هي المولجة بالإدارة والإشراف، وقد رافقت البناية من الأساسات، وتعرف عن البيتين، القديم والجديد، كلّ كبيرة وصغيرة، أمّا إخوتها الشباب فكلّهم في إفريقيا، في السنغال، وهم يتولّون تمويل مشروع البناء.

ابتدأت في اليوم التالي بإعداد أحد المحلاّت، فكان جاهزاً خلال عشرة أو خمسة عشر يوماً، فقد أخذت خشباً من البيت العتيق، وصنعت (بنك الشغل) وهو أهمّ قطعة من العدّة، ثمّ جمعت ما عندي، واستلمت المفتاح وصار عندي (محلّ) بين ليلة وضحاها، وفي مكان الدكّان القديمة ذاته، لكنّه الآن صار (محلاّ) بكلّ معنى الكلمة،

باب واسع يطل على الشارع العامّ، وقريب من الوسط التجاري للبلدة.

اقتصر العمل في البداية على طلبات أصحاب الملك، وكنت استعين على الأشغال التي تحتاج إلى مكائن، بورشة مخايل غطّاس، أوّل من اشترى (فبركة) في مشغرة ودفع ثمنها من عرق جبينه، والوحيدة التي يمكن التعامل معها.

*

علاقتي مع مخايل غطّاس وثيقة جدّاً، وقد رافقت تعاملنا منذ أن دخلت في عداد النجّارين، وقبلها، إذ أنّ والدتي كانت تخبرني أنّ منجور بيتنا من شغل مخايل غطّاس، وبعض أشغال الخشبيات في البيت كالطاولة والخزانة والمرآة، من شغل سليم غطّاس، فصار عندي فكرة عن العلاقة بين النجارة عموماً وآل غطّاس، وكبرت ودخلت مجال العمل وظلّت هذه الفكرة ترافقني.

وكنت قد عرفت عن مخايل غطّاس من والدتي، أنّ أبي تعرّف إليه بحكم التعامل بين العمارة والنجارة، فقبل نهاية الحرب العالمية الأولى، وعودة المهاجرين بكثرة، كان أبي يلتزم بيوتاً ويسلّمها (على المفتاح)، وكان مخايل في مطلع شبابه ودخوله معترك العمل، فصار والدي يشجّعه ويعطيه أشغالاً كان ينجزها على أكمل وجه.

والآن قد تبادلنا المواقع هو وأنا، في أوّل لقاء عمليّ في (فبركته)، وردّ عطاء والدي لي. وقد كان العمل الذي قصدته فيه صعباً وغير اعتيادي، فكان عليّ أن أشرح له قصدي وكيفيّة أداء العمل، استمع إليّ من البداية إلى النهاية، دون أن يقاطعني بكلمة، ثم قال لي:

– (إذا كنت بتعرف هالقدّ، انت صرت من أحسن المعلّمين)، وكانت شهادة أعتزّ بها ولا زلت، وتوطّدت بيننا صداقة دون انفصام، وقد بقي طيلة حياته محبّاً للعمل، إذ قال لي مرّة:

– (وقت اللي بكون لابس تيابي، وبرّا الشغل، بحسّ بغربة).

وروى لي مرّة قصّة فكاهية مفادها أنّ رجلاً تزوّج، وحين حملت زوجته وصار بانتظار مولود، قصد صديقاً له يعمل نجّاراً، وطلب منه تصنيع سرير للمولود، ونقده (الرعبون)، ومرّت الأيّام، وتأخّر عمل النجّار، وصار يماطل ويعطي وعوداً وراء وعود، وجاء المولود، فاشترى أبوه سريراً جاهزاً من السوق، ونسي الأمر. وكبر المولود، وصار شابّاً، وتزوّج، وحين حملت زوجته، قال له أبوه:

- "اذهب إلى صديقنا النجّار (فلان)، أنا أعطيته منذ زمن (رعبون) سرير لك، فطالبه بإنجازه لابنك"، فذهب هذا وأوصل رسالة والده، فسمعها النجّار، وصمت برهة، ثمّ أخرج محفظته وتناول منها دراهماً، وقال:

- (شوف يا ابني، هيدا الرعبون، خدو لبيّك وقللو أنا ما بحبّش العَجَلة).

*

وحدث مرّة أن دعاني مخايل لمقابلته، وأخبرني أنّه مطلوب منه عمل لا يستطيع رفضه ولا يستطيع قبوله، لأنه متفرّغ لأعمال المدابغ الحديثة المتنامية وقتها في مشغرة. والعمل هو تصنيع (درابزين) درج في قصر سليمان طرابلسي، من خشب (الزان) وعلى سويّة تقنية عالية، ولا يمكنه تسليمه لأحد معلّمي فبركته، وليس لديه وقت هو ليشتغله، ولذلك يريدني أن أنفّذه. وكان وكيل أشغال وأملاك سليمان طرابلسي، هو نسيب طرابلسي ابن خالتي، فأزعجني ذلك، ولو كان الطلب من غير مخايل غطّاس، لرفضت فوراً.

وأثناء تواجدي للعمل في القصر لاحظت ارتباك ابن الخالة، فهو لا يستطيع أن يطلب منّي شيئاً وبشكل مباشر، باعتبار أنّ المسؤول شخص آخر، فسألته:

- "ألم يكن من الأسهل أن تكون العلاقة بيننا مباشرة"، فتنصّل من الإجابة، ثمّ احتج بـ "المعلّم الكبير"، فمشغرة لم تشذّ عن الاعتبارات المحلّية من مسايرة ومحسوبيات، وسياسة وانتخابات، أمّا أنا فكان لغيابي المتلاحق دوراً في بعدي عن فهم هذه الأوساط، حتّى وعن السوق والاجتماعيات المفروضة، كما وعن العمل

الحزبي، بسبب مسؤوليات العمل والمنافسة، إلى أن التحقت مجدّداً بوحدتي الحزبية، وكان الصديق شفيق ناصيف منفذاً عامّاً، والصديق إميل رفّول ناموس منفّذية.

28. وأبى النسر ألاّ يظلّ واقفاً

ويأتي صيف 1949 المشؤوم، ونحن في ذروة العمل في (مدبغة) شاكر ناصيف وأولاده، وكنّا في صدد تصنيع براميل كبيرة تدار بالآلة، بوسائلنا البدائية نوعاً ما، فيما عدا منشاراً و(رابوخ) من صنع دمشق، لكنّهما قديمان والعمل بهما صعب وخطر. وكنت أعود إلى البيت منهكاً كلّ ليلة، لأنام باكراً استعداداً لليوم التالي، وهكذا كان أيضاً في ليلة 6 – 7 تمّوز، لأستفيق في الصباح الباكر، وأنا غريب عمّا كان يجري في تلك الليلة، بسبب بعد بيتنا عن وسط البلد، وانهماكي بعمل ملحّ. وأخذت طريقي إلى العمل، والذي يحتّم عليّ المرور في وسط السوق، واستغربت وجود جنود على منعطفات الطرق، وحين اقتربت من مركز البلدة، شعرت بخطورة الموقف، الناس في حلقات صغيرة يتهامسون فيما بينهم، وما إن أقترب منهم أو أحيّيهم، حتّى ينظرون إليّ باستغراب وشرود وكأنّهم لا يعرفونني، أو يرونني لأول مرّة، ولا يلبث أن ينفرط عقدهم، وهالني غياب وجوه كلّ الرفقاء والأصدقاء، وبجهد جهيد تمكّنت من معرفة ما جرى في الليل، فقد فشلت الثورة التي كان قد أعلنها الزعيم أنطون سعاده على الحكومة اللبنانية في الرابع من تمّوز. وسقط عدد من الشهداء في المعارك التي وقعت بين الحزب وقوى الأمن.

عدت إلى البيت من طريق ثانية، كي لا أرى وجوه من مررت بهم، ومكثت في البيت تتتالى إليّ طوال اليوم أخبار، أقلّ منها سقوط الصواعق واجتياح الأعاصير، خصوصاً بعد ظهر ذلك اليوم. وفي صباح اليوم التالي، حملت إلينا الصحف نبأ الليلة السوداء، فقد تمّ "إعدام" الزعيم أنطون سعاده.

وفجأة وجدت نفسي في حبس الرمل، في زنزانته، أقف أمامه وجها لوجه، هامة

شامخة، وعينان أين منهما عينا النسر، واصطكت ركبتاي، إذ قفزت إلى خيالي، وعلى الفور، صورة علقت في ذهني منذ الطفولة. ذلك النسر الذي رأيته مرّة وأنا لا زلت حدثاً، ها هو، اليوم، أقف أمامه مجدّداً، آتٍ من الذاكرة، ليضعني أمام الموقف المهيب ذاته.

*

كنت يومها دون الثامنة، وسمعت أنّ حدّاداً يجوب القرى المحيطة في مشغرة، ومعه بندقية حربية ألمانية، وصادف أن لمح نسراً يحوم في الفضاء قرب قرية "لوسي"، فخطر له أن يمتحن بارودته ودقّته في التصويب، بأن يطلق النار عليه، فكان أن أُصيب النسر المنكود في جناحه الأيمن، وانكسر عظمه من الوسط، وهوى، لا يمكنه الطيران. هذا ما سمعته حين ركضنا إلى دار عمّنا بطرس، لمشاهدة النسر الذي يمسك به عدّة رجال، وتجمّع جمهور حول النسر والصياد، الذي كان يختال كالقائد الذي ربح معركة، أمّا النسر، فقد أبى ألاّ يظلّ واقفاً، رجلاه مقيّدتان، وعيناه يقدح منهما الشرر، ينظر حوله في هذه المخلوقات المتجمّعة، وكأنّي به يسأل: لماذا؟.. ودار لغط فيما نفعل به وأُبديت عدّة اقتراحات، والصيّاد، واسمه ابراهيم جروان، يدير الحوار، ثمّ قرّر أن يذبح النسر وينقله إلى خارج البلدة، واستلّ سكّينه ودار حول النسر ليمسك رقبته من الخلف، وكأنّ النسر ساعتئذ أحسّ بالخطر المحدق، فزعق وانتفض ضارباً بجناحه السليمة الصياد الذي يقف خلفه، فتفرّقنا من حوله وانبطح ابراهيم أرضاً، ثم نهض وطوى السكّين وأقلع عن الفكرة. لم يقترح أحد فكرة مداواة جرحه أوتجبير عظمه، لا، لم يقلها أحد، أمّا أنا فكانت ركبتاي تصطكّان خوفاً من أن يذبح ذاك العظيم أمامي، لم أستهول سقوطه برصاصة، ولكنّ الذبح كان فوق قدرة احتمالي. وكأنّهم أشفقوا عليّ، فأخذوا النسر وانصرفوا.

*

كان هذا في عام 1924 أو 1925 وكنت دون الثامنة، ونحن اليوم في صيف

1949. لا أدري لماذا حضر أمام ناظريّ مشهد النسر المقيّد، حينما رأيت صورة الزعيم أثناء المحاكمة، في قفص الاتّهام، ولم يفارقني طوال تلك الليلة، وعبثاً حاولت أن أنام، وطال السهر، فقمت أتمشّى، أيكون المصير واحداً لكلّ نسر تضعه الأقدار في مرمى النار، ويقع بين أيدي صيّادين جلاّدين لا يعرفون قدره. ألم يقل الزعيم:

– "الأمم الغبية تفعل برجالها، ما يفعله الأطفال بألعابهم، يحطّمونها ثم يبكون طالبين غيرها"، ألم يطلب هذا النسر، الزعيم، أيضاً أن يبقى واقفاً، ويرى الرصاص وهو يخترق صدره. وحين أجابه الجلاّد:

– "إنّه القانون"، أجاب:

– "أنا أحترم القانون". ألم يقل:

– "إنّ آلاماً عظيمة تنتظر كلّ ذي نفس كبيرة فينا". وها هي نفسه الكبيرة تحمّله أن يدافع عن أفكاره ومبادئه، وأن يموت في سبيلها. فبعد أن أجاب على السؤال الأوّل: "ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟"، إجابة علميّة، عمل جاهداً لدفع هذا الويل، إلى أن دفع دمه ثمناً لتجنيب أمّته، وأمماً كثيرة، هذا الويل.

ومرّت أيّام صعبة عشتها كمن يجتاز حقل ألغام وأسلاك شائكة، حتّى بثُّ أحسد الذين في السجون من رفقائي، وشعرت أنّي أجبه الحقد المتفجّر والكراهية، وحدي. وفي أيّام المحنة كانت والدتي تسهر الليالي، وتعطيني من قوّتها وشجاعتها ما يجعلني أستهين بكلّ الصعوبات، وأجد الحلول لكلّ المشاكل والعراقيل.

وعادت الحياة تدبّ من جديد، بصعوبة وبطء شديدين.

29. زيارة الصهر

في صيف 1952 فاجأنا صهري نجيب حبّوش، زوج شقيقتي نسيبة، بنيّته في القدوم إلى لبنان لتمضية الصيف، وكنت الوحيد الذي أشكّل صلة الوصل مع الأقارب في المهجر، وقد أرسل لي اسم الباخرة وموعد وصولها إلى ميناء بيروت. كان من

الواجب أن أبلغ أخي الأكبر، وديع، ليكون هو في مقدّمة المستقبلين، وكنت أبيت عنده في بعبدا كلّما دعتني الحاجة للنزول إلى بيروت.

وتجمّعنا يوم وصول الباخرة، على رصيف المرفأ، أخي وديع باللّباس العسكري، إذ كان قد دخل في سلك الدرك، وأنا معه، وأيضاً نصري حبّوش، ابن شقيق صهري، وبعض الأصدقاء والأقارب؛ وانتظرنا نزول الركّاب من الباخرة Xchorda الراسية في الميناء، وبعد نزولهم ووصول نجيب إلى حيث كنّا، كان علينا انتظار الأمتعة، حينها تقدّم أخي وديع وأسرّ في أذن موظّف الجمارك شيئاً، فتغيّرت سحنته، وعندما وصل صندوق نجيب أمر بفتحه واكتشف وجود مسدّس 5 MM عتيق وغير صالح، فصادره، وتمّ استجواب الصهر، وسطّر محضر بالأمر، ممّا أعاق العمل كلّه ما يقارب الساعة من الزمن، وسط تذمّر القادمين والمستقبلين.

يقوم البعض أحياناً بمبادرات بغية تسيير الأمور، فتأتي النتيجة على العكس تماماً.

انتقلنا جميعنا إلى حيث ينزل نصري ابن أخ صهرنا، في "أوتيل أستراليا"، وكان يملكه في ذلك الوقت، شفيق توما وزوجته، من عيتنيت، وبقينا معهم خلال السهرة، وكان هناك شخص من عيتنيت نسيت اسمه، أطال جلوسه، وكان نجيب منهكاً من التعب في ذلك اليوم، من جرّاء السفر الطويل، وقد لاحظت ذلك، فأشرت له أن يتحرّك للنوم، وأبدينا، نصري وأنا، رغبتنا في ذلك، لكن نجيباً أومأ بيده لنا فسكتنا وانتظرنا، والرجل قابع في مكانه لا يتحرّك، وهو لا يكفّ عن طرح الأسئلة عن أناس ربّما في أستراليا، أو البرازيل، وربّما هم هناك من قبل أن يولد نجيب حبّوش، ثمّ سأله عن واحد يعرفه:

– (دخلك، فلان شو صار عندو ولاد؟)، فأجابه نجيب:

– (بتعرف يا عم! أنا نسيت شو في عندي ولاد!)، فضحكنا، هنا ابتسم الرجل وانتبه للأمر، فقال:

- (نْعِسِتْ.. تِخْمِينْ)، وتحرّكنا أخيراً للانصراف تاركين الصهر ليرتاح.

في اليوم التالي ودّعت الصهر على أن يقضي ليلة في عيتتيت، وانصرفت إلى أشغالي في مشغرة، وعلّقت والدتي بعد أن أخبرتها بما حدث:

- (نجيب بعده متل ما كان قبل ما يروح على أميركا).

بعد يومين وصل صهرنا نجيب إلى مشغرة في الصباح، وأقام عندنا بشكل شبه دائم، وكنت رفيقه في معظم رحلاته، ولعلّ من أجمل الرّحلات التي قمنا بها، كانت مشوار بتدّين الطويل، إذ نزلنا إلى بيروت، وكانت البوسطات هي وسيلة التنقّل، ومنها إلى بيت الدين، حيث كان مركز أخي وديع في الدرك، واسترحنا، بعد السفر الطويل والمتعب بسبب البوسطات وأسلوبها في التوقّف مراراً على الطرقات لنقل الركّاب وإيصالهم إلى حيث يقصدون، وأنسانا استقبال زوجة أخي الحلو ما عانيناه من تعب، وكذلك مناخ الجبل المنعش، بعد حرّ بيروت، وبعد الأكل والشرب والاستراحة، ذهبنا إلى "قصر المير" وتجوّلنا حتّى حلول الظلام، وكانت فصيلة من الدرك تشغل القصر وإدارة السجن في ذلك الوقت، وأخي وديع كان أحد مأموري السجن. نهضنا باكراً في الصباح لنعود بالبوسطة إلى بيروت ومنها إلى مشغرة التي وصلناها في الرابعة بعد الظهر، ولاحظنا في السوق شبه وجوم، فسألت أحد الأصحاب عن الأمر، وعرفت السبب، فقد قتل رياض الصلح، وكان لابدّ من كأس، ثم نوم كما القتلى إلى الصباح.

كانت فترة شبه روتينية، لكنها جميلة، وساعات حلوة مع (عمّي) نجيب الذي يروي لنا حكايات طريفة عن أمريكا، وعن عائلته هناك، وعن شقيقتيّ، وديعة، ونسيبة زوجته، وتعاونهما في تربية الأولاد، الذين لا يفرّقون بين أمّهم وخالتهم، وكيف أنّ وديعة عندما اقترنت بـ داود الحدّاد، حنت على أولاده وأنستهم أمّهم المتوفّاة. لقد كان صهري نجيب طيّب السيرة والسريرة، وحلو المعشر بكل معنى الكلمة، لكنّه كان يحمّل نفسه فوق طاقتها، وكان يعاني من السعال والتحسّس من المناخات المختلفة، ومن التدخين والشرب، لكنّه لم يسكر أبداً. وكان رقيق العاطفة، لدرجة أنّه لا يستطيع ذكر

اسم ابنه كميل الذي توفّي منذ تسع سنوات.

*

كان كميل أوّل ولد لأختي نسيبة، وكانت أخباره تصلنا مفصّلة عبر الرسائل، وحين كبرنا وتولّيت أنا أمر المراسلة مع إخوتي، صرت أطالب بأن يكتب لي كميل مباشرة، إلى أن وصلتني يوماً رسالة موقّعة باسمه وباللغة الإنكليزية، ففرحت بها جدّاً واستمرّت المراسلات بيننا وتعمّقت العلاقة. وبعد مدّة وصلتنا في عام 1942 رسالة من أميركا في مغلّف إطاره أسود اللون، وإذا هي نعوة ابن أختي كميل حبّوش الذي استشهد في حملة الجنرال Mc Arther مع الجيش الأميركي في الفيليبين.

كان الخبر شديداً علينا، وبعد المراسم المألوفة، بقيت في حالة حزن، وشعور بأنّ هذا الشخص يخصّني وحدي من دون العائلة، ومنذ ذلك الوقت أخذت عهداً على نفسي أن أسمّي أحد أولادي "كميل" إن رزقني الله.

*

في ذاك الصيف الذي زارنا فيه صهري نجيب، ساءت صحّة ابن أخيه نصري حبّوش، وتوفّي خلال أسبوعين. ممّا أثّر عليه، واقتضى ذلك وقتاً ليستجمع نفسه. ثمّ كان علينا الذهاب إلى دمشق، لشراء الحاجيات التي سيأخذها معه عند عودته التي أصبحت وشيكة. وبعد الحجز في الباخرة Italia، وفي اليوم المحدّد، رافقناه، أختي أدال وأنا، ووقفنا على رصيف الميناء، نودّع أخاً وجدناه فجأة بيننا، وها هو الآن يرحل عنّا، كأنّ شيئاً لم يكن، سوى ذكريات جميلة.

30. قصّة المدرسة

ويأتي خريف 1952، فترة ركود وتحفّز في العمل الحزبي، ممّا انعكس سلباً على نفسيّتي وطموحاتي، فكانت المطالعة هي المتنفّس الوحيد الذي ألجأ إليه، وقد اتّخذت قراراً منذ العام 1948 أن تكون مطالعاتي باللغة الإنكليزية، ولأنّها كذلك، كان

هناك صعوبة وتحدٍ عليَّ تجاوزهما، رفيقي القاموس الذي أعطاني إيّاه الصديق الطيّب فؤاد سلمون. وفترة المطالعة كانت أشبه بمعركة أرتاح بعدها، وبدأت ألمس نتائجها الطيّبة، في أحاديث السهرات والمناقشات.

عند الغروب، في يوم من ذاك الخريف، وأنا على وشك إغلاق المحلّ، والذهاب إلى البيت، رأيت الرفيق حبيب شاهين مقبلاً إليّ، وبعد السلام والسؤال، أخرج من جيبه رسالة وأعطانيها، فلفت نظري اسمه وعنوانه على المظروف، فقلت:

- "هذه الرسالة موجّهة إليك"
- "أعرف، وأريدك أن تقرأها"، فقلت مستغرباً:
- "ولماذا؟"
- (المكتوب إلي بس لازم يكون إلك). جواب لم يخطر ببالي، وأنا أعرف حبيب جيّداً منذ طفولتنا، قرأت الرسالة بسرعة وناولتها لحبيب سائلاً:
- "ماذا تريد أن تفعل؟"
- "لا أعرف، ماذا تقول أنت؟"
- " إذا كنت تريد مساعدتي فأنا مستعد"
- "اكتب أنت الردّ وأنا أوافقك سلفاً". سألته عن علاقته بالمرسل رئيس كلّية الفنون الانجيلية في صيدا الأستاذ "مرقص"، فأخبرني أنّ إخوته وابن عمّه عنده في كلّية الفنون، وكنت أعرف هذا، وحدث أنّ الأستاذ مرقص ومعه اثنان من إدارته قاموا بزيارة تفقّدية طواعية، إلى مدرسة مشغرة الانجيلية أثناء الصيف، ويبدو أنّه التقاهم، أو قصدوه، تبعاً للعلاقة التي ذكرت، وتناولوا الطعام إلى مائدة أهل حبيب. وبعد عودتهم إلى صيدا، أرسلوا له هذه الرسالة – التقرير، التي تأخذ صفة رسمية، لأنها ممهورة بختم وإمضاء رئيس كلّية الفنون الإنجيلية في صيدا. وأخذت الرسالة معي لأقرأها مجدّداً بهدوء وإمعان.

لا أعرف تماماً الوقت الذي أصبحت فيه جميع ممتلكات الإرسالية الأمريكية من

كنائس ومدارس تابعة لـ "الكنيسة الإنجيلية الوطنية"، وكانت قبلاً "الكنيسة الانجيلية"، فقط، وأذكر وأشهد أن الكنيسة، ومن ضمنها المدرسة، في مشغرة، كانت قوية ونشطة ومنضبطة عندما كانت في عهدة الإرسالية، وحين أصبحت "وطنية" تراجعت بشكل ملحوظ ثم أغلقت المدرسة.

وقرأت الرسالة بإمعان، وأعجبني أسلوب كاتبها وسويّته العالية، وترتيب الأفكار فيها، لكنّ الذي لم أفهمه هو علاقة الأمر بالمرسل إليه، ولماذا هو؟. فالرسالة عبارة عن تقرير عن حالة المدرسة، من الخارج والداخل، من جهة المبنى والتجهيزات والصيانة، إلى أن ينتهي بسويّة التعليم ومستوى الأساتذة والتلاميذ والمناهج، كما تتضمّن بعض الاقتراحات التي لا تخصّ حبيباً لا من قريب ولا من بعيد.

وبذلت جهدي ليكون الردّ على السويّة نفسها، وأجبت الأستاذ "مرقص" باقتراحات عملية مفيدة تقوم على أن تتبنّى مدرسة صيدا العالية وبإدارته، مدرسة مشغرة الابتدائية، ويجري إعداد التلاميذ من أبناء المنطقة ليكونوا فيما بعد طلاّباً في كلّية صيدا، وعلى أن تتعهّد مدرسته أعمال الصيانة، كما وتطوير المستوى التعليمي الذي تحدّث عنه، والإشراف عليه. ومن هذا المنطلق فإنّ في رسالتي شيء من التحدّي، إذ أضعه أمام مسؤوليته للمشاركة في تصويب ما رآه بحاجة لتصويب. وقرأ حبيب الرسالة الجواب، وفتح فمه ليقول شيئاً ولكنه لم يقل.

وأخذ إخوة حبيب الرسالة معهم في عودتهم إلى صيدا، وتركوها في مكتب الرئيس لأنّه لم يكن موجوداً وقتها، وبعد فترة استدعاهم وسألهم:

- "من هو رشيد بركة؟"
- "صديق وجار"
- "أقصد ما مركزه الاجتماعي أو العلمي؟"
- "صاحب محل نجارة"، وحك رأسه بيده، وبعد تفكير قليل سأل:
- "أهو من الحزب السوري القومي الاجتماعي؟"

- "نعم". شكرهم وصرفهم. فقد حلّ الأحجية، لكنّه لم يجب على الرسالة.

بالنسبة لي كانت تلك الرسالة حافزاً لإيصال صوتنا ونشر فكرنا، ورغم أنّ الإمكانات غير متوفّرة، فإن الجذوة المشتعلة في داخلي، والتي بدونها أعتبر نفسي ميتاً، كانت تنير أمامي السبيل للعمل، لإيصال الأمانة وعن طريقٍ يبعد كل البعد عن الطرق التي كانت معروفة ومألوفة وآنيّة، عن طريق المدرسة التي أوصلتني ورفقائي إلى حيث نحن، لكي نرشد ونؤهّل ذلك الطفل الذي يتكوّن في رحم المجهول، حتّى يكون من القلّة التي تحدّث عنها سعاده "تقيم الحق وتزهق الباطل".

31. البحث عن أستاذ

بدأت التحرّك بالاتّصال مع بعض الأصدقاء والمهتمّين في أمور المدرسة، وبدأت بزيارة الدكتور وديع رفّول، العائد حديثاً من سويسرا، بعد نيله الدكتوراه في الطب. والدكتور وديع صديق لي، وزميل في الصفوف التي بعدي، ثم انتقل إلى الجامعة الوطنية في عاليه، عند مارون عبّود والياس شبل، ودخل بعدها كليّة الطب الفرنسية في بيروت لسنة واحدة، ثم سافر إلى سويسرا، وبقيت صداقتنا مستمرّة رغم ذلك التباعد الطويل الأمد. تفهّم د. وديع الأمر ووعد بكلّ مساعدة مع أنّه عضو في لجنة مدرسة الكاثوليك. وأيضاً كنت على صداقة ووفاق وقربى مع مخايل الحموي، وحبيب شاهين، الرفيق والجار. وكنت أطلع السيد شفيق ناصيف، وكان منفّذاً عامّاً للحزب آنذاك، تباعاً، على الإنجازات التي تنتمّ من أجل تشكيل لجنة للمدرسة، خارج المفهوم القانوني للّجنة. حيث أنّ المدرسة الإنجيلية في مشغرة، كانت في ذلك الوقت بعهدة الأستاذ رزق الله حلبي، رئيس المدرسة الإنجيلية في قب الياس، وصهر القسيس موسى القرداحي.

وكان (شيخ الطايفة) الإنجيلية، والكنيسة، في مشغرة هو نعمة عبّود، والده يوسف عبّود من مؤسّسيّ الكنيسة. وفي الواقع أنّني تجاوزت الرجل، ولم أستشيره أو

أتكلّم معه في الموضوع، لمعرفتي الأكيدة أن ليس له "لا في العير ولا في النفير"، بل يضع العصيّ في الدواليب لإثبات وجوده فقط، وتمّ تأليف اللجنة، وكان بيني وبين كلٍّ منهم تفاهم، فكنت أطلعهم على كلّ ما أقوم، أو أكون مزمعاً على القيام به، وتكون الموافقة فورية وتلقائية، إذ ليس في ذهن أحد منهم أيّ تصوّر عمّا يجب فعله، بدليل أنّ أحداً لم يسألني عن تكلفة ما أقوم به، بل:

– (عمول متل ما بتلاقيه موافق).

قمت أوّلاً بزيارة للمسؤول عن المدرسة، السيد رزق الله حلبي، رئيس مدرسة قب الياس، في بيته هناك، وبعد قليل انضمّ إلينا شخص عرّفني إليه، وعرّفه إليّ بقوله:

– "شفيق مغبغب، ابن أخت زوجتي، وأستاذ عندنا في مدرسة قب الياس"، وتابعت طرح وجهة نظري بخصوص مدرسة مشغرة وكيفية إعادة فتحها، ويبدو أنّ السيّد مغبغب اهتمّ بالموضوع، دون أن يشارك في الحوار، بل بقي مستمعاً ومتابعاً إلى النهاية. ثم دعاني لمرافقته إلى بيته القريب، وأصرّ على ذلك. في بيت الأستاذ مغبغب البسيط الأثاث، حيث يقيم مع زوجته وطفله، أطلعني على وجهة نظره في حديثنا ومناقشتنا، أنا والأستاذ رزق الله، نسيبه، وعرفت، دون أن يخبرني، أنّه رفيق لنا في الحزب، وأخبرته بواقع الحال في مدرسة مشغرة بكلّ صدق، فأبدى رغبته في تسلّم المهمّة والتعاون معي إلى أقصى الحدود، فقلت:

– "كيف؟ وأنت عند صهرك ونسيبك"، فقال:

– (ولا يهمّك.. ما في شي غلط، وكلّ واحد بيطلّع على رزقتو)، واتّفقنا مبدئياً، على أن نعود إلى الموضوع فيما بعد.

*

كان (الدقّ محاشر)، فنحن في النصف الثاني من أيلول، والمدارس في أوّل تشرين، ولم يبق لدينا متّسع من الوقت لتأمين المعلّمين، وكان عليّ في اليوم التالي أن أقصد صيدا والشويفات، بناءً على توجيهات الأستاذ رزق الله حلبي، كما في أغلب

الأحيان. وانطلقت في الصباح الباكر بالبوسطة، كالعادة، وابتدأت بزيارة في الميّة وميّة، للأستاذ مجيد نجم، مدرّس اللغة العربية في كلّية صيدا ومدرسة البنات التي تعلّمت فيها أختي أدال. قابلته، وعرضت عليه مهمّتي، وكان متفهّماً وأجاب:

- "لا أعرف الآن أستاذا مستعدّاً للعمل حالياً، لكنّ واحداً من تلاميذي سألني مرّة عن عمل، ولا أعرف إن كان قد التزم بشيء، اسمه فلان وهو من البربارة على طريق طرابلس"، انتهت الزيارة وعدت على الفور إلى صيدا، ومنها إلى الشويفات، حيث توجّهت إلى الكليّة وسألت عن المدير، وكان الكلّ منهمكاً في التحضير قبيل افتتاح المدارس، وأفهمته غرضي بسرعة، فقادني من الغرفة إلى البهو، ودلّني على بيت يبعد خطوات، وقال:

- "هذا بيت الخوري، وأبونا موجود، وابنته تخرّجت في السنة الماضية وتطلب عملاً، فاسألها"، شكرته وقصدت بيت الخوري، وذكرت له أنّ مدير الكلّية أرسلني لأسأل كريمته إن كانت تريد أن تعلّم في مشغرة، وسألني أبونا عن المدرسة فشرحت له الواقع، وسأل عن السكن، فقلت:

- "في بيت أحدٍ من أعضاء اللجنة" شارحاً الوضع العائلي المريح ومعطياً صورة جيّدة، وحين انضمّت ابنته إلينا، وفهمت الأمر، قالت:

- "ما تقوله عن المدرسة جيّد إجمالاً، إنّما السكن مع عائلة فلا أرغبه، وأفضّل لو كان في المدرسة إدارة ومساكن تابعة لها"، اعتذرت وشكرتهم، وتوجّهت إلى الطريق العام لآخذ طريقي إلى بيروت، وقد قرّرت أن أحاول غداً مع الشخص الذي سمّاه لي الأستاذ مجيد، في البربارة.

في بيروت كان لي شبه غرفة دائمة في بيت أختي أديبة، الذي يقع في رأس بيروت، وفي شارع عرداتي الذي يقود من شارع بلس إلى البحر، ويسمّونه نزلة البحر. وخطر في بالي وأنا في السيّارة في طريقي من الشويفات إلى بيروت، أستاذي نقولا حوراني، فهو يعرف الكثير من أسماء التلاميذ المتخرّجين والراغبين في العمل في

مجال التعليم، ويعرف أيضاً إمكاناتهم ومقدرتهم، وكانت أختي أديبة قد أخبرتني أنّ بيت المعلّم نقولا قريب من بيتها، وأنّها تزورهم من حين إلى آخر. وما إن وصلت إلى بيتها، وبعد أن غسلت وجهي واسترحت قليلاً، ورغم التعب الذي نالني في ذلك النهار الطويل، طلبت إلى أختي أن ترشدني إلى بيت الأستاذ نقولا، فأبدت استعدادها للذهاب معي نظراً لقرب المكان، ولرغبتها في رؤيتهم.

*

ووصلنا قرب مدخل بيتهم، وإذا بصبيّة تغادر المكان، ترتدي فستاناً أخضر غامقاً ويزين جيدها عقد من لونه، ممّا أبرز لون شعرها الأشقر المشوب بالحمرة وبياض بشرتها، واقتربت منّا فبادرتها أختي بالتحيّة وسألتها:

- "هل والدك موجود في البيت؟"،
- "نعم إنّه في الداخل"، وتابعت طريقها، وقالت أختي:
- "إنّها [برت] ابنة المعلّم نقولا"، وكنت لم أرها منذ كانت طفلة في مشغرة، وقد مرّ أكثر من عشرين عاماً.

دخلنا، شقيقتي وأنا، ولم يكن غريباً استقبال المعلّم نقولا الحارّ، وكذلك زوجته، الصيداوية، هيلانة الغفري، فنحن (من أهل البيت)، وكنت قد التقيته آخر مرّة عام 1937، مصادفة في قطار من المديرج إلى بعلبك، وبرفقته ابنته كليمانص، وكان قد مضى، يومها، سبع سنوات على آخر لقاء يوم غادروا مشغرة، والآن نحن في العام 1953، وقد مرّت ستة عشرة سنة على لقائنا في ذاك القطار. وامتدّت زيارتنا ساعات، استأذنت أختي، خلالها، لتعود إلى بيتها القريب، وتركتنا في الحديث المتواصل عن أيام مشغرة. وكثرت أسئلة الأستاذ حوراني عن الماضي الموصول بالحاضر، وسأل عن نعمة عبّود، وبيت حبّوش، ولماذا أنا بالذات محور الحركة في موضوع المدرسة، ولم يخف إعجابه وافتخاره بأن يكون أحد تلاميذه، هو من يهتمّ بالمدرسة ويسعى لإنجاحها. وكنت أعرفه ومن أيّام المدرسة، أنّه لا يحب الأجوبة

المبهمة المقتضبة التي لا تعني شيئاً، فحرصت أن تكون إجاباتي كاملة المبنى والمعنى، واشترك ابنه رئيف في بعض الحديث، فأوكل إليه والده مهمّة مراجعة بعض أسماء طلاّبه ممّن قد يناسبهم العمل كمدرّسين في مشغرة، وحسب المعطيات التي سمعها منّي، على أن أعود في اليوم التالي لمعرفة النتيجة.

عادت برت من زيارتها، واستغربت أنّي ما زلت عندهم، ولكن دون تعليق طبعاً، واستأذنت ورجعت إلى بيت أختي، وأنا أحسب لمشوار البربارة من أجل لقاء معلّم دون اتّصال مسبق، وبمجرّد اسم وتوصية من الأستاذ مجيد، لكن لم يكن أمامي سوى الذهاب والمحاولة غداً الجمعة ومن ثمّ العودة إلى مشغرة يوم السبت، وخفت أن أعود حتّى بدون وعد من معلّم.

*

زيارة البربارة كانت صعبة، فهي تقع في منتصف الطريق إلى طرابلس، وتبعد عن الطريق العام مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام في الجبل، وكم كانت خيبتي أنّي لم أجد المعلّم المطلوب في بيته، وتمشّيت قليلاً في بستان البيت، ثم عدت إلى الداخل وطلبت من والدته ورقة، وكتبت له قصدي ومن أرسلني، وعدت من حيث أتيت، منحدراً نحو الطريق الرئيسية، ثم إلى بيروت، وقد استغرق المشوار، ذهاباً وإياباً، معظم النهار. عدت بعدها من فوري إلى رأس بيروت، إلى بيت أختي، ثم إلى بيت الأستاذ حوراني، على أمل أن تكون قد ظهرت لديه نتائج إيجابية. ذهبت بعد العشاء، وكانت سهرة طويلة طويلة. إذ كنت أحسّ أنّي معتقل ولا أستطيع الإفلات من أسئلة الأستاذ المتلاحقة، وبعض الإجابات عليها تحتاج شروحاً وعودة إلى الماضي وتداخلاته. وقد لاحظت أنّ المكان الذي نجلس فيه، هو أيضاً للمنامة، ونحن نرغم أفراد الأسرة على السهر، فتحيّنت فرصة استأذنت فيها بالانصراف، وأصرّ الأستاذ أن أعود إليه في زيارتي التالية إلى بيروت، لإطلاعه على المستجدّات.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، وكان يوم سبت، كان عليّ الحجز في

البوسطة، فكلّ أهالي مشغرة المتواجدين في بيروت، يعودون لقضاء عطلة الأسبوع مع عيالهم، وتكون فرصة لقاء لمعظمهم، وفي الطريق تحدّثت لكثيرين منهم عن المدرسة، وعن مسعانا لتأمين معلّمين أكفّاء، وخصوصاً للغة الإنكليزية. وحين وصلنا مشغرة، وفي طريقي إلى البيت، التقيت بعضاً من رفاقي ومعهم شاب لا أعرفه، وتم التعارف:

– "خليل زخريا من كفرحزير، من قبل رزق الله حلبي"، وتنفّست الصعداء قائلاً:

– "تشرفنا"، واتّفقنا أن نقوم بجولة على أهالي التلاميذ في اليوم التالي وهو يوم أحد، وفي الحقيقة كانت الجولة لاختبار المعلّم أكثر منها للتعرّف على الأهالي، وللحال تبيّن لي أنّ الأستاذ لم يزل تلميذاً، وبكلّ معنى الكلمة، فالخبرة أهمّ من الدراسة، وسكتّ على مضض، فالمهمّ أنّ الأهالي يعاملونه كأستاذ رغماً عنه، وكنت الوحيد الذي رافقه في ذلك اليوم، وحفظت كلّ ذلك في ذهني إلى ما سيأتي، وبقي الأمل الوحيد معلّقاً على شفيق مغبغب.

32. وجدت الشريكة

كان عليّ أن أذهب إلى بيروت في أواسط الأسبوع، لأشغال نجارة قد تستغرق بضعة أيام، وكنت في خلال الزيارتين للأستاذ حوراني، قد استعدت الماضي كلّه ووجدته فاعلاً في الحاضر. ولما كنت قد وعدت بزيارته، فقد أحضرت معي بعض الخبز المرقوق، أوصلته إلى بيت الأستاذ في طريقي إلى بيت أختي، وكان هو ما زال في البيت، وعرف منّي أنّي سأبقى في بيروت لبضعة أيّام، فقال:

– "إذاً يوم الأحد يكون الغداء عندنا، وتكون الفرصة أوسع للقاء"، فأحببت أن أعتذر بحجّة أنّ زوجته تشكو من ألم في ظهرها، فقال:

– (ولا يهمّك، في كتير ناس تشتغل).

يوم الأحد توجّهت وحدي إلى بيت المعلّم نقولا، واجتمع شمل العائلة حول المائدة، الأب والأمّ، والأبناء: الكبرى، كليمانص، راهبة وصار اسمها "الأخت ماري

دو لاكروا". الثانية، برت. الثالث، الياس. الرابعة، لور، متزوّجة من نسيب ديب. الخامسة، نازك. السادس، رئيف. كنت الوحيد من خارج العائلة، ممّا أشعرني بالحرج نوعاً ما، ولكنّ معرفتي السابقة بهم يوم كنت طفلاً وكان المعلّم نقولا أستاذي ولمدّة أربع سنوات، وكانوا يسكنون في بيت جدّي؛ والاستقبال الحميم والروح الحلوة التي سادت اللقاء، كلّ هذا أزال الحرج من نفسي وأحلّ مكانه شعور الابن العائد من سفر طويل، وساد جوٌ من المرح أسهمت فيه، ولاحظت أنّ مجمل المأكولات التي قدّمت، هي من صنع الأخت الراهبة، وكانت تريدني أن أتذوّق كلّ الأصناف، وساد الحديث عن الخبز المرقوق وأيام مشغرة، وتلا علينا الأستاذ نكاته التي يذكرها من تلك الفترة. كما كان صهرهم نسيب ديب، زوج لور، موجوداً، وهو من بلدة الكفير، في الأصل، استوطن أهله الرامة في فلسطين لمدّة طويلة، وولد كلّ أفراد العائلة هناك، ثم عادوا مع الذين نزحوا عام 1948، وتعرّف إلى لور في شركة طيران الشرق الأوسط M.E.A.، وكان قد مضى على زواجهما فترة قصيرة. أعجبتني فيه خفّة روحه، وحماسه في الكلام، ويبدو أنّ الإعجاب كان متبادلاً، من البداية وصرنا صديقين بسرعة.

رجعت إلى بيت أختي بعد أربع ساعات، وفي الحديث عن بيت الأستاذ قلت لها بطريقة عابرة:

- (يظهر إنّو برت مليحة)، فابتسمت ولم تجب.

في الأيام التي تلت، أنجزت عملي في بيروت وعدت إلى مشغرة، وقد ساعدت المعلّم شفيق مغبغب في إيجاد بيت، وكان المعلّم خليل زخريا قد أمّن لنفسه سكناً فهو عازب. وفتحت المدرسة أبوابها بمن حضر، لكنّها نجحت في تلك السنة نجاحاً عزّ نظيره، ولأوّل مرّة يتخرّج منها في صفّ الشهادة المتوسّطة، (البريفيه) نسبة عالية جدّاً ممّا أعطاها زخماً قوياً ولعدّة سنوات فيما بعد.

33. العـرس

كان عملي في تلك الفترة في مجال صناعة المفروشات، بالإضافة إلى الأشغال العادية في النجارة، وأصبح العمل يستوجب النزول، أكثر من الماضي، إلى بيروت، لعدم توفّر المعدّات اللازمة والبضاعة في مشغرة. وفي ذلك الوقت كانت أختي أدال قد شغلت وظيفة في مستشفى الجامعة الأمريكية، وسكنت في غرفة مع أختي أديبة. وكانت زياراتي إلى بيت المعلّم نقولا، والمتعلّقة بالمدرسة وسير الدراسة، قد تكرّرت، ومع اقتراب عيديّ الميلاد ورأس السنة، كانت أمّي وأخواتي في بيروت، وكنت طبعاً معهم، وكنَّ يجتمعن كلّ ليلة يتحدّثن في أمور العائلة، وقد زرن بيت المعلّم نقولا، وحازت برت على إعجاب أمّي وأختي أدال، بالإضافة إلى أختي أديبة، همزة الوصل، وفي أمسية الميلاد سألنني إذا كنت موافقاً على أن تقوم والدتي بـ "طلب يد" برت، لي. وطبعاً كان ردّي بالإيجاب، وحدّد اليوم الثاني من كانون الثاني موعداً للزيارة.

أصبحنا في عام 1954، وقد بلغت السابعة والثلاثين من العمر، وكنت قد اختبرت القبول والفشل في حالات مماثلة، فيما مضى، إنّما شعرت في هذه المرّة، أنّ الأمر في غاية الجدّية، أو أنّه قد تمّ فعلاً. وصار لزاماً عليَّ تغيير المسرى كما يقتضي الحال، والبيت بحاجة لعدّة إصلاحات ضروريّة كي يتناسب على الأقلّ مع بيت العروس. وكانت شقيقتي نسيبة قد أبلغتنا أنها ستحضر في أوّل حزيران، من صيف هذا العام، وبعد غياب دام 34 عاماً، فكانت تلك فرحة، مثل فرحة العرس، وحدّدنا موعد الإكليل في الخامس من حزيران، في بيت أختي أديبة، في بيروت، وانهمكنا في ورشة إصلاح البيت وخصوصاً المطبخ والحمّام، فأخذت أختي أدال فرصتها السنوية وساعدتني مساعدة فعّالة في تحضير كلِّ ما يلزم من خياطة وترتيب كان سيأخذ كل وقتي. وكنّا نسهر حتى نسابق الوقت، من أجل إنهاء كلّ ما يجب عمله قبل الموعد المحدّد.

ووصلت أختي نسيبة من سفرها، فبقيت في بيت أخي وديع خمسة أيام، حتى

موعد الإكليل مساء السبت. وكان المعلّم نقولا قد وزّع بطاقات الدعوة، ودعوت أنا من أرغب في مشغرة، شفوياً لضيق الوقت.

*

وصلنا بيت أختي أديبة في العاشرة صباحاً، وكان عليّ إنجاز معاملات الزواج، وقصدت كنيسة مار الياس، حيث كان الكاهن بانتظاري، فقدّمت له أوراقي التي أحضرتها من كاهن مشغرة، وأوراق برت التي أحضرتها من قسيس بيروت، وأخبرته عن مكان الإكليل، فتفحّص الأوراق، وطلب منّي إحضار ورقة "إعفاء من المناداة" لبرت لأنّها معمّدة عند الموارنة، ودلّني إلى المكان في الأشرفية، فذهبت، وهناك قال الكهنة إنّهم اتّفقوا مع راعي كنيسة مار الياس، ولا داعي للورقة، فعدت وأخبرت الكاهن المولج بموضوع الإكليل بما حدث، فعاد وتفحّص الأوراق مجدّداً، واعتذر، وطلب هذه المرّة إذناً من مطران الكاثوليك. هنا شعرت أنّ الأمر استفحل، وصار الوقت بعد الظهر، واقترب الموعد، وما زال لديّ الكثير من الأعمال، فسألته:

- (أبونا انت بتقبل تكلّلني هيك؟) وأشرت إلى ثيابي ووجهي، فقال:
- (ماذا تقصد؟)
- "الموعد اقترب، وأنا كما ترى بحاجة لأن ألبس وأرتّب نفسي، وليس لديّ وقت للذهاب إلى المطرانية، (دبّرها بالتليفون) ودعني أذهب لمتابعة ما عليّ"، وخطر ببالي دعوة القسيس، ويستغرق هذا منّي خمس دقائق فقط، وكأنّه قرأ أفكاري ولمس جدّية الموضوع، فأطلقني بقوله:
- (معك حقّ، روح دبّر حالك).

كان الإكليل في بيت أختي موفّقاً للغاية، فالمكان واسع والحضور عائلي، وقد خدم أخي وديع الخدمة الطقسية على أصولها، واشترك الجميع بالترنيم وكأنّه احتفال شعبي عائلي، حتى الكاهن كان مسروراً للغاية، من تلك الظاهرة الحلوة. وخطر ببالي مبدؤنا الإصلاحي الأوّل الذي يقول بوجوب فصل الدين عن الدولة، وكيف أنّ الناس

يصرّون على وحدتهم من جهة، ومن جهة أخرى يصرّ رؤساء الطوائف على التفريق والتمييز، وسألت نفسي يومها لماذا لم أهتمّ لمثل هذه الأمور، وكنت أعرف الجواب، فلأنّي قومي اجتماعي، سقطت أمامي تلقائياً كلّ تلك الحواجز الوهمية، ولم يخطر ببالي ولو للحظة عابرة، أن يكون هناك مشكلة، في كون خطيبتي مولودة من أب بروتستانتي وأمّ كاثوليكية، ومعمّدة مارونياً، وأنا مولود من أب كاثوليكي وأمّ إنجيلية!! كلّ هذا، يعطيني البرهان على ضرورة إلغاء تلك الحواجز المصطنعة، والتي يحاول الجهل التمسّك فيها تمسّكه بوجوده.

34. في معبد الطبيعة

غادر الأهل والمدعوون بعد الإكليل إلى مشغرة، وأمضينا ليلتنا، أنا والعروس، في فندق طانيوس في عاليه، وعدنا في الصباح إلى بيروت إلى بيت العمّ، حيث تناولنا الفطور، واستعدّينا للذهاب إلى مشغرة، وانطلقنا، برت وشقيقتها نازك، الإشبينة، وأنا، وكانت برت تعرف بيتنا هناك من الوصف الدقيق الذي قدّمته لها أثناء فترة الخطوبة، وتراه الآن لأول مرّة، بيت جبلي واسع وعالٍ ينفتح النظر منه على نصف لبنان. وما لبث أن أُعدّ طعام العشاء، فأكلنا ونمنا باكراً منهكين من التعب وقلّة النوم. وعند شروق الشمس في اليوم التالي، دبّت الحركة في البيت لتناول القهوة وإعداد الطعام، وتركنا أسرّتنا لنشارك الجميع في أجمل صبحية في ذلك البيت، فالجهة الشرقية للشمس، والغربية تطل على أرض واسعة فيها غراس العنب والتين، والعديد من الأشجار البعلية المثمرة، وأخذنا نتجول في تلك الجنّة، كأنّنا في (زياح) معبد الطبيعة، أختي نسيبة التي تعيش في أمريكا، وبرت ونازك اللتان تعيشان في بيروت، كلهنّ بعيدات عن الطبيعة وحياة الريف، وينقصهنّ هذا الامتزاج الحي مع جمال الأرض والأشجار وكلّ ما حولهنّ، وكأنّما استبد الشوق بأختي، إلى رونق أوراق الأشجار وصفائها وكلّ ما تحمل من معانٍ للارتباط بالجذور، فأخذت تلثمها وتعانقها،

ومثلها تفعل برت ونازك، فهما أيضاً بشوق إلى هذا الشعور، وأحسست معنى الجمال الحقيقي لما يحيط بنا، وتفاعله في نفوسنا، ولا أظنّ أنّ هناك أجمل أو أطيب من أن تقطف الثمرة الناضجة من (أمّها) إلى فمك، وكانت (كبوش التوت) في موسمها، تدعوك إلى تذوق حلاوتها المشبعة بغنى تلك الأرض وجودتها، والتي وحدها كافية لتعطيك الدليل الساطع على زيف المدنية التي نعيشها اليوم، والتي تفرض عليك أن تغسل (كبوش التوت)، كي لا يقتلنا التلوّث الذي تمطره سماء الذين يدّعون الحضارة والتطوّر.

بيتنا وبيت عمّي الملاصق لنا، يعتبران بيتاً واحداً، من حيث الألفة والتعامل اليومي، وكان عندهم وقتها، نايفة، ابنة عمّ أبي وابنة عمّهم، وهي صديقة أختي نسيبة، وكانت آتية في زيارة من أمريكا، فقد هاجروا قبل الحرب العالمية الأولى. وكان مهرجان ثانٍ بحضور أفراد العائلتين حول (المناقيش) بالزعتر من (شغل البيت)، وأكواز (عرانيس) الذرة المشويّة، وصحون اللبنة والجبنة التي لا يزيد عمرها عن يوم واحد، وكان أكثر المتأثّرين، هما نسيبة أختي، ونايفة، ثم برت ونازك.

*

وانخطف الوقت، وكان علينا الاستعداد لاستقبال الأقرباء الذين فاتهم العرس، للتهنئة، وأيضاً للترحيب بالمغتربين، وبقي المهرجان مستمرّاً طيلة الأسبوع بلياليه، إلى يوم الأحد، حيث نذهب والعائلة كلّها إلى الكنيسة، لنتعرّض للامتحان العسير، فالعروس (غريبة)، وترافقنا مغتربتان، فتشرئب الأعناق لرؤية الموكب المتنوّع، وكنت أعرف جيّداً كلّ كلمة تقال، دون أن أسمعها، كما كنت متيقّناً من أنّ الحكم لصالحنا، لأنّ برت، وأختي نسيبة، ونايفة، على سوية جيّدة من الجمال الطبيعي، والذوق في الملابس وجودتها، وكان مهمّاً جدّاً أن يُعرف (قدّيش حطّو بالصينية)، وهذه أيضاً تجاوزناها بنجاح، وخضنا تلك التمثيلية حتّى الثمالة، بما فيها اللقاء في دار الكنيسة بعد القدّاس، والتهاني الجماعية من هنا وهناك، ثم تفرّق الناس، وعدنا إلى البيت لنلقي

عن أكتافنا ذلك العبء الثقيل.

تمتدّ (الواجبات) الاجتماعية في القرى شهوراً وربّما سنوات، ومنهم من يقوم بـ (واجبين) في زيارة واحدة، كالتهنئة بالعرس والمولود الجديد دفعة واحدة، أو التعزية بأكثر من شخص في البيت نفسه وفي أوقات متباعدة، وكنت أكره ذلك كلّه، لإحساسي بهشاشة تلك العلاقات التي تقوم على المجاملات الزائفة.

وبحكم تربيتي في البيت، والمدرسة، ثم "الحزب"، كنت أدرك مكامن الخطر الحقيقية في تلك التقاليد المتناقضة، والتي هي انعكاس للعقليّات المتنافرة، المتجذّرة في مجتمعنا، والتي سمّوها "تعدّدية" و(انبسَطوا). والتي كان "سعاده" يحذّر منها، ومن مخاطر تشتّت المجتمع بينها بشكل بعيد كلّ البعد عن غنى التعدّدية، ويدعو لعقلية أخلاقية اجتماعية جديدة، تصهر كلّ أبناء المجتمع الواحد تحت لواء الانتماء إلى الوطن.

II
(1979 - 1954)

1. (الغربة حوّل ركّب)

كانت بداية الحياة الزوجية، وعليّ الآن أن أهتمّ جدّياً في تحسين أوضاعي المادّية، وشغلني التفكير في العائلة المقبلة. بعد أقلّ من ثلاثة أسابيع اشتاقت برت لبيت أهلها، وافتقدت الأجواء التي اعتادتها، والتي تغيّرت كلّياً في بيتنا، فقد صارت هي ربّة البيت، واستكبرت المسؤولية، وكانت، كما أعتقد، بحاجة لتوجيهات والدتها تبعاً للمستجدّات التي واجهتها. فنزلنا إلى بيروت للزيارة، ما يسمّى (ردّة الإجر)، إلى بيت أهلها، وبيت عمّها رجا حوراني، وبيت شقيقتها لور. ثم عدت أنا إلى مشغرة، ولاحظت والدتي ارتباكي بعد يومين أو ثلاثة، فنبّهتني قائلة:

– (ليك يا رشيد، هيدي شغلة بدّك تتعوّد عليها، لأن بدها تتكرّر، ومتل ما بيقول المتل: الغربة حوّل ركّب، حتى تلاقوا حلّ أفضل)، وأخذت ما قالته أمّي بعين الاعتبار وابتدأت أفكّر في حلول، فبعد ثلاثة أشهر ونيّف يقبل الشتاء، وأعرف شتاء مشغرة وقسوته، ومعاناة المرأة منه في واجباتها الكثيرة، وعدم توفّر وسائل التدفئة الحديثة، وغيرها وغيرها، كلّ هذه الأمور أفكّر فيها مع المقارنة بين برت ووالدتي وأخواتي. ممّا دعاني إلى التفكير في نقل محلّ النجارة إلى بيروت.

استهواني الأمر، فهو جميل كفكرة، ولكنّ هذه الخطوة تحطّمت على أرض الواقع، فهي لم تستند إلى مقوّمات ثابتة، إضافة إلى ضغوط خارجية، أسهمت في تسريع التنفيذ، دون الالتفات إلى عوامل أخرى. في البداية أنهكني إيجاد محلّ بسعر مناسب، وبشكل مؤقّت، على أن أنتقل إلى غيره في فرصة مناسبة، وكنت قد أوقفت العمل، تقريباً، في مشغرة بسبب التحضير للانتقال، ونقلت (البنك) والعدّة، وأصبح المحلّ جاهزاً للعمل، ولم يكن غريباً أو صعباً عليّ شراء الخشب وتصنيعه في المحل.

لكنّ الذي استغربته أنّ كلفة العمل وإيصاله إلى المحلّ الجديد في بيروت، فاقت كلفته وكلفة إيصاله إلى مشغرة، مضافاً إليها كلفة تنقّلاتي، نظراً لبعد المسافات في المدن. وكيفما تيسّر، أنهيت الأشغال المطلوبة إلى مشغرة خلال خمسة أسابيع، وعدت إليها لنتساعد، برت وأنا، في توضيب الأغراض التي سنأخذها إلى بيروت، حيث سنقيم مؤقّتاً في بيت عمّي، ريثما نجد بيتاً مناسباً.

2. البدايات في بيروت

وانقضى الصيف، والصيف الثاني، الذي بين تشرين وتشرين، وعادت أختي نسيبة إلى بيتها وعائلتها في أمريكا، ومع بداية الشتاء انتقلنا إلى بيروت. وكانت أختي أدال لم تزل في وظيفتها في الجامعة الأمريكية، فصعب على والدتي بُعدها عنّا، رغم أنّ أخي وديع وعائلته الصغيرة قد أخذوا مكاني في البيت، فتبعتنا إلى بيروت، وأقامت مع أختيَّ أديبة وأدال. وكان قربهنّ من بيت عمّي يساعد على الاتّصال الدائم.

بعد أسبوعين من انتقالنا إلى بيروت، وكنت أنا في مشغرة لعمل لي، شعرت برت بألم شديد استدعى نقلها إلى مستشفى الجامعة الأمريكية القريب من بيت أهلها، وتولّى عمّي تدبير الأمور، وحينما عدت في اليوم التالي وجدت برت في غاية الحزن والغضب، إذ فقدت حملها الأوّل، وكان من أسباب ذلك، العمل الشاق في الاستعداد للانتقال من مشغرة إلى بيروت، ولم نكن، هي وأنا، على دراية بمثل تلك الحالات.

سارت الأمور روتينية لبعض الوقت، ولجهلي بتقلّبات المناخ في بيروت في بداية المواسم، أصبت بزكام رافقته حمّى مرتفعة، وألم شديد في الرأس، لم تنفع معه الوسائل العادية والمسكّنات، ونتج عنه تعطيل السمع في الأذن اليمنى جزئياً. فذهبت إلى عيادة الدكتور قيصر أبو جودة، المختصّ في هذا المجال، وأثناء معالجتي تعرّف عليّ، من أين، وماذا أعمل، وحين سألته عن أتعاب المعاينة، أجاب:

- "أنا من سيدفع لك الأتعاب، تعال إليّ غداً، وأحضر معك متر القياس، لأخذ

القياسات". وأتيت في الموعد المحدّد، ورافقته في سيارته الشيفروليه الحديثة إلى بيته في ضواحي بيروت التي كنت حديث العهد بها، وأخبرني أنّ إسم المنطقة "السبتية"، نسبة لوجود كنيسة ومدرسة ثانوية لطائفة السبتيين هناك، وكنت عرفت الإسم والطائفة لأوّل مرّة في عمّان. كان البيت على رأس تلّ، يشرف على مناظر جميلة من كلّ جهاته، وزوجة الدكتور إنكليزية، قليلة الكلام، ولكن بما يكفي لأعرف ما العمل المطلوب منّي. أخذت القياسات، ثمّ فصّلت الأعمال في المحلّ قطعاً صغيرة ليسهل نقلها بالسيارة، وركّبتها في عدّة زيارات.

وكرّت السبحة، وتتالت الأعمال التي لم تكن تخلو من مطبّات، لا أكاد أتخلّص من واحد حتى أقع في آخر. إذ شعرت أنّ معاملة الناس هنا مختلفة عنها في مشغرة، فمثلاً، جاءتني مرّة جارة للمحل وطلبت منّي تفصيل قطعة متوفّرة في السوق جاهزة وبكثرة، فسألتها، وأنا أعرف أنّها سألت عن أثمانها واحدة واحدة، لماذا تريدني أنا أن أصنّعها لها، فأجابت أنها تعرف (شغل السوق البزاري)، وبعد جدال طويل، اتّفقنا على صنع قطعتين بمبلغ 120 ليرة، وقالت أنّها ستمرّ في اليوم التالي لتعطيني النقود. وفي الصباح وبينما أنا أفتح المحل، حضرت وبيدها ورقة أعطتني إيّاها، فسألتها:

– "ما هذا؟"

– "اقرأها". ففعلت، وهالني أن أقرأ دفتر شروط للعمل، الذي قيمته 120 ليرة، كأنّها شروط لمعاهدة "فرساي"، ناولتها الورقة قائلاً:

– "أنت يا سيّدتي من قصدني إلى المحلّ لتنفيذ العمل، ولم أسعَ إليه أنا، ويسرّني أن أخبرك أنّني نفّذت أعمالاً كثيرة، بمبالغ كبيرة تتجاوز ألوف الليرات، ولم أوقّع ورقة واحدة كهذه، ولست مستعدّاً الآن لأن أغيّر عادتي"، فأخذت ورقتها وانصرفت، ولا أدري بماذا كانت تفكّر.

العلاقات الاجتماعية تغيّرت بشكل واضح، من علاقات المتّحد الصغير البسيط إلى الكبير المعقّد. فلكلّ حالة ما يناسبها من طريقة ملبس أو تصرّف أو كلام، فضلاً

عن تكاليف الحياة، ممّا أوجد حالة ارتباك مع واقع الحال، من تشعّب الواجبات والأعمال المطلوبة منّي، وشغلني كوني وزوجتي ضيوفاً على بيت عمّي، وصار تأمين بيت مستقلّ أولوية تستوجب العناية، وبمساعدة سمسار، وجدنا بيتاً يطابق المواصفات التي طلبناها، من حيث قربه إلى بيت عمّي، وسمعة الجيران والمحيط، وأعددت المفروشات اللازمة والمناسبة، وانتقلنا بسهولة، ممّا استتبع زيادة في المسؤولية، فارتأينا برت وأنا، أنّه من المناسب أن تأتي والدتي وأختي أدال للإقامة معنا، حيث يوجد متّسع لهما، وهكذا اجتمع الشمل من جديد.

3. قصّة العريس

مرّت مدّة من الزمن، وجاء عريس لأختي أدال، أرمل وليس له أولاد، رجل بكلّ ما تعني هذه الكلمة، ذو مكانة مرموقة بين معارفه، من خربة قنفار. أوصل وسطاء الخير كلّ هذه المعلومات عن العريس الياس حنّا عبّود لأختي أدال، وبالعكس. وزارنا الرجل وتعرّفنا إليه، وأثبت وجوده كما يجب، وفي الزيارات التالية تعمّقت المعرفة والصداقة، وقد أعجبني الرجل في حكمه الصحيح ونظرته الصائبة إلى الأمور، وخبرته الواسعة من الاغتراب، في معاملة الناس، وانفتاحه علينا وكأنّنا أولاده وعائلته الحقيقيون. ولسبب أجهله حتى اليوم، انقطع الرجل عن زيارتنا فجأة.

بالنسبة لنا، كأنّ شيئاً لم يحدث. إلى أن زارنا في أحد الأيّام، رجلان من خربة قنفار، دون موعد ودون أن ندري سبباً للزيارة، فاستقبلناهما في حالتنا، حتّى أنّني بقيت بـ (البيجاما والروب)، وتحادثنا في البداية أحاديثاً عامّة على أساس أنّنا من منطقة واحدة، وكان أحدهما متحدّثاً والآخر مستمعاً، وبعد أن شربنا القهوة، تبيّن الغرض من الزيارة، حيث انتقل المتحدّث إلى موضوع انقطاع الياس حنّا عبّود "العريس" عن زيارتنا، وصرت أنا الآخر مستمعاً إلى أن قال محدّثي ما عنده، مبتدئاً بنوع من العتب، ومنتهياً بعلامة استفهام. وفحوى حديثه كان في الشقّ الأول الإشادة بالعريس

ومكانته، ممّا يوحي بأن: أين نحن ممّن ذكر، وأنّه لا يجوز التفريط فيه. وفي الشقّ الثاني طلب أن تكون المبادرة من جانبنا، وأن نسأل عنه نحن إذا كنّا نرغب في إتمام العلاقة، وسكت ليسمع الردّ. من جهتي، ما كنت يوماً، ولن أكون، إلاّ صادقاً مع نفسي أوّلاً، ولا أنطلق إلاّ ممّا أعتقد أنّه عدل وحق. فاستويت في مجلسي، وكان ردّي غير ما يتوقّعه ضيفنا ممّا أثار دهشته واستغرابه، فقد قلت له أوّلاً:

- "أنا ليس عندي اعتراض على شخص الياس حنّا عبّود ومكانته، وهو بالإضافة إلى ما يملك من متاع الدنيا، ذو أخلاق حسنة وسمعة طيبة"، وهنا حملق الضيف مندهشاً، وكان يعتقد أنّني سأبدأ بالهجوم للتقليل من أهمّية العريس، فإذا بي أزيد عليها. ثم تابعت:

- "أنا لم يسبق لي وتشرّفت بمعرفة الياس عبّود، ولا سعيت، ولا غيري سعى إلى ما حصل بيننا، والمبادرة أوّلاً وأخيراً من جانبه، وأنا أعرف من واقع الحياة، أنّ كل مشروع أو علاقة لا تحمل في تكوينها عناصر حياتها وبقائها، تموت عند أوّل أو ثاني صدمة، وبناءً على هذا الاعتقاد لن أقوم من جهتي بأيّة مبادرة، فالذي يريد الأمر هو الذي يسعى إليه".

أما استنتاج ضيفنا الذي قاله وهو يضع يده على ركبة رفيقه، موجّهاً الحديث إليه، فكان:

- "من الحزب السوري القومي". ونهض مودّعاً دون أن يزيد كلمة.

أثناء هذا الحديث كانت أدال ما زالت في عملها، وبعد أن عادت إلى البيت، واستراحت، أخبرتها عن الزيارة وما قاله لي الزائر، دون أن أذكر لها ما أجبته به، لأعرف انطباعها، فحنقت في بداية الأمر، ثم سألتني:

- "وأنت ماذا كان ردّك؟". وعندما سمعته منّي انفرجت أساريرها وارتاحت، فنحن بحكم نشأتنا في البيت، وكوني المسؤول عنها من المدرسة إلى العمل، كانت أفكارنا متطابقة بصورة إجمالية، ولم أذكر يوماً أن حصل بيننا اختلاف جذري.

*

بعد أسبوعين تقريباً، وصل الياس حنّا عبّود إلى بيتنا كما في السابق تماماً، يحمل هذه المرّة هديّة المرافع، (عوّامات وزلابيا) من صنع زوجة ابن عمّه وشريكه في شغل البساتين، وصادف أنّ لدينا من الحلويات نفسها، من صنع حماتي، وكان الفرق شاسعاً من حيث المنظر والطعم، ممّا كان مصدر تعليقات من الياس ذاته، أضحكتنا لسنوات. وفي المساء عادت أختي أدال من عملها، ووجدته في البيت، فاستقبلته وكأنّه كان غائباً منذ ساعة واحدة، ولم يذكر أحدنا أو يسأل عن غيابه، وكأنّ شيئاً لم يكن.

بقي الياس عندنا أسبوعاً بسبب الثلوج وانقطاع الطرق، وكواحد من أفراد العائلة، وفي هذه المرّة تحدّثنا جدّياً في أمر العرس، وكان قد تأثّر بموقفنا الثابت، وعدم رغبتنا في المعاتبة والحديث الفارغ، وأعجب ببعد نظر وإدراك أختي أدال، وكيفية تحديدها لترتيبات العرس، في كلّ الأوضاع والاحتمالات، بدقّة ورويّة. ووافقها الرأي فوراً، ثم تركنا في أوّل الأسبوع ليعمل على ترتيب بيته في القرية. وأخذت أنا في اعتباراتي ما يترتّب علي، ليكون كلّ شيء مرتّباً ومنظّماً.

وتمّ الإكليل بنجاح، حيث المدعوون كلّهم من الأقارب والمحبّين، وانتقل العروسان إلى فندق "بيارتس". وعدت إلى البيت وقد أزيح عن كاهلي همّ العرس والبيت الضيّق، والضيوف من خارج بيروت، وكان أنّ المحبّة هي التي جعلت الأمور بسيطة سهلة. وبعد يومين أو ثلاثة، غادرت أختي وزوجها إلى بيتهما في خربة قنفار، وعادت أمّي إلى مشغرة، وصارت توزّع أوقاتها بيننا، وبقينا مثل بيت واحد، دون أيّة تفرقة. كما حصل مع برت التي بادرت إلى الذوبان والاتّحاد في العائلة مهما كانت الظروف. ولم يمضِ يوم كنّا فيه على خلاف، ونمنا مختلفين، إذ كان الصدق والصراحة هما القاعدة في التعامل، وهكذا بقينا.

4. (خلّي هالربع بهالقبع)

فـي هـذه الفتـرة، كـان البيـت والمحـلّ فـي بنـائين متلاصـقين، ممّـا وفّـر كلفـة النقليات، وبقيت مدّة أوظّف عاملاً واحداً فقط، وأستعين ببعض المعلّمين عند الحاجة. ولكـنّ معاملـة الزبـائن السـيّئة، هـي العقـدة الوحيـدة التـي وقفـت عائقـاً فـي طريـق الاستمرار. كنت أشعر بالاختناق عند تسليم كلّ عمل، ولأكون صادقاً، عند تسليم أكثرية الأعمال، فبعد أن أكون قد أذبت نفسي من التعب والعناية ليكون العمل حسب الشروط والمواصفات، يأتي الزبون ومعه ألف عذر وعذر ليتخلّص من الدفع في حينـه، هـذه الأسـاليب ليسـت جديـدة، ومعروفـة، لكنّنـي بطبعـي مسـالم، ولا أحـبّ الوساطات، ولا المحامين والمحاكم. وصار القرف يزداد يوماً عن يوم، إلى أن صرت أفكّر جدّياً بالعودة إلى مشغرة، إنّما بمعطيات جديدة، وصرنا نخطّط برت وأنا، وندرس احتمالات الموضوع، خصوصاً وأنّ المولود الجديد أصبح على الطريق، وكانت أختي أدال هي الشخص الوحيد الذي يشاركنا في التخطيط، ثم التنفيذ، وحين كانت تأتي إلـى بيروت كـان بيتنـا بيتهـا، فأطلعهـا علـى المستجدّات والخطوات العمليـة فـي هذا السبيل، وقرّرنـا البقـاء في بيروت إلـى حين الـولادة والاستراحة اللازمـة بعدها، إذ أنّ الدكتورة "ويليامس" رئيسة قسم التوليد في الجامعة الأمريكية، قد أشرفت واعتنت ببرت طوال مدّة الحمل، ونشأت بينهما صداقة، ومن الواجب المتابعة معها حتّى الوضع.

كنت خلال هذه الفترة قد رتّبت أمور إنهاء الأعمال لإغلاق المحلّ وتسليمه، ولم تكن مسألة (الخلوّ) واردة في تلك الأيّام إلاّ في وسط المدينة، وتوقّفت عن تسديد إيجار المحلّ قبل تسليمه بثلاثة أشهر، لكن حتّى هذه، رفض صاحب المحلّ التنازل عنها، وكان عندي ثلاثة سندات مستحقةّ مازال صاحبها يماطل في تسديدها، وهو من المحلّة، ويعرفه صاحب الملك، فقلت للأخير:

– "هذه السندات على فلان، جارك، وأنت أقدر وأعلم بوسائل التحصيل، فـ (خلّي هالربع بهالقبع) حسب المثل الدارج". وهكذا اتّفقنا. وكنت قد اشتريت (ماكينات)

النجارة، منشار ومجموعة، بعد طول معاناة، وذهبت إلى مشغرة وأمّنت المكان المناسب للعمل والمنزل في الوقت نفسه، وقد أرهقني الدفع دون تحصيل، وبعد جهد وتعب، وصلت الماكينات وبدأت العمل قبل أن يحين موعد استلام البيت، لأنّه كان قيد الإصلاح، فكنت أقيم مرحلياً عند أختي أنيسة.

5. وأطلّت "إيلين"

وفي يوم 16 حزيران 1957، عند الظهر، وكنت في مشغرة، هتفت لي أمّ شاكر من شبّاكها المطلّ على المحلّ، إنّ برت في المستشفى للولادة، وعلى الفور تركت العمل وأبدلت ملابسي، وأسرعت إلى بيروت في سيّارة متوجّهة إلى هناك، وعند الساعة السابعة مساءً وصلت إلى مستشفى الجامعة الأمريكية، وأوّل من التقيت، إيجيني، ابنة أختي أنيسة، وهي ممرّضة في القسم، وكانت قد حضرت الولادة، وقبّلتني قائلةً:

- (مبروك، صار عندك بنت حلوة كتير، يا خالي)، كانت برت ما زالت في غرفة الاستراحة، وقادتني إيجيني إلى الغرفة الزجاجية حيث يضعون المواليد الجدد، وكان التمييز بينهم صعباً، فكلّهم متشابهون. وحين أحضروا برت إلى غرفتها، التقينا لنعبّر عن فرحتنا المشتركة، وبقيت عندها حتّى موعد إحضار الطفلة إلى والدتها لترضعها، فحملتها بين يديّ أتأمّل ملامحها الحلوة، بشعور يعرفه كلّ الآباء في مثل هذه الحال.

كان في خاطري، حتّى من قبل الزواج، اسمان؛ "هيلانة" اسم والدتي، ووالدة برت، للأنثى. و"كميل"، على اسم ابن أختي نسيبة، الذي استشهد في الحرب العالمية الثانية، للذكر. لم تحبّذ برت كثيراً اسم "هيلانة"، ولم يكن في ذهنها اسماً معيّناً. فقبلت باقتراحي، أمّا بالنسبة لي فقد كان الاسم جميلاً وكأنّني أنادي أمّي، ثمّ أعطت ابنتي للاسم ذلك الرونق، والذي يرافقه عند تذكّر "هِلِن" طروادة و"هيلانة" أمّ قسطنطين،

و"هِلِن كيلر"، وغيرهنّ، وازداد الاسم جمالاً بقدر الحبّ الذي يشدّني إلى ابنتي، وما أعظمه.

بعد يومين أو ثلاثة، أصرّت حماتي على أن تصطحب برت لعندها، لبضعة أيّام كي ترتاح وتستعيد قوّتها، فلم يبق من داعٍ لبقائي في بيروت، وكان عليّ الرجوع إلى مشغرة للاهتمام بإنجاز البيت. وكان وقتها، وضمن الإمكانيات، موفّراً للشروط المطلوبة، من حيث الجيران، والموقع القريب إلى حركة البلدة، من الكنيسة، إلى مدرسة الراهبات، إلى السوق، إلى مكان عملي الذي اخترته وفقاً لعدّة اعتبارات، وأنجزت ما يمكن إنجازه في البيت قبل وصول برت و"هيلانة" التي صرنا نناديها "إيلين". ثمّ نزلت إلى بيروت، وكانت إيلين ابنة العشرين يوم قد تغيّرت بشكل لافت، وهناك قمت بترتيب موضوع النقل، فاتّفقت مع شاحنة كبيرة لنقل أغراض البيت والمحلّ دفعة واحدة.

وصلنا بعد الظهر بقليل، وابتدأت عملية التفريغ من جديد، وعند حلول المساء كان قد أدركنا العناء من العمل، فرتّبنا العشاء (من قريبه)، ثم أماكن النوم، بالإضافة للسرير هذه المرّة، وبالرغم من حاجتنا القصوى إلى النوم، لم نستطع إليه سبيلاً، لتغيير المناخ والمكان، وبالأكثر، لوجود إيلين، فعند أوّل صوت أو حركة منها، نكون واقفين على أرجلنا متّجهين صوب السرير الذي – بنظرنا – يحمل الدنيا وما فيها.

*

يقع البيت الذي سكنّاه في الجهة الجنوبية من مبنى قديم كبير، مقسّم إلى ثلاث شقق كبيرة، وفي الجهة الشمالية يسكن خليل رحّال، صهر الحاج بطرس قرقش صاحب الملك، وبيننا صداقة تولّدت من علاقة قديمة مع عائلة قرقش الكبيرة، وكنت قد أضفت غرفة إلى الطابق العلوي عندهم قبل سنوات قليلة. والبيت وحديقته يقعان تحت دير الراهبات الملاصق للكنيسة مباشرة، ويحدّ البيت كلّه من الجهة (القبلية) قناة مياه للريّ، اشترك في نفقتها أصحاب الأراضي التي يمكنها الاستفادة من تلك القناة.

وكان مصدر المياه من الينابيع التي تحيط بالكنيسة، ويسير مع القناة درج يوصل من الطريق العام والسوق في وسط البلدة، إلى دار الكنيسة والبيوت المجاورة، ومنها البيت الذي نسكن، ومدخله من الجهة (القبلية) الجنوبية، بوابته كبيرة نسبيّاً، فوقها قنطرة، وأمامها (معدّية) أو جسر صغير فوق قناة مياه الريّ المذكورة. وحين تكون المياه مدرارة، يكون الصوت في بيتنا مثل هدير شلاّل صغير نسمعه عبر الشبابيك.

كان البيت بساكنيه وجيرانه، صورة صادقة عن حياة البساطة، في بداية تفتّحها على أواسط القرن العشرين، وقد أحبّت برت البيت رغم قدمه، وأحبّت فيه الهدوء والاستقلالية، فهو في وسط البلدة، وبعيد عن الناس، كما أحبّت الجارة أم سليم التي كانت تعتبر برت وإيلين مثل أولادها، وكانت خير معين لها في تدبير شؤونها.

6. عاصفة نسائية، في فنجان عطية

بعد أيّام قلائل من استقرارنا في المنزل الجديد، زارتنا هيلانة زوجة عمّي، وابنتها لور المتزوّجة من نسيب ديب، ومعها ابنها نبيل وعمره سنة ونصف. وفي اليوم التالي جاءت أختي أنيسة من بيتها القريب، لتزورنا كعادتها كلّ يوم، واصطحبت معها ابنها عطيّة وعمره عشر سنوات. فاجتمع في البيت عندنا ما يقرب من اثنتي عشر سيّدة، وأولاد بعضهنّ، والوقت صيف والجوّ حار، ومدخل البيت مفتوح ليدخل الهواء إلى المكان حيث يجلس الجميع. وحصل أنّ عطيّة ابن أختي، حمل نبيل ابن لور ليلاعبه أمام البيت من الجهة الشرقية، ولم ينتبه له أحد سوى والدتي، وبعد هنيهة سألت إحداهنّ:

- "أين نبيل؟"، ثم جدّته، امرأة عمّي:
- "أين نبيل؟"، وثالثة، ورابعة، وساد هرج ومرج، حتّى وبكاء وصراخ. ووالدتي تقول:
- "مع عطيّة"، لكن صوتها يضيع بين الأصوات ولا أحد يسمعها، وامرأة عمّي

والدة برت، كانت قائدة التحرّك، وأكثر من ارتفع صوتها وازدادت حركتها في التفتيش في أنحاء البيت، ووالدتي ما انفكّت تصرخ:

- "مع عطيّة"، ولم تستطع أن تبرح مكانها في هذه الفوضى، وقالت واحدة:

- "أين عطية؟"، وتردّد "الصدى" بالسؤال، وسمع عطيّة ولم يكن بعيداً سوى بضعة أمتار، فأسرع في العودة ومعه نبيل، وكم كانت دهشته عندما اختطفت لور منه ولدها نبيل، وهي تجهش بالبكاء، ولم يفهم ما كان يقال، لكثرة المتكلّمين.

لم أكن حاضراً وقتها، وحين عدت إلى البيت بعد ساعة تقريباً، كان الجميع ما زلن في الحديث، نفسه..!

7. مشروع، وثلاث مصائب

في صيف عام 1957 كان العمل موفوراً بشكل يفوق قدرتي على تلبية كلّ الطلبات، فقد أقبل أصحاب البساتين وتجّار التفّاح للتعاقد معي على تصنيع كمّيات من الصناديق، بسعر محدّد للتسليم، وحسب عيّنة محدّدة، وكانت البداية تبشّر بالخير، لكنّ (حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر) وجرت الرياح بما لا تشتهي السفن، فالخبرة الضرورية كانت بدائية عندي، وكان هذا المشروع هو الأوّل من نوعه لديّ، ممّا أفقدني القدرة على التحرّك السليم وتجنّب ما من شأنه أن يزيد من تراكم الأخطاء والخسائر، فكانت ثلاثة أحداث متلاحقة، كافية للإجهاز على المشروع برمّته.

عندما ابتدأت مشاوراتي مع الصديق الطيّب، أبو شاكر، شفيق ناصيف، لم يشجّعني كثيراً بخصوص القوّة الكهربائية المتوفّرة من المولّد الذي عنده، ولم يكن لدينا حلّ أفضل، إذ كان مشروع الليطاني وسدّ القرعون مازال في بداياته، وكان تقديرنا لطاقة المولّد عند شفيق 15000 شمعة، وما أحتاجه لعملي هو ثلث الطاقة فقط، فوافقني دون حماس، ولم يشأ إفشال المشروع، بل ساعدني كثيراً بخبرته وبالمعدّات

المتوفّرة لديه، وبدأنا العمل بصورة منتظمة، وفي أحد الأيّام ودون سابق إنذار أو إشارة، ابتدأ الدخان يتصاعد من المولّد، فأوقفنا العمل، وحين انقشع الدخان تبيّن أنّ المحرّك تعطّل، ويلزمه لفّ وشائعه من جديد. ولم يكن ذلك ممكناً في مشغرة، ممّا أوجب تفكيكه وحمله إلى بيروت، وهناك، مثل كلّ شيء، امتدّت المماطلة من يوم إلى يوم، لمدّة عشرين يوماً، ثم أخذناه وأعدنا تركيبه في عدّة أيّام إضافية، فكان تعطيلنا لشهر تقريباً، بينما المصاريف لم تتعطّل. هذه واحدة. والثانية لم تمهلنا كثيراً، ففي يوم حضّرنا فيه كمّية كبيرة من الخشب، وأصبحت جاهزة قرب المنشار الكبير، ويلزمها ما يقارب خمس ساعات مع المعلّم النشّار "زهير" لإنجاز تقطيعها، أبدى هذا تفضيله للاستمرار في العمل، على تركها لليوم التالي، واستحسنت الفكرة وبقيت معه بينما انصرف باقي العمّال، وكانت ليلةً مقمرةً والطقس ممتازاً، والعمل سائراً على أحسن ما يرام، وفجأة انقطعت نصلة المنشار، وتبعها صوت المعلّم زهير:

– (إيدي .. إيدي ..)، والتفتّ مذهولاً لأرى في ذراعه الأيمن من الجهة الخارجية، جرحاً بليغاً ينزف بغزارة. وبسرعة، أوقفت الآلة، وأقفلت المكان، وركضنا إلى عيادة الدكتور نسيب غطّاس، القريبة، ففحص الأخير الجرح، ونظّف حوله، ووضع عليه ضماداً كبيراً ليمنع النزف، وأخبرني أنّه لا يستطيع فعل أكثر من ذلك، فالجرح يلزمه عملية في مستشفى.

بعد ساعة وبضع دقائق كنّا في غرفة الطوارئ في مستشفى "تل شيحا" بالقرب من زحلة. لم تكن المعاملات معقّدة، وكانت تربطني معرفة شخصية بالدكتور الغصين الذي أجرى العملية بالسرعة المطلوبة، ولم أستطع ترك زهير قبل أن يستفيق من تأثير المخدّر، رجعت بعدها إلى مشغرة منهكاً من التعب، واستغرقت هذه الحادثة ما يقارب أربع ساعات. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المستشفى للعودة بزهير بعد الاطمئنان إلى حالته.

في الأيّام التي تلت، تعثّر العمل وخفّ الإنتاج، وزاد ضغط أصحاب الأعمال

لقرب موسم القطاف، وصار همّي الوحيد التخلّص بقدر الإمكان من جزء من التوصيات التي يتعذّر إكمالها، وكل المناشر تعاني ما أعانيه، لكنّي تدبّرت الأمور بالتي هي أحسن، وتوسّع العمل لناحية المنجور الذي لا يستوجب ساعات طويلة على المكائن. وقرّرت تصفية شغل الصناديق الذي يبقى تحت رحمة موسم القطاف، وبقي عندي بضع مئات يجب تسليمها في مدّة قصيرة.

وتأتي ثالثة الأثافي، فتتخرّب قطعة من المحرّك الكبير، ونتعطّل شهراً كاملاً ليتمّ إصلاحها، وتتراكم الأعمال والديون من عدم تسليم الأشغال في مواعيدها، وصار لا مندوحة من تأمين محرّك ومولّد كهربائي (مجموعة)، فبدأت السؤال والبحث ولم تكن الأمور من السهولة بشيء.

*

كانت برت في البيت تبذل ما في وسعها لتوفير الراحة لي، وفي الليل تستعمل شتّى الوسائل مع إيلين كي لا يوقظني بكاؤها المتواصل، وكنت أتحامل على نفسي لآخذ قسطاً عنها، وفي إحدى تلك الليالي الصعبة أخذت دوري وحملت إيلين، وكعادتي صرت أتمشّى بها في الغرفة، وكانت، ما دمت أمشي، ساكتة ومسرورة، لكنّي ما إن أتوجّه ناحية السرير حتّى تعاود البكاء، واستمرّت الحال ما يزيد على الساعتين، كانت خلالها برت في المطبخ لإنجاز بعض الأشغال وقد عادت لتوّها إلى الغرفة، كنت أنا في هذه اللحظة أمشي على رؤوس أصابعي متّجهاً نحو السرير لأضع إيلين فقد نامت أخيراً، لكنّها ما إن لامست فراشها حتّى صرخت من جديد، وكنت على وشك السقوط إعياءً بسبب السهر الطويل، فما كان منّي إلاّ أن صرخت بدوري، وبأعلى صوتي، وقذفت بإيلين إلى والدتها، التي تلقفتها والدهشة تكاد تقتلها من انفعالي. والغريب في الأمر أنّ إيلين توقفت عن البكاء كلّيّاً، فصرنا نتفحّصها خوفاً من أن يكون قد أصابها مكروه، لكنّها كانت ساكتة وطبيعية للغاية، فوضعتها في سريرها، وبعد قليل نامت، فأطفأنا النور ونمنا نحن الثلاثة (مثل القتلى). وعند

الصباح استفاقت إيلين قبلنا، ولكن دون بكاء، بل كانت تضحك وتصدر أصواتاً حلوة، بل أنّها منذ ذاك اليوم، وكان عمرها ستّة أشهر، أقلعت نهائيّاً عن عادة البكاء.

8. وشعرت باليتم الحقيقي

بعد فترة من الزمن، شعرت برت بتوعّك في صحّتها، فقرّرنا النزول إلى بيروت لسهولة المعالجة، ومساعدة امرأة عمّي خصوصاً لجهة إيلين، واغتنمت الفرصة، وقمت بجولة هناك لإيجاد أغراض للشغل، لكنّي لم أوفّق، فعدت إلى مشغرة ودوّامة العمل. وكانت والدتي قد شعرت بالوحدة في غياب برت وإيلين، وفي أحد الأيّام، قالت لي:

– (روح جيب برت وإيلين، بدّي حطّ البنت بحضني وغنّيلها). وفي الوقت الذي كان لها إثنين وعشرين حفيداً وحفيدة، من إخوتي وأخواتي، أحسست أنّ عالمها انحصر في وجود هذه الحفيدة الجديدة التي تحمل اسمها، فطيّبت خاطرها، على أن أنزل في اليوم التالي إلى بيروت لهذا الغرض، وفي المساء وأنا عائد إلى البيت، التقيت الصديق والرفيق موريس الغزال، وطلب منّي عملاً ضروريّاً ومستعجلاً، لمصلحة الليطاني، ولحسابه، ولم أستطع رفض الطلب، فاتّفقنا على المباشرة صباح اليوم التالي، وفاتني أن أخبر والدتي بما استجدّ، وبتأجيل ذهابي إلى بيروت، وفي الصباح، وكعادتها عندما تستيقظ، دخلت المطبخ وأوقدت النار في موقد الحطب، ثم أيقظتني لعلمها أنّي مزمع النزول إلى بيروت، فأخبرتها بالطلب العاجل الذي أتاني، ولبست ثياب العمل، وكان موريس في انتظاري، وتركتها جالسة أمام الموقد، على أن أعود لتناول فطور الصباح معها.

استغرق العمل ما يقارب أربع ساعات، رجعت بعدها إلى البيت، ومعي ما أحتاجه من السوق، فلم أجد أمّي في المطبخ، وضعت الأشياء التي أحضرتها في أماكنها، ولم أسمع أيّة حركة، فقلت في نفسي ربّما هي عند الجارة، وحين هممت أن

أناديها، حانت منّي التفاتة إلى غرفتها، فوجدتها نائمة في سريرها ووجهها إلى الحائط، وعزوت ذلك إلى شعورها بالنعاس بسبب نهوضها باكراً جدّاً، فدنوت منها ووضعت يدي على كتفها وقلت لها:

- (قومي يا أمّي لنأكل)، فلم ألقَ جواباً، وحملقت جيّداً وأدرت وجهها ناحيتي، فإذا هي دون حراك.

صعد الدم إلى رأسي، وركضت مسرعاً لمناداة الجارة أم سليم، فأتت وسرعان ما أدركت الأمر، بخبرتها، وأغمضت عيني أمّي، والدموع تطفر من عينيها. أمّا أنا فقد أسرعت لإحضار الطبيب، لربّما يكون هناك بعد من أمل، لكنّي لم أجده، وأسرعت من هناك إلى بيت أختي أنيسة، ثم إلى المحلّ فصرفت العمّال واصطحبت منهم من يستطيع مساعدتي في البيت، وكذلك أبلغت الصديق والرفيق أبا شاكر، شفيق ناصيف.

لم تكن التلفونات متوافرة في كلّ الأماكن، والتعامل بواسطتها يتطلّب معرفة وصبراً، وفي اجتماع قصير مع أبي شاكر قدرت أن أعطيه أسماء وعناوين إخوتي وأخواتي المقيمين خارج مشغرة، وديع في عاليه، أنيس في دمشق، أديب في منصورية بحمدون، أديبة في بيروت، وأدال في خربة قنفار القريبة، فضلاً عن الأقارب الذين تولّوا هم الاتّصال ببعضهم البعض. وعدت إلى البيت لأجد الجيران، أو بالأحرى الجارات، منهمكات في إعداد البيت والجثمان، وخطفت نفسي على وجه السرعة لحلق ذقني وتغيير ثيابي، وكان عليّ، رغم حزني الشديد، أن أكون متماسكاً لأعطي التوجيهات والحلول لما يتطلّبه الموقف الصعب، ولا أنسى مساعدة الجيران والأصدقاء وتعاونهم معي، وخصوصاً بيت سليم رحّال إذ كان تعاوننا مثل أهل بيت واحد.

*

كانت وفاة الوالدة قد حصلت في 17 تشرين الثاني 1958، عن عمر يناهز 78 عاماً، وفي المساء المتأخر من ذلك اليوم، اجتمع شمل العائلة حول الجثمان،

وابتدأ المأتم الحقيقي لتلك الوالدة الفاضلة، والتي، إذا كان فينا حسنة أو فضيلة، فهي منها ومن صنع يديها وتعاليمها القويمة، وقد تنكّبت وحدها إيصالها وترسيخها فينا بعد موت والدي المبكّر، إذ كنّا ما زلنا أطفالاً بعد، فتولّت هي مهمّة الأب والأمّ على السواء، وبجدارة مشهود لها فيها. وكانت من القلائل اللواتي تعلّمن في ذلك الوقت، بل الوحيدة في حيّ يبلغ عدد سكّانه حوالي خمسمائة نسمة، ولا أزال أذكر كيف كانت مرجع الجيران الوحيد في إيجاد الحجج وقراءة الوثائق المكتوب بعضها باللغة التركية والقديمة العهد، وكيف كانت تحلّ رموزها دون أن تتعلّم ذلك من قبل، وقد أورثتنا محبّة وصداقة أهل الحارة كلّهم.

بقي جثمانها الطاهر مسجّى في البيت إلى اليوم التالي، حيث تنقل إلى الكنيسة لإقامة الصلاة. وفي تلك الليلة شعرت باليتم الحقيقي، وأحسست أنّي بفقدانها فقدت الدنيا، وصدق الذي قال [الدنيا أمّ]، فبكيتها ما طاب لي البكاء. وما إن أطلّ الصباح حتّى ابتدأ تجمهر الناس، وخصوصاً الأقارب، ففي مشغرة عادات جميلة للغاية في مثل هذه المواقف. وتجمّع كلّ الغائبين، وعند وصول كلّ مجموعة كانت تحصل مناحة، تأثّراً بالموقف المحزن الذي جمعنا، وحضرت برت من بيروت، ومعها إيلين، وعمّي نقولا والدها، وإخوتي كلّهم وعيالهم.

وكأنّما أرادت أمّي أن تكون في موتها، مثلها في حياتها، خفيفة نظيفة، فقد أوصت أختي أدال أن تضع لها الثوب الأبيض، ولم يتغيّر وجهها لولا صفرة الموت، وكأنّها في سبات عميق. وكنّا، أختي أدال وأنا، نشعر بالخسارة أكثر من الآخرين، فقد كانت أمّي معنا في أيّامها الأخيرة، وما كانت تفارقني إلاّ لزيارات قصيرة في بيوت إخوتي، وبقيت العلاقة بيننا قوية متماسكة دون أيّ خلاف، لهذا شعرت بالفراغ الكبير الذي تركته. ومنذ تلك اللحظة تولّت أختي أدال دورها فيما يختصّ بي وبعائلتي.

كانت الكنيسة قرب البيت كما ذكرت، وكلّ أهالي البلدة يتشاركون في هذه المناسبات، وبعد الجنازة والدفن بقيت الاستقبالات وتلقّي التعازي أسابيع عدّة،

وبمناسبة وجود عمّي نقولا، وصهري الياس حنّا زوج أختي أدال، كانت فرصة ليأتي كثيرون للتعزية والتعارف، والاستماع إلى الأحاديث المنوّعة، فكان البيت، معظم ساعات النهار، وبعض الليل، مثل قاعة محاضرات، بل أنّ البعض كان يبقى واقفاً في الممرّات إلى أن يتاح له الدخول، وفي باقي الغرف كانت إيلين (هيلانة الصغيرة) الشغل الشاغل لمن يأتي من أهل البيت والضيوف، وهي في بداية تفتّحها على الحياة، وكانت أختي أنيسة المعلّمة والمشيرة لبرت فيما يختصّ بإيلين وثيابها وحمّامها، بالإضافة إلى التصرّف السليم، وتعريفها إلى الأقارب والمجتمع في مشغرة، والذي تقوم به برت لأوّل مرّة في مناسبة كهذه.

*

وانتهت مراسم الحزن، مثل كلّ الحالات، وأصبح من واجبي الاهتمام بالعمل، وتدبير أموري لمواجهة الحالة التي وصلت إليها، وكأنّ هذا الحادث أعطاني الفرصة للتفكير العميق واتّخاذ القرار المناسب. ومنذ استأنفت عملي بدأت بتنفيذ ما خطّطت له، وهو تصفية المشروع الذي أرهقني، وكأنّه لم يكن، والاتّجاه في منحى جديد يريحني جسدياً وعقلياً ومالياً. وفي البيت أيضاً أتيحت لنا الفرصة، برت وأنا، لتدبير أمورنا على مهلنا وبما يناسبنا، وكانت أسعد لحظاتي حين أعود إلى البيت وأحمل إيلين بين ذراعي، وأنسى العالم.

ساعدتني أختي أنيسة كثيراً، وبقيت في نظرها الأخ الذي كانت تحمله وتلاعبه صغيراً، وتشارك أمّي في المسؤولية بعد غياب إخوتي في المهجر وموت والدي؛ وتابعت في هذا بعد وفاة والدتي، وكم كانت تحمل إلينا بيديها مجامع المربّيات وأوعية البرغل والكشك والصعتر، وغيره، فقد أحبّت برت، كمحبّتها لبناتها. أمّا أختي أدال فكانت تزورنا هي وزوجها في نهاية كلّ أسبوع، وتمضي نهار الأحد معنا، وتكون فرحتها الكبرى حين تأخذ إيلين معها، وتعتني بها إلى أن يأتي الأحد التالي.

لا أذكر يوماً خلافاً نشأ بين أحد إخوتي أو أخواتي وبيني، وبلغ حدّ العداء أو

المقاطعة، إذ كنت حريصاً جدّاً على هذه الناحية، وأردّد في نفسي: لست أنا من يعادي، وترسّخت عندي هذه الفكرة عندما كبرت وأدركت تفاهة الأشياء التي تصنع العداوة، وخصوصاً بين الأهل والأقارب، ورفضتها رفضاً قاطعاً. ومن هذا المبدأ أيضاً، تجاوزت محنة تصفية المشروع دون عداوة مع أحد.

9. مولد كميل، وانفجار الفتنة

دخلت سنة 1958 وشتاء مشغرة قاسٍ، وأصبحت ظروف العمل صعبة، خصوصاً في الأماكن المفتوحة، وتمضي شهور الشتاء في اقتناص ما يمكن من عمل في أيّام الصحو. وأطلّ الربيع يحمل معه الدفء وتفتّح الحياة، لكنّه في هذه المرّة حمل معه أيضاً ما حبلت به السنون التي سبقت، وتفجّرت أحداثاً دامية وانقسامات عميقة لم تعالج كما يجب، بل بالطرق التقليدية وبالمراهم والمسكّنات، دون المساس بجوهر الخلاف ومكمن العلّة.

في 29 أيّار من ذلك الربيع وفي الساعة الثامنة مساء، ولد ابني كميل. بقيت يومها مع برت في مستشفى "تل شيحا"، في زحلة، إلى ساعة متأخّرة، ثم قضيت ليلتي في أحد الفنادق، وفي الصباح وقبل أن أذهب إلى المستشفى، توجّهت إلى موقف سيّارات مشغرة لأحجز مكاناً، وطلبت من السائق أن يوافيني إلى المستشفى في الساعة العاشرة. كان عليّ شراء بعض الحاجيات من السوق، وهناك التقيت الصديق حكمت شرارة الذي كان في زحلة للتسوّق، فترافقنا إلى محلّ حلويات يبعد حوالي مائة متر عن الموقف، واشترينا ما يلزمنا، وكنّا على وشك الانصراف، وإذا بانفجار عظيم يدوّي ويهزّ وسط المدينة التجاري. بقينا حيث نحن، فباب المحلّ بعكس اتّجاه الانفجار، وشاهدنا الناس يتراكضون في جميع الاتّجاهات، وأبواق السيّارات المسرعة تزعق لتفادي الاصطدامات. وحين خفّ الغبار واستعاد الناس هدوءهم قلت لحكمت:

- "سأذهب لأستكشف الأمر، ابق أنت مع المشتريات وسأمرّ من هنا

بالسيّارة"، ولدى وصولي إلى الموقف لم أجد أحداً، لا سيّارة، ولا حتّى إنساناً، فأومأت لسيّارة أجرة مارّة بالصدفة، وطلبت منه أن يوصلني إلى المستشفى ثمّ إلى مشغرة، فوافق، وحسبت نفسي محظوظاً إذ وجدت سيّارة، فاصطحبت الصديق حكمت وتوجّهنا إلى المستشفى، وإذا هناك هرج ومرج، فقد نقلوا ضحية الانفجار إلى هناك، ووجدنا السائق الذي اتّفقت معه في الموقف، في انتظارنا، فاعتذرنا من الذي أوصلنا، وانصرف.

سدّدت فاتورة المستشفى، وكانت الممرّضة تساعد برت في ارتداء ثيابها، وتعطيها التعليمات الخاصّة بالطفل، وقلقت برت جدّاً حين علمت بأنّ مكان الانفجار قريب من الموقف، ولكنّ السائق كان قد طمأنها بعدم إصابة أحد من مشغرة بأذى.

المسافة بين زحلة ومشغرة تستغرق ساعة، وكنت أحمل "كميل" غارقاً في أقمطته، وأنا حريص على أن يكون وضعه مريحاً، وساد صمت عميق، منذ مغادرتنا المستشفى، فلا أحد يتكلّم، وسرح كلّ منّا في أفكاره وهمومه، واستمرّ ذلك حوالي خمس عشرة دقيقة، ثمّ وصلنا إلى شتورة، وتوقّف السائق ليأخذ البريد، وانكسر ذلك الجمود الذي سبق، وعدنا للحديث عن حادث الانفجار، وعلاقته بالأحداث الجارية في البلد وقتئذٍ، وكنّا قد عرفنا أثناء تواجدنا في المستشفى، أنّ الانفجار وقع في مستودع مغلق للأدوية، ملاصق لمطعم حيث قتل أحد المتواجدين. وصرنا نتساءل لماذا في مستودع للأدوية؟ وما العلاقة بينه وبين ما يجري؟ ومن المقصود؟ أسئلة تحتمل الكثير من الإجابات، وما يلفت الانتباه أنّ الأخطاء التي كانت تقع، ولم تزل، متلاحقة متوالدة متكاثرة، تجد من يستغلّها، أو يردّ عليها بما هو أسوأ منها؛ وما يؤكّد هذا، حصيلة الواقع الذي نعيشه، والذي إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ بوضوح على ضرورة تغيير طريقة تفكيرنا، بل وأسس الفكر والعلاقات التي ورثناها وأوصلتنا إلى هذا الواقع المرير.

أكتب اليوم، وكلّ يوم يزيد من قناعتي أنّ البلايا والنكبات التي لحقت بعدد

كبير، وكبير جدّاً من عائلات لبنان، وأنا منهم، من جرّاء حرب العشرين عاماً، كان من الممكن، بل من المؤكّد أن لا تحصل. لو كنّا مدركين لحقيقتنا كمجتمع واحد، وعلى أسس علمية.

10. وفاة في الفندق

رغم كلّ الظروف التي كنّا نمرّ فيها، كانت سعادتي الحقيقية وفرحي الأكبر، في العودة إلى البيت حيث إيلين وكميل في انتظاري، وتلك أحلى ساعات العمر، بالإضافة إلى أنّ برت كانت تملأ دنيانا بالمحبّة والفرح، فلا بكاء ولا صراخ ولا صوت يرتفع في شجار، وأيّ من الجارات كانت تزورنا، كانت تلقى كلّ ترحيب وإكرام، أمّا برت فلم تكن تبرح البيت إلاّ فيما ندر، وكانت تعتبر الزيارات بصحبة الأولاد، خطيئة بحقّ من تزورهم، ولو كانوا من الأقارب.

في يوم أحد من صيف عام 1959 كانت أختي أدال وزوجها عندنا كالعادة، وتستعدّ للعودة إلى بيتها ومعها إيلين، وكان الصهر في الطريق إلى السوق، مارّاً أمام بيت نسيب طرابلسي، ابن خالتي، فدعوه لعندهم وأبلغوه في هدوء أنّ أخي وديع المتواجد في فندق Round Point في عاليه، وهو لشكيب وفيليب طرابلسي إخوة نسيب، وجد ميتاً في غرفته. عاد الصهر وأبلغني سرّاً. فوجئت ولكنّي ما لبثت أن تمالكت نفسي، فبدّلت ثيابي بسرعة وأخذت سيّارة كبيرة ملائمة وتوجّهت إلى المهمّة الصعبة، إبلاغ زوجة أخي، وكانت عند بيت خالها بطرس بركة الذي تزوّج ابنه عارف من ابنتها فكتوريا، وحين لمحتني أصعد الدرج وحيداً بثياب رسمية، ويبدو أنّها قرأت شيئاً في عيوني، بادرتني "خير انشالله" وأخذت طريقاً أطول للإجابة على سؤالها، أمّا هي فكانت قويّة كما أعرفها، واستطعت إبلاغها الخبر في هدوء، ودون أن أصدمها، وجمت في بادئ الأمر وغلبتها دموعها، ولكنّها لم تصرخ وتولول شأن الكثرة التي نعرفها، وأسرعت لتعدّ نفسها للذهاب.

أمّا كيف اكتشف الأمر، فقد كان عمّي بطرس ومعه فكتوريا ابنة أخي، وابنه عارف، زوجها، في بيروت؛ وفي طريق العودة إلى مشغرة مرّوا بالفندق حيث أخي، وقرعوا الباب كالعادة، فلم يفتح أحد، وكانوا قد أخبروه بقدومهم قبل يومين. وبعد السؤال عنه، انتبه الجيران إلى أنّهم لم يروه منذ يومين، فلم يبق من خيار أمامهم إلاّ فتح الباب والدخول بمعاونة الجيران، وكانت صدمة موجعة لهم جميعاً إذ وجدوه ميتاً، فتمّ إبلاغ السلطات، وأيضاً أولاد خالتي، أصحاب الفندق، في بيروت، الذين أبلغونا عن طريق أخيهم بواسطة الهاتف.

انطلقنا إلى عالية بالسيّارة الكبيرة، صهري وأختي وأنا، ومعنا زوجة أخي، لنجد الكثيرين من أهل مشغرة قد سبقونا، قادمين من بيروت، وبقينا لاستكمال التحقيقات ووصول الطبيب الشرعي لفحص الجثّة، وتبيّن أنّ الوفاة بسبب غاز الفحم. وسألني المحقّق إن كنت أريد إقامة دعوى؟ ولم يخطر ببالي أنّ أحداً سيسألني هذا السؤال، وأجبت بالنفي، وفكّرت، إذا كان لا بدّ من تعويضات، فإنّ أولاد خالتي، أصحاب الفندق، سيعطونها من أخلاقهم، ونبقى أقارب وأصدقاء. وهكذا كان.

تحدّثت عن عادات حلوة في مشغرة في المآتم، ولكن هناك أيضاً عادات سيّئة ملازمة لتلك. وكنت أسأل نفسي دوماً: "لماذا تكثر المجاملات في المآتم؟" فقد كان الحضور متوجّباً على الجميع، وبأحسن ما يكون من هندام، والبقاء طوال الوقت الذي يتخلّله (الندب) من الرجال والنساء، وفي كثير من الحالات كان يتحوّل المأتم إلى مهزلة بسبب المبالغة التي تتعدّى حدود اللياقة. وما يزيد في الطين بلّة "العزيمة" لتناول الطعام، وكانت كلّ البيوت تستعدّ لاستقبال "المعازيم"، والأفضلية للأقرب للمتوفّى، وكثيراً ما كانت تتحوّل هذه المجاملات إلى "خناقات"، ثمّ عداوات تستوجب أخذ الثأر في جولة ثانية وفي مناسبة مشابهة. أمّا الحالة النفسية لصاحب العلاقة وأهل الفقيد، فلا يحسب لها حساب.

11. انقلابات، بالجملة

في ليلة 31 كانون الأوّل 1961 - 1 كانون الثاني 1962، قام الحزب السوري القومي الاجتماعي بمحاولة انقلاب في لبنان، علمنا بها بعد فشلها، إذ لم يكن لي أيّة علاقة بالأمر. كما علمنا بملاحقة السلطات للقوميين الاجتماعيين، فغادرت البيت إلى بيت أختي أنيسة، واختبأت عندهم. وبعد مرور أسبوع، ضقت ذرعاً بالاختباء والتخفّي، فقرّرت العودة إلى البيت، وما كان يطمئنني أنّي لم أشارك في محاولة الانقلاب، لا من قريب ولا من بعيد، إضافة إلى أنّ جاري فوزي بلّوط، وهو رقيب في الدرك، يعرف، بحكم الجوار، أنّي كنت ليلة الانقلاب، في البيت.

في تلك الفترة، كنت قد رزقت بابنة ثانية، أسميتها "سوسن"، وقد لاحظت بعد فترة أنّها بالكاد تبصر، ولكنّ الفرصة لم تسمح لي باتّخاذ أيّ إجراء، ففي الخامس من شباط، قرع الباب، وإذا بالدرك قادمون لاعتقالي. وكان كميل ابن الثلاث سنوات، ساعتها، يلعب على الشرفة أمام البيت، وكأنّه استشعر بالخطر، فسألني:

- (بابا، لوين رايح؟)
- (رايح ركّب باب لبيت العسكري)،

لكنّه ظل يراقبني من خلال (الدرابزين) بعيون قلقة، إلى أن ابتعدنا.

*

في السجن، وأثناء التحقيق علمت أنّ جاري فوزي بلّوط، لم يتقدّم بشهادته لمصلحتي، بل أنّه (ربّحني جميلة) فيما بعد، لكتابته في المحضر أنّي سلّمت نفسي، وذلك لتخفيف "الجرم". وكانت فترة صعبة في القاووش المزدحم بالمساجين، وكان البرد شديداً في الليالي الشتائية، ممّا دعاني لأن أختار مكان نومي بين زميلين ضخمي الجثّة، طلباً للدفء!. وفي إحدى الليالي، سمعت حديثاً بين سجينين، كانا يناما وأقدامهما إلى حائطين متقابلين، بحيث يلتقي الرأسان في وسط الغرفة، ولضيق

الغرفة وازدحامها، صارت الرؤوس متلاصقة، وكان أنّ أحدهما قد شعر بحكّه في رأسه، فمدّ يده ليهرشه قليلاً، ثمّ انتبه أنّ هناك خطأ ما، فسأل رفيقه:

- (محسن)
- (هه!)
- (هيدا راسك ولاّ راسي؟)
- (هيدا راسي أني)
- (عم قول ليش مش عم إلتذ.!!).

*

دامت فترة السجن حتّى 17 شباط، وكانت الليلة الأصعب من السجن، ليلة عودتي إلى البيت، إذ لم أجد برت والأولاد، وكانت ليلة موحشة من دونهم، فقد تولّى نسيبنا إدمون بركة مساعدة برت والأولاد، وأخذهم إلى بيت عمّي في بيروت، أثناء غيابي.

وفي صباح اليوم التالي، أسرعت باكراً إلى بيروت، لأستمتع بفرحة اللقاء، ولأصطدم بعدها بما يوجع القلب؛ فابنتي الصغيرة "سوسن" كانت قد فقدت بصرها بسبب ورم خبيث في رأسها. إذ عرضتها برت على طبيب، في غيابي، وأفادها أنّ الجراحة لا تفيد، لأنّ مكان الورم في الداخل وليس له شفاء مضمون. وتلقّت برت الصدمة وحدها في بيت عمّي. فكانت رحلة العذاب لتلك الطفلة حوالي سنة وثمانية أشهر، انتقلت بعدها إلى رحمة الله.

12. مدرسة الأولاد

بعد فترة السجن وهدوء الأحوال، كان همّي إعادة مسار الشغل وتقويته، فصرت أضيف إلى وقت العمل، ساعتين في مساء كلّ يوم، لتعويض الخلل الذي حصل من تأخير في الأعمال، وتأخير في القبض في المقابل. تجاوزت تلك المرحلة

وعادت الحياة روتينية، في الشغل والبيت. وكان دخول إيلين إلى المدرسة قد سبق هذه الأحداث بما يقرب السنة، ما وفّر عليها الكثير ممّا كان يحدث ولا تستطيع فهمه أو استيعابه، وكنت قد عوّدتها أن أجيب على أسئلتها بوضوح وصدق، بقدر الإمكان، بالنسبة لطفلة لا تستطيع التعبير عن نفسها بسهولة، وكانت منذ طفولتها المبكّرة، قويّة الإرادة وتحاول دائماً الاعتماد على نفسها. ففي إحدى المرّات وكانت في بداية جلوسها لوحدها، حولها عدد من ألعابها، وواحدة من هذه اللعب بعيدة نسبياً، وهي تحاول الوصول إليها مع الاحتفاظ بتوازنها، وبعد محاولتين أو ثلاثة، وأنا أُراقبها، خطر ببالي مساعدتها قليلاً بتقريب اللعبة بضعة سنتيمترات، وما إن فعلت، حتّى صرخت عالياً، غاضبة، وبعثرت اللعب في كلّ اتّجاه احتجاجاً على تدخّلي وإفساد محاولتها؛ فتدخّلت برت، وعملنا على إرضائها بشتّى الوسائل، ومنذ ذلك اليوم، قرّرت عدم التدخّل في أيّ شأن من شؤونها، إلاّ إذا طلبت هي منّي ذلك، وكان من النادر أن تطلب، وقد رافقتها هذه الطبيعة ولم تزل، بل على العكس، فهي تمدّ يد المساعدة لكلّ محتاج.

في فصل الصيف وأثناء العطلة المدرسية، كانت أختي أدال تستبقي إيلين عندها لفترات أطول، ونشأ عند كميل من هذا الوضع أن يخترع ما يشغله لوحده، من قطع الخشب الصغيرة المتوافرة بكثرة في البيت، من فضلات أعمال النجارة، والتي كنّا نستعملها أحياناً للوقود. فكنت عند عودتي للطعام ظهراً، أرى أشكالاً هندسية متعدّدة من بيوت وحصون وطرقات وجسور، في مساحة 4×4 أمتار. وفي المساء نجمع الأخشاب وننظّف المكان لعمل اليوم التالي. وانقضى ذلك الصيف، وابتدأ الاستعداد لدخول المدرسة، وفرح كميل جدّاً بـ "المريول" الجديد و"شنطة" الكتب، ولم يصدّق أن يأتي افتتاح المدرسة ليرافق إيلين أُسوة بباقي الأولاد، وكان قربُ بيتنا من المدرسة، قد أوجد رغبة عند الأولاد فيها، لرؤيتهم الكثير من التلاميذ في طريقهم كلّ يوم ذهاباً وإياباً وبأعداد كبيرة، ولا يفوتنا في كثير من الأحيان، برت وأنا، أن ننتظرهم أثناء نزولهم على الدرج، خوفاً من الأولاد الكبار، وركضهم المجنون في مثل هذه الحال،

ولا أنسى أبداً تلك المتعة، والنظر إليهما وكأنّهما آتيان من سفر بعيد، نحتضنهما ونقبّلهما وكأنّنا نراهما للمرّة الأولى. وشعرنا، وشعرت الراهبات، وحتّى الجيران، بالمميّزات اللافتة لأولادنا، فلا شجار ولا صراخ ولا ثياب متّسخة، بل تصرّف مهذّب في مطلق الأحوال.

13. روبير والفطام

في خريف سنة 1962 وفي 23 أيلول كان مولد ولدنا روبير في مستشفى "تل شيحا" أيضاً، [إيلين وسوسن ولدتا في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت، وكميل وروبير في مستشفى تل شيحا في زحلة].

طفولة أولادنا، كلّهم، كان لها طابع عناية الأمّ الشديدة، فقد تفرّغت برت للمولود الجديد وألغت كلّ الزيارات والواجبات الاجتماعية إلاّ فيما ندر، إلى أن كبر الأولاد. وحين صار عمر روبير سنة واحدة، وكانت امرأة عمّي، وبناءً على تجربتها، تعرف أنّ إرضاع الطفل لمدّة أطول من ذلك، يرهق صحّة الأمّ، فأرسلت لبرت بهذا الخصوص، ودعتها إلى بيروت كي تساعدها في فترة الفطام، ويبدو أنّ الفكرة لاقت استحساناً عند برت، على أن نكون أنا وإيلين وكميل في عهدة أختي أدال لمدّة أسبوعين تمضيهما برت ومعها روبير في بيروت، ووافق الجميع، وبقيت برت في بيروت المدّة المعقولة، ثمّ عادت إلى البيت، هي وروبير بصحّة جيّدة وكلّ شيء على ما يرام.

ولم يمضِ وقت طويل حتّى شعرت برت أنّ حرارة روبير ارتفعت بشكل مفاجئ، فقصدنا الصديق الطيّب الدكتور وديع رفّول في عيادته القريبة، وعندما عاينه وسألنا بعض الأسئلة، عرف فوراً أنّه التهاب في الأمعاء، وأعطانا الأدوية اللازمة وأوصانا بالحرص الشديد في هذه الحالة، وبأن نبلغه في الحال عن أيّة تطوّرات. وجنّ جنون برت لدى سماعها هذا الكلام، إذ كان أخي أديب قد فقد ابنه البكر قبل ستّة

أعوام بالمرض نفسه، ومن عدم الدراية والعلاج الصحيح وقتها. وباشرت برت فوراً بتطبيق تعليمات الطبيب ولازمت سرير روبير، لا تفارقه إلاّ لإحضار الدواء، واتّفقنا أن ننزل إلى بيروت إذا لم تتحسّن حالته حتّى الصباح، وهكذا كان. وهناك قصدنا الدكتور جميل مالك وهو صديق العائلة أيضاً وله شهرة واسعة في طبّ الأطفال، وخلال بضع دقائق وعدّة أسئلة، عرف الحكاية كلّها، وشرع يعطي التعليمات، طالباً إبلاغه وإحضار روبير إلى المستشفى إذا ارتفعت الحرارة، كما أعطانا لائحة الأدوية اللازمة. كانت امرأة عمّي الأكثر لهفة على روبير، وندامة، لأنّ الفطام هو الذي سبّب الحادثة، واقترحت لور، أن تستضيف شقيقتها برت في بيتهم في الحازمية، لأنّ لديهم سيّارة وهاتف، وبيتهم أوسع، وقبلت برت الدعوة كي تؤمّن الاتّصال السريع إذا دعت الحاجة، وتخفّف من تدخّل امرأة عمّي المتواصل.

عدت إلى مشغرة لضرورة العمل، واطمئناني من كلام الطبيب الذي حدّد أربعاً وعشرين ساعة من بداية استعمال الدواء، لزوال الخطر نهائياً، وكنت واثقاً أنّ برت أحرص من الطبيب على تنفيذ تعليماته، وبالفعل، في الموعد المحدّد اتّصلت من بيت الصديق شفيق ناصيف، وردّت برت على الهاتف، وكادت تُسمعني صوتها، (بالأذن المجرّدة)، وليس عبر الهاتف، وهي تخبرني بفرح أنّ روبير في صباح ذلك اليوم، وكانت قد تركته إلى المطبخ لتحضّر له الطعام والأدوية، فاجأها إذ حبا وتبعها من غرفة النوم، ووجدته أمامها يضحك وكأنّه يستعجلها. كانت فرحتي عظيمة، وعملت ترتيباتي لأكون في صباح اليوم التالي عندهم. وحين عدنا إلى البيت في ذلك المساء، كانت الفرحة تملأ قلوبنا، وروبير يضحك ويترغل، وكأنّ شيئاً لم يكن.

14. استفاقة.. للوفاء

كنت قد رويت مراراً كيف كانت علاقتنا بأختي أدال وزوجها، القريبين إلينا، في خربة قنفار؛ وكيف كانت مساعدتها فعّالة في كلّ ضيق، وكأنّنا نعيش معاً، إذ

كان الصهر الياس حنّا يعتبرنا عائلته. وفي أحد الأيّام وبينما كنت أتناول طعام الغداء في البيت، وإذا "جبران عبّود" ابن عمّ صهرنا وشريكه، يصل وهو يحمل إيلين، وكانت عند أدال، وضعها عند الباب، فركضت إلى الداخل هاتفة: ماما، واستقبلتها برت متفاجئة: (تقبريني!). تركت طعامي وخرجت، ونظرت في عينيّ الرجل مستطلعاً: "خير إنشاء الله"، وشعرت أنّ لديه شيئاً مهمّاً يريد أن يقوله، أعطيته ماء فشرب، وجلس ليخبرني أنّ صهري قد أصابه شبه فالج، ظهر ذلك اليوم، وقرّرت أختي نقله إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، رافضةً الانتظار، فأرسلت إيلين مع جبران، وطلبت أن أوافيها إلى هناك، وأفادني جبران أنّهما تركا الخربة قبل ساعة. فأبقيته عندنا تلك الليلة، وفي الصباح نزلت إلى بيروت، إلى مستشفى الجامعة الذي صرت أعرفه مثل بيتنا، فوجدت الصهر في شبه غيبوبة، وشرحت لي أدال تفاصيل الحادث، فقد كانا مدعوّين إلى الغداء، وعند تقديم الفاكهة، غصّ الصهر وتقطّع تنفسه، وتطوّرت الحالة ممّا دعى لاستدعاء الطبيب، وأصرّت أختي على نقله إلى مستشفى الجامعة الأميركية.

صرنا نتناوب، أختي وأنا، السهر على "الياس"، واستمرّت الحال إلى نهاية الأسبوع، دون تحسّن، وكنت أشعر أنّه يتعذّب كمن يحاول التغلّب على قوّة أكبر من قدرته، ثمّ استدعى الطبيب المعالج شقيقتي إلى مكتبه وأبلغها أنّه عمل ما في وسعه، هو وزملاؤه، وعليها أن تتفهّم وتكون على دراية بالوضع، إذ أنّ الرجل أمامه بضع ساعات حاسمة من ذلك الليل وعليها أن تتحضّر لكافّة الاحتمالات. عادت وأخبرتني، وأخذنا نتداول في التدابير الأوّلية في حال الوفاة. وبقينا إلى ساعة متأخّرة من الليل. وافترقنا لنعود في الصباح الباكر جدّاً، لنجده قد أفاق من غيبوبته، وطلب طعاماً، وأكل، ولكنّه لم يكن يقوَ على الكلام.

لقد تجاوز صهري ذلك (القطوع) الخطر، وعاش بعدها فترة، ليس بكامل صحّته، إنّما بكامل قواه العقلية، وقد كان زواجه من أختي، فترة انسجام وتفاهم

بينهما، علماً أنّ صهري ليس لديه أولاد، وكانت زوجته الأولى قد توفّيت في سنّ متقدّمة. ولم تفاتحه أختي يوماً في موضوع الإرث، في حين أنّ بعض المحيطين كانوا يحثّونها لتأمين هذه الناحية، وكان جوابها الدائم لهم، إنّ الأمر يعود إليه وحده، وأنّها لم تضع شروطاً قبل الزواج ولا تريدها بعده. لكنّه بعد الحادث، ورغم عدم قدرته على الكلام، أخذ يومئ لها بيديه لتأتي بالموظّف المسؤول في الدائرة العقارية في زحلة إلى بيته، وأصرّ على ذلك، لإنجاز معاملات نقل الملكية إلى زوجته، وكان يقرأ المحاضر كلّها ويعطي الموافقة أو يشير بالتعديل، بالإشارة من يديه وببعض الكلام. وكأنّ استفاقته كانت لإتمام هذا الأمر.

15. كذب الدكتور

كانت برت تتحامل على نفسها كثيراً في هذه الأحداث المتلاحقة، بما فيها مرض روبير، وكانت تشعر ببعض الألم في الظهر فلا تعطيه أهمّية، وتأخذ بعض المسكّنات. ثمّ تطوّر الأمر وأصبح يحتاج إلى معالجة جذرية، وبعد محاولات عديدة ومعالجات فاشلة، توصّلنا إلى الدكتور فؤاد حدّاد صاحب مستشفى الشرق، في حينه، والطبيب المختصّ بأمراض العظام في الجامعة الأميركية، وفي المعاينة الأولى أفادنا بوجود ما يسمّونه "الديسك"، ولكن من يسلّم بإجراء عملية جراحية بسهولة؟ وبعد مشاورات لم يكن من ذلك بدّ. وعدنا إليه في المرّة الثانية، وكان عرف أنّ برت أجرت عملية استئصال الزائدة الدودية على يد والده الدكتور سامي حدّاد، وهذه المرّة كان صريحاً وواضحاً للغاية، وبعد فحص دقيق بالأشعّة، ودرس الملفّ، استدعانا وقال لنا:

– "إذا كنتم تريدون معالجة بالأدوية والحبوب، فليس عندي. أنا لديّ جراحة، والذي يقول لكم غير ذلك فهو يكذب عليكم، ولأنّ العلاقة بيننا صارت صداقة، أنا أكفل أنّها في ظرف ثمانية أيام سترجع إلى بيتها مثلها مثل أيّ إنسان عادي، دون ألم أو خطر، طبعاً مع تطبيق التوصيات في أوّل الأمر". وكنّا قد وصلنا إلى مرحلة

التسليم الأعمى.

يقع مستشفى الشرق في نقطة غير بعيدة عن مستشفى الجامعة الأميركية، في شارع "كليمونصو"، وتصحّ تسميته المستشفى القروي بالنسبة لمستشفى الجامعة، فهو يشغل طابقاً في مبنى قديم، ويشمل العيادة، والأشعّة، والإدارة، والمطابخ، وطابقاً علوياً للأسرّة أشبه بغرف بيت كبير، وفيه هاتف واحد موضوع على منصّة في الدار.

يوم العملية بقيت مع برت لآخر السهرة، وفي اليوم التالي بقيت بجانبها حتّى موعد "البوسطة" حوالي الظهر لأعود إلى البيت في مشغرة. وكانت إيلين وكميل وروبير في عهدة أُختي أدال. نمت ليلتي في البيت، وانتظرت بلهفة الساعة الثامنة صباحاً لأتّصل بالهاتف وأسأل عن برت، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما سمعت صوت برت يجيبني، ورنّة الفرح ترافق صوتها، مع علمي أنّ الهاتف ليس قريباً منها، وقالت:

- "يا رشيد، نسيت أيّة رِجْل كانت تؤلمني، وأنا أذهب إلى الحمّام وحدي".

تقول هذا الكلام وهي نفسها غير مصدّقة، فكيف أنا؟.

وكذب علينا الدكتور حدّاد إذ قال ثمانية أيّام، فقد تركت برت المستشفى في اليوم السابع.

16. في خربة قنفار

بعد تلك الظروف الصعبة والمربكة، وكان صهري قد توفّي قبل سنة تقريباً من تلك الأحداث، رأيت من الحكمة أن ننتقل جميعاً إلى بيت أُختي في خربة قنفار. وانتقلنا في بداية السنة الدراسية في خريف 1965، وأدخلنا إيلين وكميل مدرسة راهبات عبرين، هناك.

كان الدكتور حدّاد قد أوصى برت بضرورة المشي، وتجنّب ركوب السيارة قدر الإمكان، وبعد أسبوع من انتقالنا إلى خربة قنفار، بدأنا رياضة المشي، ممّا أدّى إلى

تقدّم ملموس عند برت، وزوال تلك الحالة الصعبة التي رافقتها سنوات عدّة.

في مدرسة راهبات عبرين، كانت خالة الأولاد كليمانص "الأُخت ماري دولاكروا" في تلك الرهبنة، وهذا ما أراح إيلين وكميل وصارا يعرفان الرئيسة أيضاً، ولكنّ هذا لم يمنع تسلّط ولد شرّير على كميل في بداية السنة الدراسية، دون أن يذكر كميل ذلك أمامنا أو أمام عمّته. إلى أن طفح الكيل بعد مدّة، وقرّر التخلّي عن الخوف، وقد صار يعرف الأولاد ونشأت مع بعضهم صداقة، وكان أن جاءه ذلك الولد ليبدأ ما تعوّده من إزعاجات وشتائم وأحياناً ضرب، فما كان من كميل إلاّ أن هجم عليه وألقاه أرضاً وانهال عليه ضرباً وركلاً. والغريب بعد هذه الواقعة، أنّ ذلك الولد انضمّ إلى قائمة الأصدقاء. هذه الحادثة سمعتها من ابن فؤاد كرم بعد سنين من حدوثها. إذ كان وجودي معهم يقتصر على نهاية الأُسبوع فقط، بينما أمضي بقيّة الأيّام في مشغرة وأنام في بيت أختي أنيسة، تبعاً لظروف العمل.

*

بعد أن اطمأنّت أختي أدال إلى أنّ برت أصبحت قادرة على تحمّل مسؤولياتها، قرّرت أن تقوم برحلة إلى الولايات المتّحدة الأميركية، لزيارة أخواتي اللواتي تركن لبنان قبل ولادتها، فضلاً عن العديد من الأقارب والأصدقاء. أمّا بالنسبة لنا، فقد تقرّر إكمال السنة في الخربة، فالأولاد في المدرسة، ولم يكن بالإمكان الانتقال في هذه الظروف. وغادرت الشقيقة قبل عيد الميلاد على أن تستمرّ الرحلة ستة أشهر.

وفي أحد أيّام شباط من شتاء عام 1966 القاسي، استفقنا، والثلوج تغمر كلّ شيء، وما من حركة تسمع أو ترى، أوقدنا النار، وفتحنا الشبابيك الخشبية على مناظر جديدة علينا، نسبة لما تعوّدناه في مشغرة. فمدخل البيت وما حوله، يستلزم ورشة عمل لجرف الثلج المتراكم. وما إن أشرقت الشمس وأصبح الجوّ دافئاً، حتّى صار الناس مثل خليّة النحل، كلٌّ أمام بيته أو على سطحه ينادي جاره، ويتحدّثون

عن كثافة الثلج، لكنّ تلك اللحظات الجميلة لم تستمرّ، ففي خضمّ تلك العملية وحوالي الظهر إذا بساعي البريد يشقّ طريقه إلينا ويسلّمني برقية مرسلة من بيروت، تحمل لنا نعي العديل والصديق الطيّب نسيب ديب، زوج لور، عن ثمانية وأربعين عاماً وهو ما زال في عزّ شبابه وقوّته، ونصّ البرقية فيه أسلوب عمّي والد برت، قرأتها بسرعة، ورافقت الموظّف إلى مكتب البريد، ومن هناك أرسلت برقية جوابية مقدّماً فيها التعزية، وموضحاً حال الطقس الذي يحول دون نزولنا إليهم.

بعد ثلاثة أيّام فتحت الطريق، وأصبح بإمكاننا النزول إلى بيروت، وهناك علمنا أنّ الوفاة حصلت من جرّاء ذبحة صدرية لم تمهل العديل سوى فترة قصيرة تعذّر فيها وصوله إلى المستشفى. كان لقاء برت ولور مؤثّراً، إذ كانت الزوجة المفجوعة تكاد تسقط من شدّة الحزن والوهلة، وفمها مغلق لا تستطيع الكلام. وأُفسح لبرت مكان بجانب لور، أمّا أنا فقد أكثرت من الوقوف في البلكون لأتخلّص من الدخان العابق في المكان. واستمرّت الحال إلى المساء حيث غادر معظم المعزّين، وتمكّنّا من اجتماع عائلي حميم، استطعت فيه أن أغيّر مجرى الحديث لأُوجد فيه نسمة حياة تخفّف عنهم وطأة الحدث.

الجدير ذكره أنّ الروابط التي كانت تجمع عائلة عمّي الكبيرة، متميّزة بالتفاني والمحبّة الصادقة، والتي كان مثلها الأعلى امرأة عمّي، من هنا كان كلّ واحد يشعر أنّه فرد من مجموعة، يصيبه ما يصيب أيّ واحد منها. وحين عادت أختي أدال من أميركا في أوائل الربيع، ويشملها ما ذكرت، من المحبّة والصداقة، تأثرت جدّاً لوفاة العديل نسيب، وما إن استراحت من وعثاء السفر واستقبال الناس، حتّى حزمت أمرها على البقاء لفترة مع لور للتخفيف عنها، وفعلاً كان لها يد في ذلك، وبشكل مميّز.

17. (دقّ رأسك بالحيط ...)

في بداية الصيف ونهاية السنة المدرسية، استعادت برت صحّتها بشكل طبيعي

ولم يعد من موجب لبقائنا في بيت أختي، وكنت أكاد أتقطّع من التنقّل، حيث العمل في مشغرة والسكن في خربة قنفار، فقرّرنا العودة إلى مشغرة وابتدأت في تدبير بيت يكون أنسب لنا وأحدث من الذي كنّا فيه، رغم حسنات ذاك وقربه من المدرسة والشغل والسوق. ومشغرة صغيرة، وعدد البيوت المتاحة للاستئجار قليل، ومع ذلك وفّقنا في بيت أرضي مستقلّ مكوّن من ثلاث غرف نوم وتوابعها، ومنتفعات وضعها مقبول. وابتدأت في إعداده وتصنيع ما يلزمنا من مفروشات تلائم المكان، وأصبح جاهزاً خلال أيّام قليلة، وأصرّت أختي أن نمضي الصيف معها ونشاركها موسم الفواكه الغنيّ في البستان حول بيتها، وفي بستان آخر أكبر على نبع "الخزيزات". لنعود إلى مشغرة في أواسط أيلول لتسجيل إيلين وكميل في مدرسة الراهبات، وقد كانا مبرّزين في نهاية السنة المدرسية، في خربة قنفار، بشكل لافت للنظر، وكان كميل قد احتفل بـ "أوّل مناولة" في تلك السنة، وإيلين وحدها من بين كلّ التلميذات نالت جائزة تقديرية، وهي عبارة عن كتاب، لتفوّقها في اللغة الفرنسية. لكنّ (حكي القرايا مش متل حكي السرايا)، فأثناء تسجيل الأولاد في مدرسة الراهبات في مشغرة، كان السؤال الأوّل من الرئيسة:

– (وين كانوا إيلين وكميل السنة الماضية؟) وشرحت لها واقع الحال وسبب انتقالنا إلى خربة قنفار لحاجتنا إلى مساعدة أختي نظراً لحالة برت الصحّية في ذلك الوقت، وأنّ إيلين وكميل كانا في مدرسة الراهبات هناك؛ على اعتبار أنّ هذه المعلومات لصالحنا، وطلبت أن ترى علامات الأولاد المدرسية فلم أتردّد في إبرازها ليقيني أنّها جيّدة، وكم أدهشني قولها إنّ إيلين وكميل يجب أن يعيدا السنة الدراسية في مدرستها، حتّى يمكن قبولهما، وإلاّ: (دق راسك بالحيط اللي بيعجبك) !! وحجّتها في ذلك أنّ المستوى التعليمي لراهبات عبرين، "العائلة المارونية المقدّسة"، متدنٍّ عن مستوى راهبات القلبين الأقدسين في القرى. وأظهرت موافقتي ورضاي، لأنّي أعرف النتائج في حال إشعارها بعكس ذلك، أو مناقشتها في رأيها. وكانت السنة الدراسية

هيّنة على إيلين وكذلك بالنسبة لكميل، وتابعا في المدرسة نفسها حتّى نالا (البريفيه).

في سنة 1967 أصبح بمقدور إيلين وكميل – وهما في عمر عشر وتسع سنوات – النزول أيّام الصحو والعطل إلى محلّ الشغل القريب من البيت، وتبيّن من اليوم الأوّل الفرق في التوجّهات، حيث استلمت إيلين المكنسة، و(غطس) كميل في قطع الخشب الصغيرة المتواجدة دائماً في مؤخّرة بنك النجّار، وتوقّعت أن يطلب شاكوشاً ومسامير فلم يفعل، بل أخذ في تمييز قطع الخشب وفرزها إلى أصناف حسب شكلها وحجمها، مسطّحة ومكعّبة ومستطيلة، كلّ صنف على حدة، وأبدى اهتماماً خاصّاً في قطع (المعاكس)، وأخذ يصنّفها قياسات متقاربة. وفي كلّ مرّة يحين وقت الرجوع إلى البيت في المساء، وكلاهما لم يقنع بما عمل، فأقول لهما عسى أن يكونا في اليوم التالي أكثر رضى.

18. (دين البوظة والخوري ومدرسته..)

كنت ذكرت أنّ دخول إيلين المدرسة لأوّل مرّة كان سهلاً، وكأنّها تلميذة قديمة ولم تشعر بأيّ تغيير، وكميل كذلك بعد أخته بسنة واحدة، أمّا روبير فقد أدخلناه المدرسة بعد عودتنا من خربة قنفار إلى مشغرة، ومع بدء السنة الدراسية. وحصل في أوّل يوم لصفّ الحضانة شبه تظاهرة في دار الكنيسة، حيث ينتظم التلاميذ صفوفاً، كلّ صفّ ترافقه معلّمته أو إحدى الراهبات، وكلّ أهالي أطفال صفّ الحضانة يحضرون معهم، ونحن مثلهم، برت وأنا، ووقف روبير في أوّل الصفّ ليس أمامه أحد، ولا يلتفت إلى الخلف ليرى ما يجري، في وقفة عسكرية سليمة في وضع الراحة، فاستبشرنا خيراً وقلت لبرت:

– "لن يشذّ عن القاعدة، مثل إيلين وكميل"، ودخل مع التلاميذ صفّ الحضانة الأولى، وشيئاً فشيئاً بدأ الأطفال بالبكاء، بأصوات تصمّ الآذان، واختلطت أصوات الأهالي بأصواتهم. أمّا روبير فقد تجالد على نفسه، ولم يبكِ، فقلت لبرت:

- "إنّه ينتظر ذهابنا ليأخذ قسطه"، وانسحبنا في غفلة منه.

انتهى اليوم المدرسي عند الظهر، واجتمعنا حول الطعام، وروبير عابس ومنزعج طوال الوقت، وكنت أقرأ أفكاره، كان يعتبرها مؤامرة عليه لنأخذه إلى المدرسة ونتركه لممارسة البكاء طوال الوقت، وهذا شيء لا يطاق، وقرّر عدم الذهاب ثانية.

في صباح اليوم التالي كان لديّ بعض الأشغال الضرورية فغادرت البيت باكراً، وروت لي برت عند عودتي كم كان ذلك اليوم صعباً إزاء رفض روبير مرافقة إيلين وكميل إلى المدرسة، فلم ينسَ طعم اليوم الأوّل إلاّ بعد جهود كبيرة، ووعود سخية كان يعرف أنّه سيحصل عليها حسب الاتّفاق إذا نفّذ المطلوب بدقّة. واستمرّ على الوتيرة نفسها من التمتّع طيلة ذلك الأسبوع، وتأتي العطلة الأسبوعية وبعدها يوم الاثنين حيث نفّذ قراراً دون أن يعلن عنه سابقاً، وهو رفض المتابعة مهما كان الثمن، وبقي ذلك اليوم في البيت، وكانت برت خلال الأسبوع السابق قد استنفذت كلّ وسائل الترغيب والترهيب. وما أبداه روبير من طرائف لا يجوز المرور به دون ذكره، قال مرّة لأخته:

- (يا إيلين، دق الجرس، ملّقيني أحسن ما إبكي)، وفي يوم آخر أخذته إلى المدرسة وبقيت معه لحين الدخول إلى الصفّ، ووقفت أمام النافذة لأشجّعه، فقال لي من الداخل:

- (يا بابا، خلّيك هون، حتّى إذا بكيت اضربني!)، وبعد مرور ساعة في الصف سأل المعلّمة بصوت واضح ولفظ سليم:

- (مادموزيل، بتسمحيلي روح شوف الماما هالقد؟) وأشار إلى مسافة من إصبعه بقدر حبّة الفسدق، فانفجرت المعلّمة بالضحك، وراحت تخبر رفيقاتها المعلّمات والراهبات عن هذا الطلب الذي لم يسبقه إليه أحد، فتكوّمن حوله يسألنه ويحادثنه، وأصبحت هذه المبادرات حديث المعلّمات والأقارب والجيران، وكم كانت برت ترويها بأسلوبها الطريف ويضحك الجميع.

ويأتي الأسبوع الثالث، وقد أعياني التفكير لإيجاد الوسيلة الإيجابية لإنهاء هذا الإشكال، ويوم الاثنين عدت إلى البيت في توقيت الذهاب إلى المدرسة في الصباح، وحملته، وأخذت في تلقينه كلّ ما أعرفه عن "فضائل العلم"، وأقنعه أن لا مناص من هذا الأمر، واقتربنا من المدرسة، وصرت أعدّد محاسن محلّ البوظة، ومدرسة الخوري للصبيان، والكنيسة ودارها، وكنّا قد وصلنا تحت جرس الكنيسة، وتوقّفت، فبادرني بالردّ:

- (دين البوظة، والخوري ومدرسته، وساحة الكنيسة والكنيسة والراهبات)، فوضعته من يدي وقلت له:

- (ارجاع ع البيت)، وكرج مثل زغلول الحمام، وتبعته وأنا أكاد أتعثّر من الضحك، وقلت لبرت:

- (انسي الموضوع كلّياً، ليوم أو يومين)، ورويت لها ما حدث فأضافتها إلى مسلسل الحكاية، واتّفقنا أن نشعره بعدم الرضى، دون تكرار الكلام. وبعد يومين اكتشف وحده أنّ وجوده في البيت طوال الوقت شيء مزعج، وكان يراقب إيلين وكميل وهما يرتديان ثياب المدرسة ويغادران، ومعهما حقائب الكتب والأقلام والدفاتر وهو محروم من كلّ ذلك. وبدت الحيرة عليه، وهو لا يدري كيفية الخلاص من ذلك المأزق، فيجلس على ركبتي في السهرة ويسألني بعينيه، ودخلت في الموضوع بسؤال لم يكن يتوقّعه:

- (انت شو بدّك حتّى تروح ع المدرسة معهم ومثلهم؟) قال:

- (بدّي جزمة)

- (حاضر). وأقفلنا الحديث. وباكراً أحضرت له جزمة وحقيبة صغيرة للكتب، ولبس العدّة كاملة مع (المريول)، ورافقهم، ووقفنا برت وأنا لنراقب أجمل منظر في حياتنا.

19. مواهب الطفولة

تكرّرت زيارات إيلين وكميل إلى المحلّ بعد المدرسة، وكنت أترك ما يعمل به كميل على حاله لعلمي أنّه سيعود إليه في اليوم التالي، فتنبسط أسارير وجهه عندما يجد الأخشاب كما تركها، وطلب مرّة أن يأخذها إلى البيت، فقلت له:

- "الأفضل أن تتعامل معها هنا في المحلّ، فتضيف إليها وتلغي منها حسب ذوقك". فقبل على الفور، وأعطيته أكياساً من الورق فوضع كلّ صنف لوحده، وصرف حوالي الساعة في تأمّلها ودرسها قطعة قطعة دون أن يقوم بأيّ شيء آخر. وكان يلذّ له أن نعود سويّة إلى البيت وعلى ثيابنا آثار وغبار المعمل. ولمّا كانت الواجبات المدرسية قليلة صار يتابع النزول إلى المحلّ كلّ يوم، وينتحي جانباً ويعمل بشكل شبه مستقلّ تماماً، وابتدأت مشاريعه في الأخشاب التي تشبه الحجارة، يقيم منها أشكال بيوت متعدّدة، ويتركها قائمة للمقارنة بينها، وكنت أتعجّب من تركيبه الجدران المستقيمة والزوايا القائمة كمن صرف سنوات في دراسة هذا الفن. واستمرّ هكذا إلى أن ملّ منها، ففتح الكيس الذي يحتوي قطع الخشب المعاكس وأخذ واحدة وابتدأ بالرسم، كلّ ذلك دون كلام أو سؤال. ووجد طاولة وقلماً وما يجلس عليه، ليعمل ويستمرّ الحال ساعات دون تدخّل أو كلام من كلينا، وكان إلى جانب عمله يراقب بدقّة وتفهّم تسلسل مراحل العمل الذي أقوم به، فكان يطيب لي أن أشرح له وأستشيره بطريقة غير مباشرة، ويتولّد عنده تصوّر مبهم عن التفاصيل التي تأتي فيما بعد، وكان يصبر دون أن يسأل رغبة في الاعتماد على جهده فقط، ليعرف ما إذا كان تصوّره مطابقاً لما سيحدث، وإن أعياه ذلك، يسألني بإشارة خفيفة إلى النقطة الحسّاسة التي تشغل باله. وكنت أرى التماعة عينيه الجميلتين وفرحه الذي لا يوصف، عندما تتطابق الفكرة التي يتخيّلها مع التنفيذ، ويعود إلى الرسم إرضاءً لفكره المنفتح بلا حدود.

*

لا يمكنني، فيما أرويه عن إيلين وكميل وروبير، أن أعطيه التسلسل الزمني المنتظم، ولكنّه ماثل أمام عيني وكأنّه حدث الآن، وكنت ألاحظ كيف تكون توجّهات الطفولة مؤشّراً فعلياً لتوجّهات الحياة فيما بعد، وعند كلّ منهم. وأذكر مرّة أن كميل، وكان صغيراً وفي بداية نزوله إلى المحلّ بمفرده، وقعت بين يديه إحدى فضلات المعاكس بقياس 15×20 سم، فانتحى جانباً إلى أن حان وقت العودة إلى البيت، وكنت أنفض الغبار عن ثيابي وأقول له:

– (بكرا بتكفّيها)، فأراني ما رسم، فمن حيث يجلس والباب مفتوح على مصراعيه، تقع العين على منظر في الجبل المقابل لمشغرة، ويبدو (مزار) يسمّونه "النبي"، سطحه قرميد أحمر وحوله أشجار سنديان عتيق، وكان الرسم يمثّل ذلك المنظر في أدقّ التفاصيل وبالقلم الرصاص، وأخذ يشرح لي أنّ المنظر من الباب المفتوح يبدو وكأنّك تراه من عين "الكاميرا".

أمّا إيلين، فكانت لعبتها المفضّلة في طفولتها "البيت" الذي يصنعه كميل، وتتولّى هي ترتيب أغراضه وتلميعها، بالإضافة إلى تمثيل ربّة البيت، والمعلّمة أيضاً، كما هي الحال تماماً الآن. في حين أنّ لعبة روبير المفضّلة كانت أعواد الثقاب، يحتفظ بعدد كبير منها، ويختفي ساعات في صفّها فرقاً منتظمة في مواجهة حربية، ويدير هو المعركة بيديه، هؤلاء هجموا، أولئك تراجعوا، واختبأ البعض، وتنتهي المعركة دون إصابات، فيجمعهم في علبهم إلى اليوم التالي.

*

أذكر مرّة، وكنّا في بيت أختي أدال أثناء غيابها في أميركا، وكنت أيّام الآحاد أقوم بسقاية الأرض من خزّان المياه المتواجد قرب المطبخ، عبر القناة التي توزّع المياه في البستان، فلاحظت محاولة غير ناجحة لإحراق الحشائش اليابسة على حافّة القناة، وآثارها باقية مع عدد من أعواد الكبريت المتناثرة، فدخلت المطبخ وسألت

كميل:

- (شو جرّبت تعمل على حافّة القناية برّا؟) فأجاب على الفور:

- (مش أني)، وكنت قد عوّدته وعوّدني على الكلام والمناقشة بعقل ومنطق، فلم أُجبْه، بل نظرت في عينيه نظرة طويلة فهم منها عدم رضاي عن الجواب، وتركته برهة ليعمل عقله في الأمر، وعدت إليه بعد قليل وأجلسته على ركبتي وقلت له:

- (ليك ياكميل، انت بعدك صغير، وكل شي بتعمله بيكون صغير متلك، لا بيضر كتير ولا بينفع كتير، مفهوم؟)، قال:

- (مفهوم)

- (بالحالة هي بقدر سامحك إذا عملت غلطة، متل ما بقلّك عافاك إذا عملت شي منيح)، وهنا حاول أن يعرف ماذا بعد، وأكملت:

- (بس بحالة وحدة ما بقدر سامحك أبداً) وسألني بعينيه:

- (شو؟)، قلت:

- (إذا كذبت انت مش مسامَح، أنا كنت صغير متلك وهلّق صرت أعرف الفرق، وبيني وبينك وعد إذا بتقول بصراحة وببساطة عن أي عمل عملته وبتعرف إنّه غلط، انت مسامح من هلّق، وجرّب) وتركته ونسينا الموضوع. وحصلت التجربة فيما بعد ونجحت الفكرة من ورائها، فكان صادقاً مع نفسه ومع الناس.

20. دفعة على الحساب

العطلة المدرسية تزامنت مع حرب 5 حزيران، أو حرب الأيّام الستّة، أو "النكسة" كما حلا لبعضهم تبنّي التسمية التي أطلقها جمال عبد الناصر. فساءت الأحوال الاقتصادية بسبب الحرب. وكانت أختي أدال، بعد عودتها من أميركا، قد شغلت وظيفة مسؤولة في جمعية الشابات المسيحيات في مبناها الجديد في بيروت. وتبيّن أنّ لديهم حاجة إلى مسؤول عن الصيانة، بدوام كامل. وبعد عدّة مقابلات لي

مع المديرة السيّدة "عودة"، أخذت الوظيفة براتب ثلاثمائة ليرة في الشهر، ولم أكن قادراً على تحصيل هذا المبلغ من عملي. كانت تلك المؤسّسة الكبيرة تشغل المبنى كلّه والمؤلّف من عشر طبقات، وطبقتين سفليّتين؛ وتستوعب نشاطات متعدّدة مثل سكن الطالبات والبنات العاملات، والمدرسة المهنية الكبيرة، ومنها صفّ للرسم يديره الفنّان حيدر حموي، ويشغل جناحاً كبيراً فضلاً عن صالة كبيرة لمعدّات الرسم والألوان الزيتية والمائية. وصرت بحكم عملي أعرف الإداريين ويعرفونني.

وتأتي عطلة الأعياد الموسمية، الميلاد ورأس السنة 1967 - 1968، فرصة مؤاتية لمجيء برت وأولادنا إلى بيروت لتمضية العطلة، ويكون اجتماع عائلي مع بيت عمّي. وكنت بعدما توطّدت معرفتي بالأستاذ "حموي"، قد أخبرته عن نشاط كميل وموهبته في الرسم، وطلب أن يلتقيه؛ فاغتنمت الفرصة، وأخذت كميل لتمضية يوم معي، ومشاهدة المرسم الكبير في المدرسة، وحسب تقديري أنّ الأستاذ يعرف ما يعني أن يتحدّث والد عن ابنه في موهبته، وبالتالي يريد أن يتأكّد إذا كان محقّاً، وبالفعل، فقد أجرى اختباراً لكميل، بأن رسم على اللوح باخرة وطلب منه أن يرسم مثلها، وكانت النتيجة جيّدة كما توقّعت، وأعجب الأستاذ حموي برسم كميل، ممّا أكّد لي أنّ موهبته حقيقية، وتحتاج إلى رعاية جادّة.

بقيت برت والأولاد كلّ فرصة الأعياد عند بيت عمّي، ويوم رأس السنة بالذات كنت معهم ورويت لعمّي ما حصل بين كميل والأستاذ حيدر حموي، وكيف أنّ كميل حسب نفسه متجاوزاً تلك المرحلة، علماً أنّ مدرسة الراهبات في مشغرة تولي هذه الناحية آخر اهتماماتها، ولم يكن من علامة ولو ثانوية لمادّة الرسم. أمّا عمّي، ومهنته التعليم طيلة حياته، فقد أثار فضوله ما رويته، وأراد أن تجري التجربة أمام عينيه، وكان عندهم لوحة تحمل رسماً زيتياً يمثّل زورقاً على شاطئ بحيرة، وقربه نسوة يغسلن الثياب، فطلب عمّي من كميل أن ينقل ذلك الرسم على ورقة بيضاء أعطاه إيّاها. وباشر كميل العمل بالهدوء نفسه وبثقة وكأنّه أستاذ يرسم ليشرح لتلامذته، وليس

كطفل يؤدّي امتحاناً أمام أساتذته، وبسهولة وخلال بضع دقائق أصبح الرسم جاهزاً، فسلّمه إلى جدّه كمن يقول: (انت فيك تعمل هيك؟) أمّا عمّي، وصفة الأستاذ ملازمة له، فقد أخذ الرسم وشرع ينقّل بصره بينه وبين اللوحة المعلّقة ذهاباً وإياباً، في رحلة العمر التي تفصل بينهما، ثم هتف:

- "يا كميل، انت تستأهل جائزة كبيرة يؤسفني أنّي لا أملكها، ولكنّي أعطيك الآن ما معي دفعة على الحساب".

21. إلى مشغرة المعاد

تابعت العمل مع جمعية الشابات المسيحيات [Y.W.C.A.]، وتوسّعت الأعمال بشكل صار يلزمني معه معمل نجارة متكامل، وكبرت قيمة فواتير أجور العمل والنقليات. ولاحظت تبرّم الإدارة من هذه المدفوعات، فعملت جردة بالأشغال التي أنجزتها وكلفتها الإجمالية، وفي المقابل، الكلفة التي طلبها المقاولون الذين سألوهم تنفيذها، وتبيّن أنّ الفرق ثلاثون في المئة لصالح المؤسّسة، وطلبت الاجتماع إلى المديرة، وأخذت معي التفاصيل المكتوبة وشرحت لها ما أمكن عن المطلوب، وإمكانيات التنفيذ المتوفّرة إذا اعتمدنا التوفير في أجور النقل والوقت، وعرضت عليها إحضار المكائن الموجودة عندي في مشغرة، دون مقابل سوى أجرة المكائن عن شغل المؤسّسة. فكان ردّها أنّها ليست هي من تقرّر في هكذا أمر، وليس هذا من نشاطات الجمعية، وهم يفضّلون شراء لوازمهم حسب الحاجة.

بالنسبة لي، كأنّني لم أغب عن مشغرة، إذ أكون هناك كلّ أحد، وصرت أتلقّى طلبات عمل، فيما بدا أنّ الحالة تحسّنت، فقرّرت العودة إلى عملي وطلبت إعفائي من وظيفتي.

عدت إلى مشغرة وكانت قد انقضت سنة في العمل مع جمعية الشابات المسيحيات اكتسبت خلالها قدراً كبيراً من الاختبارات، من التعامل مع المعدّات

الكهربائية الحديثة، في المباني الكبيرة، وأنظمة التدفئة المركزية والمياه، مضافاً إليها عدداً كبيراً من المعارف والصداقات الجديدة. وكم كنت موفّقاً في المكتبة الغنية التي مكّنتني من قراءة عدد كبير من الكتب، وقبل أن أُغادر، فوجئت يوماً بأكوام من الكتب أمامي، طلب إليّ أن أجد لها مكاناً لإيوائها في المستودعات في الطابق الأسفل، وكانت مناسبة لأطّلع على عناوينها وأسماء المؤلّفين، ثمّ ترتيبها كما في المكتبات، وكان أن تواجد عندي صندوقان كبيران من الخشب أستعين بهما لنقل الأغراض، فأفردت واحداً يسهل حمله وبعد أن استأذنت المسؤول، وضعت فيه كتباً ثمينة ونادرة، وأخذته معي عند مغادرتي إلى مشغرة وأضفته إلى مكتبتي، وكم استمتعت في مطالعة هذه الكتب فيما بعد.

في تلك الأثناء أُنشئت مصلحة الليطاني، وتمّ تلزيم المشروع لشركة يوغوسلافية أخذت اليد العاملة من المنطقة بأعداد كبيرة، ممّا أوجد حالة ملحوظة من البحبوحة، وازدهرت الأعمال على أنواعها، ورافق مشروع الليطاني بناء المدرسة المهنية العالية في مشغرة، وبناء مركز للبريد والهاتف في وسط البلدة، وتمّ توسيع الشارع العام ممّا أعطى للبلدة مظهر المدينة مع تزايد العمران وعدد السكّان.

22. مشوار العلم والفن

في هذه الأجواء ترعرع أولادنا، إيلين وكميل وروبير في مدرسة الراهبات التي بقيت محافظة على أولويتها بين بقية المدارس، ورافقتهم قصص وعلاقات تلك المرحلة وكان لها التأثير الطبيعي في صداقاتهم التي رافقت مراحل العمر، أولاد أصدقائي أصدقاء أولادي، والعكس صحيح. وانتهت مرحلة، ونالت إيلين شهادة (البريفيه)، وتبعها كميل بعد سنة واحدة، وكان روبير مازال في المدرسة نفسها. ونشأت عندي مشكلة إيجاد المدرسة الثانوية لإيلين، خارج مشغرة، ومن ضمنها مشكلة الإقامة والسكن، ولم يكن ذلك بالشيء السهل بل كان يشغلني قبل حلوله، وابتدأنا البحث

بجدّية.

كانت ثانوية فرن الشبّاك قد بلغت ذروة الشهرة، وكانت مديرتها السيّدة اسبيرانس رزق زوجة مفيد أبو مراد. قصدتها وبحثت معها الموضوع فأفهمتني أن مساعدتها قبل القبول ضئيلة، وأنّ على إيلين أن تحصل على علامات عالية. وجاء يوم امتحان الدخول، فنزلنا إلى بيروت وتوجّهنا إلى فرن الشبّاك لتقديم الأوراق والبحث عن غرفة، وبعد دخول إيلين إلى الامتحان، رأيت أن أتعرّف على محيط الثانوية القريب، الناس، والشوارع والمحلاّت، وخصوصاً المطاعم ومحلاّت بيع المأكولات، وحين اقترب موعد الغداء عدت إلى الثانوية وتناولت الغداء مع إيلين، وكان علي انتظار ساعة أخرى ريثما تنتهي الحصّة الثانية من الامتحان، وبعد انقضاء النهار عدت وإيلين إلى بيت عمّي في رأس بيروت، وأنا على يقين من صعوبة تأمين السكن والمعيشة والمواصلات، وصرت أكثر ميلاً إلى صرف النظر عن دراسة إيلين في بيروت، وحين رويت لعمّي ما رأيت وشاهدت، وما فكّرت فيه، وافقني مائة بالمائة. وكان الوقت قد صار ضيّقاً والخيارات قليلة، ولم يبقَ أمامنا أنسب من ثانوية جب جنّين، فالأمور أكثر سهولة من بيروت، وهكذا كان.

في البداية وجدنا غرفة قريبة من الثانوية أقامت فيها إيلين، وسرعان ما تبيّن لنا أنّه من الأفضل لها أن تعود للإقامة في مشغرة، حيث أنّ الكثير من الطلاّب، في المدرسة نفسها، من مشغرة، وهم يذهبون يومياً إلى جب جنّين ويعودون.

وتجاوزت إيلين مرحلة البكالوريا بقسميها، ولكنّ طموحاتها تتجاوز هذه الحدود إلى ما هو غير محدود.

كانت المسألة مع كميل في غاية السهولة لوجود المدرسة المهنية العالية في مشغرة، فتمّ التسجيل، وبدأ الدرس في بداية السنة المدرسية 1972 – 1973، وكان نظام المدرسة داخليّ، وجميع الطلاّب مقيمون فيها، ويغادرون إلى بيوتهم في نهاية الأسبوع. وقد اختار كميل فرع البناء، وكان هذا الفرع قويّاً في تجهيزاته، وإدارة

المدرسة منضبطة، وكلّ شيء على ما يرام.

واتّفقنا كميل وأنا، وقد لاحظت ميله الشديد إلى الرسم والموسيقى، في حديث عقلاني، عن وضعنا الاجتماعي وسكننا في مشغرة، والمرحلة التي عليه اجتيازها قبل أن يصبح مستقلاً تماماً، وبحثنا كلّ الأمور برويّة، وكنت أشدّ حرصاً منه على بقاء أصابعه ويديه سليمة، إذ كنت أمنعه من استعمال المكائن الخطرة، حين كان يساعدني في المحل أيام العطل.

واجتاز كميل مرحلة مهنية مشغرة بنجاح [البكالوريا الأولى]. وتابع بعدها [البكالوريا الثانية] في ثانوية صيدا المهنية، في فرع هندسة البناء.

23. مشوار آخر لأدال

انتقلت أختي أدال من عملها في جمعيّة الشابّات المسيحيات إلى مستشفى الجامعة الأميركية، في العام 1974، وصادف أثناء عملها هناك أن التقت شخصاً اسمه مخايل طنّوس، من عائلة أبو عرّاج الكبيرة في مشغرة؛ مغترب في الولايات المتّحدة الأميركية منذ صغره، وقد أحبّ أن يعود نهائياً إلى مشغرة. وكان أن أصابته وعكة صحّية فدخل المستشفى، وهناك التقى أختي أدال وعلم أنّها من مشغرة، وسعى لأن يتعرّف عليها أكثر بقصد الزواج، ولم يكن ذلك وارد عند أدال، فهي سعيدة في حياتها وعملها، لكنّه تابع المسعى بجدّية، ونجح الوسطاء في جمع الشمل، وتمّ الإكليل في بيروت على يد الكاهن الذي كلّلني، ودون ضجّة كما أرادت هي، ولم أستطع، وعائلتي، حضور الإكليل، بسبب تساقط الثلوج، يومها، وانقطاع الطريق. وحين تيسّر النزول إلى بيروت، كانت أختي والصهر الجديد في شقّة مفروشة ملاصقة لبيت لور، في شارع السادات في رأس بيروت، وأصبحت بيوت عمّي، وابنته لور، وأختي، في دائرة صغيرة يسهل التنقّل بينها بدقائق.

كان الصهر مخايل أو "مايك" كما يدعونه، يملك بيتاً في مشغرة، ورثه عن

والده بشارة غنطوس أبو عرّاج، وهو الوحيد، من أسرته، الباقي على قيد الحياة، وكان ابن أخته، شكيب جبران الحاج، يقيم في المنزل، فطلب منه الصهر إخلاء البيت، حسب وعده السابق بأن يخلي البيت ساعة يشاء مالكه، ولكنّ هذا، وبعد زواج خاله وانتقال البيت إلى ملكيّة الزوجة، غيّر رأيه، وصار يماطل ويتذرّع بحجج عديدة، إلى أن استوجب الأمر إقامة دعوى قضائية لاسترجاع البيت. وتدخّل وسطاء الخير فتوصّلوا إلى تسوية بيع البيت وقطعة الأرض المحيطة به، لشكيب، بمبلغ سبعة آلاف ليرة، (يعني ببلاش)، على أن يدفع ثلاثة آلاف نقداً ويقسّط الباقي على سنتين.

كان لدى أختي رغبة، كزوجها مايك، في السكن في مشغرة، وقد صادف أنّ الصديق والرفيق موريس الغزال قد غادر مشغرة إلى أستراليا، نهائياً، تاركاً بيته الذي أوكل أمر استثماره إلى الرفيق والصديق ريشار غطّاس، لمصلحة الأوّل، وكنت بحكم الجيرة والصداقة، أعرف البيت وميّزاته الكثيرة من حيث الموقع والتجهيزات، بما يلائم أختي وزوجها، فسعيت حثيثاً مع الفرقاء لإتمام الأمر، وانتقلت أختي وزوجها إلى بيت موريس في مشغرة، وسرعان ما تمّ تجهيزه بفرش متكامل، وكان الصهر مرتاحاً لتنفيذ ما حلم به وخطّط له وهو في أميركا. وكنت أراه كلّ يوم إذ يمرّ أمام محلّي في الذهاب والإياب، يمشي منتصباً في أحسن قيافة، ليمضي أوقاته في السوق مع الأقارب والمعارف الكثيرين، ويعود إلى بيته ليجد غذاءً لذيذاً، ومنزلاً مرتّباً نظيفاً، وزوجة حريصة على كلّ ما من شأنه أن يجعل الحياة حلوة.

24. استقرار لم يستمرّ

كانت الحال ممتازة، وكان ذلك في العام **1975**، وبقيت مشغرة عائلة واحدة، لقرب البيوت والنفوس من بعضها البعض، حتّى أوائل العام **1976**، إذ تفاقمت الأحداث، وكثر ظهور السلاح، وحوادث إطلاق النار وتفجير السيّارات.

ورغم ذلك، احتمل صهري وأختي الوضع، على اعتبار أنّها مرحلة وتنقضي.

وذات يوم وعلى إثر عاصفة ثلجية، تبعها يوم صحو، كان أحد الشبّان الطائشين، عائداً إلى بيته صعوداً على درج يوصل إلى الطريق العام الذي يقطع مشغرة، من الشمال إلى الجنوب، إلى نصفين، وكان هناك فتى آخر من الصنف نفسه، في حاجة له على سطح بيته، فما كان من الأوّل إلاّ أن رشقه بكتل من الثلج، وكان الضارب أعلى من المضروب، حسب طبيعة الأرض، ويبدو أنّ المضروب تضايق ممّا حدث، فنزل عن السطح إلى بيته وعاد بسلاحه "الكلاشنكوف" ليضع حدّاً لذلك المزاح الثقيل، فيما توارى الضارب عن الأنظار، وبقي الآخر متحفّزاً لإطلاق النار عليه إن ظهر، وفي هذه الأثناء كان شاب آخر صغير عمره سبعة عشر ربيعاً، عائد إلى بيته وشاهد ما حصل، وحين أصبح على سويّة حامل السلاح، ظنّه هذا غريمه، وإذا بصوت رشق واحد من الرصاص، يخرق السكون.

وحين خرجنا لنعرف ما الأمر، وجدنا الشاب الصغير البريء، على الأرض يتخبّط في دمه على حافّة الطريق الشرقية.

كان هذا الحادث كافياً لأن يأخذ صهري قراره بمغادرة مشغرة والعودة إلى أميركا، خصوصاً أنّ بعض الرصاصات الطائشة خرقت زجاج شبّاك بيته الشرقي، واستقرّت في السقف، ولحسن الحظّ أنّ أحداً لم يكن في المنزل لحظة وقوع هذا الحادث الأليم.

في اليوم التالي، ابتدأت استعدادات صهري وأختي للسفر، ولم يكن هذا صعباً عليهما، كون صهري يحمل الجنسية الأميركية، واستحصلت أختي على جواز سفر، وغادرا مشغرة في 9 أيلول من عام 1976.

في تلك الفترة الصعبة، كان بيت الأمين عبد الله محسن وزوجته الأمينة هيام، يتعرّض لأبشع ممّا سبق، وموقعه مكشوف قرب (الريجي)، على طريق صيدا القديمة، لجهة "الحدث"، وهو يعود لآل نصر الله، أهل الأمينة هيام. فكان سعيي أن يأخذ الأمين عبد الله دون سواه، البيت الذي كانت تقطنه أختي، وبعد مساعٍ مع ريشار تمّ

تدبير الموضوع، وانتقل الأمين عبد الله وعائلته إلى بيت موريس، بما تيسّر من مفروشاتهم، واشتروا بعضاً من أغراض أختي التي بقيت في البيت.

25. سطل الإسمنت

خلال تلك الفترة كان عطيّة الحاج ابن أختي أنيسة قد انتقل إلى البحرين للعمل في التعهّدات مع شركة كبيرة للبناء، وجريس أخوه إلى السودان وفي المجال نفسه، وكان لدى عطيّة في الورش مئات العمّال. وحدث في إحدى هذه الورشات الكبيرة أن سقط سطل مملوء بالإسمنت، من إحدى السقالات، عند مرور عطيّة تحتها، فأصيب إصابة بالغة في رأسه، ونقل إلى مستشفى السليمانية في البحرين، وهو في حالة غيبوبة بين الحياة والموت، وابتدأ طبيب جرّاح سوري بجراحة عاجلة ودقيقة في الدماغ استغرقت عدّة ساعات، وبفضل هذا الطبيب البارع، والذي تابع معالجته بعد ذلك، أُنقذ عطيّة من موت محتّم.

استدعي جريس على جناح السرعة من السودان، وكان هو الآخر يدير ورشة كبيرة في "الهيلتون" في الخرطوم، فوصل إلى البحرين ليواجه حالة ولا أصعب، أخوه في المستشفى في حالة الخطر الشديد، ومطالب العمّال الكثيرين متلاحقة، وهم في حالة فوضى عارمة، والكلّ في انتظاره. وكان جريس مؤهّلاً للقيادة بكلّ ما تعني هذه الكلمة، هادئ الأعصاب والتفكير وعند الحاجة (بارود ونار)، فما لبث أن ضبط الأمور، وتحرّكت عجلة العمل كما يجب، وتابع إدارة ورشة السودان من البحرين، بواسطة الهاتف.

*

البيت الذي ولد فيه عطيّة وتربّى، هو بيت جدّي لأمّي "أبو أمين"، والمؤلّف من ثلاثة أقسام، الوسط وجناحين، والوسط هو البيت الذي بناه جدّي لعائلته وسكنه، والجناحان لولديه سليم وسمعان، أخوالي، اللذين هاجرا إلى الولايات المتّحدة وأمدّاه

بالمال فبنى لكلّ منهما بيتاً ملاصقاً لبيته، وكان هذا البيت الجميل يتألّف من غرفة واسعة فيها عمود حجري يحمل جسراً خشبياً ضخماً، ولها باب واحد وشبّاك صغير، وخلف الغرفة يقع بيت المؤونة، وأمامه (ليوان)، أو إيوان، له حائط مبني من الشرق فيه البوّابة الوسيعة على الارتفاع نفسه، فيدخل النور إلى البيت من قنطرة قاعدتها ستّة أمتار وارتفاعها ثلاثة، تشكّل جسراً يحمل السقف من الجهة الشرقية، أي واجهة البناء، والبناء كلّه قائم على أقبية تشكّل الطابق الأوّل وترتفع أدراج إلى الطابق الثاني الذي هو البيوت الثلاثة.

بعد وفاة جدّتي أمّ أمين عام 1934 ارتأت والدتي أن تسكن مكانها أختي أنيسة، والدة عطية، مع عائلتها، فكانت العلاقة مع هذا البيت مزدوجة، إذ أنّ حليم زوج أختي أنيسة حفيد لأحد إخوة جدّي أبو أمين، من عائلة الحاج الكبيرة، وأستطيع القول أنّ صهري حليم كان صديقي رغم فارق السنّ، الذي لم يعد مهمّاً بعدما كبرنا. واستمرّت هذه العلاقة المميّزة مع أولاده فيما بعد.

26. مشروع سفر

كان لدى عطيّة في البحرين حوالي عشرة موظّفين وعمّال من مشغرة، منهم نعمة الحجّار، خليل قرقش، طلال رضى، الياس بارود وغيرهم، وكان عطيّة العقل المدبّر لكل الأعمال الكبيرة هناك، فقد كان منذ نشأته قويّاً مقداماً، سريع الحركة والخاطر، بعيد النظر والتفكير. أمّا بالنسبة للحادث الذي حصل معه، وعلى خطورته، فلم نسمع به مباشرة، بل من أهل العمّال المتواجدين هناك من أبناء مشغرة، وقد وصلنا الخبر ملطّفاً، ولم نعِ خطورة الموقف إلاّ بعد مدّة تجاوزت السبعة أشهر، مع قدوم الصيف، ومع قدوم عطيّة إلى مشغرة. فحين ذهبت لأسلّم عليه هالني منظره، وآثار الجرح الكبير الذي بدا معه الرأس وكأنّه قطعتان ملتصقتان من الجبهة إلى الخلف، ارتبكت بادئ الأمر، ولم أدرِ كيف أكلّمه، ولا إذا كان قادراً على الكلام،

ولكنّه أفهمني بكلام بطيء أنّ الذي مضى قد مضى، وأنّه الآن في حالة تحسّن مستمرّ. تحدّثنا في مواضيع مختلفة طيلة السهرة، وكان يأخذ وقته ويجيب على أسئلتي بدقّة وروية، ممّا طمأنني إلى أنّ قواه العقلية سليمة، أمضيت السهرة وعدت إلى البيت، ولكنّي لم أستطع النوم تلك الليلة، فقد هالني حجم الحادث الذي تعرّض له عطيّة، ولم أصدّق حلول مساء اليوم التالي كي نذهب برت وأنا لتمضية السهرة معه.

خلال السهرة وكان قد أصبح عندي تصوّر لأجواء العمل في البحرين، تطرّقنا إلى موضوع إمكانية عملي هناك، بعد أن أفهمني أنّ ذلك وارد، وطلب منّي أن أحصل على جواز سفر، وأن أنتظر منه خبراً بعد عودته إلى البحرين. وانشغل بال برت وصارت تحسب ألف حساب، ولكنّها من جهة ثانية تعرف العلاقة الحميمة التي تجمعنا مع بيت أختي أنيسة كأنّنا عائلة واحدة يشترك جميع أفرادها في السرّاء والضرّاء.

أمضى عطيّة فصل الصيف في مشغرة، واستردّ عافيته في عناية أم عطيّة وطعامها الطيّب، وفي موسم العنب والتين وأصناف الفواكه النادرة التي حرص أبو عطيّة على غرسها في قطعة الأرض التي تقع خلف البيت، وفي البستان البعيد أيضاً. وكان يروق لعطيّة أن يزورني في محلّ عملي، حيث تريحه رائحة الخشب وبرودة الجو المتأتّية من موقع المحلّ، وساعد ركود أحوال العمل عندي على أن يكون لديّ الوقت الكافي للحديث، وبالتالي شعر عطيّة، وهو الخبير، أنّي من النوع الذي أدرس عملي وأخطّط له مهما كان بسيطاً.

ومع الأحداث الجارية وقتها، وبالرغم من الانفراجات القصيرة التي مرّت عام 1976، لم يكن من الصعب إقناع برت بضرورة سفري إلى البحرين، لسببين، أوّلهما ركود العمل بصورة تجعل الوضع المعيشي صعباً، وثانيهما تواجدي مع عطية وجريس، إذ أنّي أستطيع تحمّل قسم من مسؤوليتهما.

27. إلى البحرين

أصبح جواز السفر جاهزاً في أواخر تشرين الأوّل، وكان عطيّة قد عاد في أوائل الشهر إلى البحرين، على أن يحصل على تأشيرة دخول لي ولجان عزيز الغزال، وعندما استكملنا استعداداتنا، أبلغته ذلك، فأرسل مستندين رسميين بتكليف القنصل السعودي في الأردنّ بمنحنا تأشيرة الدخول إلى البحرين، كما أرسل لنا تكاليف السفر إلى الأردنّ، وثمن تذاكر الطائرة من عمّان إلى البحرين.

وانطلقنا عن طريق دمشق، إلى عمّان للحصول على التأشيرة ثمّ المتابعة إلى البحرين. وصلنا عمّان ظهراً، وهناك أخبرني جان أنّ صديقنا عزيز شاكر خليل زوّده برسالة لابنه شاكر الذي يعمل هناك، وتوجّهنا إلى الشركة التي يعمل فيها الأخير، وكان يقيم في مؤسّسة من مؤسّسات "دير المخلّص"، مركزها الرئيسي مدينة الزرقاء، تحوي ديراً ومدرسة للصبيان، وأخرى للبنات مديرتها الأخت افروسين برشان من مشغرة. بعد الغداء قمنا بجولة للتعرّف على الأماكن التي تهمّنا، كالسفارة السعودية ومكاتب شركة عالية للطيران، استعداداً لليوم التالي، ثمّ انطلقنا مع شاكر إلى مؤسّسة دير المخلّص في الزرقاء التي تقع على مسافة تقارب خمسة وعشرين كيلومتراً شمال شرق عمّان.

كان الأب نبيه نعمة رئيس تلك المؤسّسة صديقاً وزميلاً لصديقنا شاكر من أيّام الدراسة، وكان نظام دير المخلّص مطبّق في المؤسّسة، فأكلنا ونمنا كضيوف في الدير، وفي صباح اليوم التالي عدنا مع شاكر إلى عمّان ونزلنا قرب السفارة السعودية، فوجدنا جموعاً غفيرة حول المبنى، وصفّاً طويلاً من الناس أمام المدخل. وقفنا نراقب ما يجري لنعرف طريقة الدخول، ولتجنّب ما يحصل للذين يتدافعون في الصفّ، إذ أنّه بين الحين والحين، وحين يشتدّ الضغط، ينهرهم الحارس فيتفرّقون مثل القطيع، مكثنا نتفرّج ما يقرب الساعتين، والعدد مازال يتزايد، وخطر ببالي القيام

بمبادرة فتقدّمت من الحارس دون أن أقف في الصفّ وقلت له بلهجة مهذّبة:

- "(إذا بتسمح) نحن نريد مقابلة سعادة القنصل". وبدون تردّد فتح الباب وقال:

- "تفضّل" وأرشدني إلى مكتب القنصل، أومأت لجان فتبعني وتقدّمت إلى غرفة القنصل، ألقيت عليه التحيّة، ووضعت أوراق الطلب أمامه. قرأها ثم أعطاني أوراق طلبات بالإنكليزية لأملأها، وشرعت في الكتابة إلى أن وصلت إلى سؤال لم أعرف معناه، فتوقّفت واقتربت من القنصل وقلت:

- "سيّدي، لم أعرف ما يعني هذا السؤال" فقال:

- (انت بتعرف عربي؟) أجبته:

- "طبعاً" قال:

- (وليش تكتِب بالإنكليزي؟) وقلب الصفحة، ضاحكاً، إلى الوجه الثاني المكتوب باللغة العربية، وأعطانا استمارتين جديدتين ملأناهما بسرعة، وتركناهما على مكتب القنصل الذي أبلغنا عن موعد استلامهما في الغد مع جوازات السفر من شبّاك التوزيع.

كان لدى شركة "عالية" رحلتان فقط في الأسبوع إلى البحرين، فاتتنا الأولى، وكان علينا الانتظار لموعد الرحلة الثانية بعد ثلاثة أيّام، فاعتبرنا التأخير إجازة، ممّا سمح لنا بزيارة الأخت افروسين في مدرستها، وحين أزف موعد السفر ودّعناهم في الدير والمدرسة، شاكرين لهم ضيافتهم الكريمة.

قصدنا أن نكون في المطار مبكرين، فهي المرّة الأولى لنا في السفر بالطائرة، وصادف ذلك وصول الحجّاج بكثرة في طريقهم إلى مكّة المكرّمة، وكانت المرّة الأولى التي أرى فيها مثل هذا المشهد، إذ تحوّلت قاعات المسافرين إلى مساجد حيث انتظمت الصفوف لأداء صلاة المغرب. وتأخّر موعد إقلاع الطائرة لرحلة البحرين فكان وصولنا إلى البحرين في الواحدة بعد منتصف ليل 15 - 16 تشرين الثاني عام

.1976

*

كان في استقبالنا سيّارتان أو ثلاثة مع رفقاء لنا هناك، ركبنا معهم في إحدى السيارات إلى المسكن الذي خصّصته الشركة لسكن العمّال، وفي التاسعة صباحاً اصطحبونا إلى مكتب الشركة الرئيسي، وهناك عرّفوني إلى مدير الفرع الذي سأعمل معه. كان عطيّة قد أخبرني كلّ هذه التفاصيل، وكنت أعرف الأشخاص بالأسماء ولم يبقَ سوى التعرّف عليهم شخصياً، وخصّص المدير وقتاً ليسألني ويعبّئ بنفسه الاستمارة الخاصّة بالمؤهّلات، وعلمت منه أنّ طلال رضى، من مشغرة، وهو مشرف على عمّال الدهان، سيأخذ فرصته السنوية لمدّة شهر لكي يذهب إلى لبنان، وعليّ أن أستلم مكانه.

في اليوم التالي لم يعطني طلال أيّة فكرة عن العمل، لضيق الوقت في اللقاء القصير الذي تمّ في المطار وفي البيت، إذ غادر باكراً ليسلّم عمّاله الشغل ويعود ليتدبّر أموره للسفر في اليوم التالي، واجتمعنا في المساء، وسلّمني العمل تسليم مسؤول لمسؤول، فأفادني بأسماء العمّال، واسم الورشة وصاحبها، وأسماء أصحاب العلاقة المباشرة بالشركة.

باشرت العمل في اليوم التالي، وقدّم العمّال أنفسهم، وكذلك سائق سيارة النقل وهو من المدينة، شاب لطيف وعصري، ولم يطل الوقت حتّى أصبح صديقي، وكانت مهمّته إيصالنا صباحاً، وإعادتنا في المساء من الورشة. وتصرّفت في العمل حسب نظرتي للأمور، فشعر العمّال أنّهم أمام "معلّم" كبير في السن، يعرف كيف يتصرّف.

أمّا جان الغزال فقد ذهب مع جريس والعمّال إلى الورشة وابتدأ العمل في إدارة مختلفة للشركة نفسها، ولكنّه لم يستطع الصمود طويلاً، فعاد إلى لبنان خلال شهر وبضعة أيّام، وفي الأصل كان سفره إلى البحرين بمثابة إجازة. أمّا أنا فلم أكن قد

عملت مع عطيّة وجريس بعد، وبقيت في العمل ذاته ستّة أشهر كاملة إلى أن اكتمل بناء المستشفى الحكومي الكبير، والتزم عطيّة وجريس وشركاؤهما أعمال البلاط و"الورقة".

خلال هذه الأشهر كان عطيّة يتدرّج نحو الشفاء الكامل والحياة الطبيعية، وأنا بدوري أتعرّف إلى البلد والعمّال والشركة التي تعاقدت معها، وأعمالها المتنوّعة، وكانت هذه الأشياء جديدة علي تماماً وأعرفها نظرياً فقط، وقد مارستها في البحرين وبصفة مسؤول وتخطّيت مشاكل العمل بنجاح.

في العمل مع أولاد أختي تغيّر الحال كلّياً فقد أوكلا إليّ فرع "التوريق"، وفي البداية، كان فريق العمل مؤلف من ثمانية معلّمين مصريين، وما يقرب من عشرين عاملاً من باكستانيين وهنود ومصريين، وانتهى العمل بفريق يعدّ مائة وعشرين عاملاً.

استمرّت إقامتي في البحرين سنة وشهراً، من السادس عشر من تشرين الثاني عام 1976 حتّى العشرين من كانون الأوّل عام 1977، وكانت حصيلتها من الوجهة المادّية جيّدة، أمّا التعب والمشاكل المؤقّتة، فأصبحت ذكريات من الماضي مثل غيرها.

28. حول الموقد، مرّة أخرى

لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده، وصلت مطار بيروت على طيران الشرق الأوسط حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، ولحسن الحظّ كان الطقس صحواً، والطائرة تمرّ فوق حرمون وجبال لبنان، وعلى علوّ منخفض، فتبدو منها المناظر رائعة.

معظم الركّاب، بل كلّهم، من لبنان، فلم تستغرق المعاملات طويلاً، ووجدت بانتظاري عطيّة الذي كان قد سبقني، وكميل وروبير، ولم يخطر في بالي أنّ روبير سيكون أيضاً في استقبالي، وصادف أن مررت بجانبه ولم أعرفه لو لم ينّبهني.

ما أجمل ذلك العشاء في تلك الليلة الباردة قرب الموقد، مع الزوجة الوفيّة

الصبورة برت، وإيلين وكميل وروبير يملأون الدنيا بضحكهم ونوادرهم الحلوة التي طال شوقي إليها وإليهم، واستطال السهر رغم حاجتي الكبيرة إلى النوم والاسترخاء، ولكن من ينام في حالة كهذه؟ والحبّ بجميع أشكاله وألوانه، ينبت ويزهر في تتابع ما يجري من حولي، ولم أصدّق نفسي أنّني في البيت محاط بكلّ هذه العناية، ولم تزل غرفتي وفراشي في البحرين يحتلاّن مخيّلتي، وأصوات العمّال وهم يستعدّون للذهاب إلى العمل معشّشة في أُذنيّ، وهاجس الشغل ينام معي، لأنهض بسرعة وأرتّب أموري وأُعدّ الطعام. أمّا الآن، في صباح هذا اليوم، الحادي والعشرين من كانون الأوّل عام 1977، فالأمر مختلف كلّ الاختلاف، تجمّعنا حول الموقد في البيت، ووصلنا ما انقطع من حديث السهرة، مع (الترويقة) الغنية بالأصناف التي افتقدتها في البحرين، وعند الظهر وكان الطقس قد تحسّن، ذهبنا، برت وأنا، إلى بيت أختي أنيسة القريب، لأراها وأرى عطيّة، وكنت سعيداً باللقاء كمن لقي أمّه وإخوته، فقد كانت أختي أنيسة فعلاً بمثابة الأمّ، خصوصاً بعد وفاة الوالدة.

نزلت إلى السوق في اليوم التالي، حيث أحتاج بعض المعاملات، فالتقيت عارف بركة، ابن عمّنا بطرس، وزوج فكتوريا ابنة أخي وديع، وبعد السلام أخبرني أنّ ابنه البكر بيار وعمره 19 عاماً، في المستشفى في زحلة، وأنّه ذاهب إلى هناك. فاتّصلت على الفور بـ "برت"، وأخبرتها بأنّي ذاهب معه.

29. ثلج وبرد، وحزن.. وقرحة

كان مستشفى تل شيحا، كأنّه بيت لأهل مشغرة في زحلة، حيث يتواجد فيه يومياً ما لا يقلّ عن خمسين شخصاً بين مرضى ومولّدات وزوّار من أهل وأصدقاء. وكانت فكتوريا ابنة أخي والعديد من الزوّار في غرفة ابنها بيار، وهو يتنفّس بمساعدة الأوكسجين، وأوّل ما خطر ببالي ضرورة إخراج هؤلاء الزوّار من الغرفة، ولجأت إلى حيلة قديمة، إذ أومأت لأحد الزوّار، وأنا أعرف غروره، أنّ عندي شيئاً أريد أن أقوله

له على انفراد:

– (كلمة، بعد إذنك) وانتحيت به جانباً وعلى مرأى ممّن في الغرفة، وأوحيت بأهمّية وسرّية الحديث، فتنبّه واحد، وتبعته زوجته، ثمّ الآخرون وأخلوا لنا الغرفة لنتحدّث على راحتنا، فأمسكت بالرجل من يده وخرجنا نحن أيضاً إلى الممرّ، وأصبحنا ثمانية أشخاص خارج الغرفة. نفّذت غرضي الذي يريح المريض أوّلاً، ثم تبيّنت الموقف. كان بيار في المستشفى لليوم الثالث، وقد بدا أنّ وضعه حسّاس جدّاً، بل أنّ مصيره بات محتوماً، فحاولت أن أضع والده عارف في الصورة دون أن أقولها صراحة. وأدركت صعوبة الموقف، فـ "بيار" هو الابن البكر لعارف وفكتوريا، وما زال شاباً، ولا يتصوّران فكرة موته، بل يأملان أن يعود إلى البيت مثل المرّات السابقة، فقد كان لديه مرض مزمن. وعند الرابعة من بعد الظهر عدت مع عارف إلى مشغرة، فهو لا يستطيع البقاء في زحلة طويلاً من أجل أولاده وداد ووديع، وبقيت زوجة أخي "بسما" مع ابنتها فكتوريا.

حين غادرنا زحلة كان الثلج في بداية تساقطه، واستمرّ دون انقطاع، فوصلت البيت، والثلج على ثيابي بكثرة رغم أنّ المسافة التي مشيتها، من حيث أنزلتني السيارة إلى البيت، لا تزيد عن مائة متر. غيّرت ملابسي المبلّلة وحول الموقد أخبرت برت عمّا رأيت وعرفت، وساد الوجوم وكلّ يفكّر وحده.

في الليل انتابني ألم في المعدة كنت قد نسيته خلال وجودي في البحرين، وكنت أعرف أنّ لديّ قرحة في المعدة ولكنّها كانت (نائمة)، واستيقظت على برد ذلك اليوم الشديد، عالجتها ببعض المهدّئات ممّا أعرفه سابقاً. وفي اليوم التالي بقيت في البيت شبه مريض، متحاشياً البرد بانتظار تحسّن الطقس، وبرت تحيطني برعايتها. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي وكان في الرابع والعشرين من كانون الأوّل، سمعنا جرس الكنيسة بدقّات الحزن المتقطّعة، والهمس بكلمة [ابن عارف].

في الأيّام التالية كان همّي إيجاد طبيب مختصّ بالجهاز الهضمي، فأرشدني

طبيبنا في مشغرة إلى زميل له في زحلة. قصدته، وتتبّعت طريقة فحصه وأسئلته التقليدية، وفي النهاية قال لي:

- "عندي دواء جديد سأصفه لك وسترتاح"، وكتب لي اسم مستحضر، اشتريته وعدت إلى مشغرة، وقد لاحظت أنّه ليس علاجاً، بل مسكّناً، وكان الطبيب قد طلب منّي مراجعته بعد عشرة أيّام، وهكذا كان، ووصلت عيادته في الثامنة صباحاً، وإذا به يغادر غرفته في الطابق دون المرور إلى العيادة، فنبّهته:

- (صباح الخير) فأجابني قائلاً:

- (العيادة الساعة 10)، فقلت له بأنّي في طريقي إلى بيروت، وهو لم يحدّد لي موعد المراجعة، وسألته إن كان من الممكن أن يقول كلمة، لكنّه قال اثنتين:

- (تابع الدواء)، ومضى في طريقه، وأنا من جهتي قرّرت شراء عبوة دواء ثانية، ومضيت أيضاً في طريقي، مقرّراً عدم العودة إليه.

30. من الفحص إلى المشرط

كان ذلك بعد عيدي الميلاد ورأس السنة، في بداية عام 1978، وفكّرت إنّ الإقدام على إجراء عمليّة جراحية للقرحة، ليس سهلاً، وصمّمت على استشارة طبيب يفهم الموضوع كما أراه. وصرفت بعض الوقت في تسيير أمور المحلّ والبيت، وفي أوائل آذار نزلت إلى بيروت متفرّغاً للموضوع، آملاً في التخلّص من الألم. وبدون تردّد توجّهت إلى عيادة الدكتور أنطون سالم، وكنت قد تعرّفت إليه أثناء معالجة عمّي من مرض التيفوئيد، وأعجبني أسلوبه في الكلام، وطريقته في المعالجة، وبعد المعاينة، نصحني بإجراء جراحة، قائلاً:

- "عذاب أسبوع، وبعدها تكون مثل أيّ شخص لم يعرف القرحة في زمانه".

شكرته وانصرفت، وأصبحت أمام أمر لا مفرّ منه.

في عيادة الدكتور "غصين" في زحلة، لم تمضِ سوى دقائق حتّى تمّ التفاهم مع

ذلك الجرّاح الماهر، وأعطاني ورقة صغيرة (خرطش) عليها وقال:

– "خذها إلى الرئيسة في مستشفى المعلّقة"، فعلت، ورجعت إلى موقف سيّارات مشغرة، ثمّ إلى مشغرة، ومشيت متثاقلاً باتّجاه البيت، وقبل أن أطأ العتبة، لمحت الجارة متّجهة إليّ لتقول شيئاً، فتوقّفت، وإذا بها تخبرني أنّ شقيقتها، الراهبة، في مستشفى "المعلّقة" تطلب منّي أن أذهب إلى هناك يوم الاثنين، حيث أعطوني دوراً لإجراء العملية الجراحية. جرت الأمور بسرعة، وكان ذلك يوم خميس، أي لم يبقَ سوى أربعة أيّام. دخلت البيت، ولاحظت برت تجهّم وجهي رغماً عنّي، وبعد أن ارتحت قليلاً رويت لها ما حدث، وكنت قد غادرت البيت في الصباح، دون أن يكون لديّ أيّ تصوّر عمّا سيجري.

*

يوم الاثنين في الخامس عشر من آذار عام **1978**، كنت أدخل مستشفى "المعلّقة"، حيث أرشدتني الراهبة إلى الغرفة والسرير المعدّ لي مع ثلاثة آخرين. بدّلت ثيابي بالتي أعطوني إيّاها وجلست في فراشي حيث كانت التدفئة ضعيفة، وبدأنا نسمع دويّ المدافع والانفجارات البعيدة. كان اجتياح إسرائيل لجنوب لبنان قد بدأ بالأمس.

صباح الثلاثاء لاحظت حركة غير عادية، وهو اليوم المخصّص لعمليات الدكتور غصين في المستشفى، وفي حدود الساعة العاشرة وقبل وصول برت وإيلين من مشغرة، دخلت الراهبة غرفتنا، واقتادتني من يدي إلى غرفة العمليات، وانصرفت، تفحّصت الوجوه المكمّمة، فلم أعرف أحداً، وآلمني عدم وصول عائلتي في الوقت المناسب. ورحت في غيبوبة المخدّر،

بضع دقائق، أو هكذا أحسستها، واستفقت على يد تربّت على خدّي وأصوات تقول:

– (قوم ياعم، خلصت)، بعد قليل أنزلوني إلى غرفة أخرى، وبعد أن نقلوني إلى

سريري، صارت الممرّضة الراهبة تشرح لبرت عن وضعي وكيفية التعامل مع من في مثل حالتي، وطمأنتها عن نجاح العملية بالإجمال قائلة:

- (ما في أحسن من هيك)، سمعت هذه العبارة، وغبت في نوم عميق مجدّداً.

العمليّة بحدّ ذاتها، فترة نوم، لا يشعر بها المرء، وإنّما الأسبوع الذي يليها في المستشفى هو الذي يحسب له ألف حساب، وهو أشبه بانتزاع الحياة من أشداق الموت، وتبدأ خطا الشفاء بالتسارع في الأسبوعين الثاني والثالث، كما تغيّر السيّارة سرعتها بعد إقلاعها.

وتماثلت للشفاء شيئا فشيئاً، وأصبحت قادراً على النزول إلى المحلّ، للقيام ببعض الأعمال الخفيفة، وكان جاري عزيز خليل يساعدني على رفع باب المحل الجرّار، وإغلاقه.

في تلك الأثناء، كانت إيلين قد أنهت برنامج دراسة (السكرتاريا) في بيروت، بعد أن استقالت من مهنة التعليم، التي أتعبتها، في مدرسة الراهبات. وكميل كان بعد تخرّجه من ثانوية صيدا المهنية، يتنقّل بين بيروت ومشغرة، ولم يكن قد استقرّ على رأي فيما يخص مستقبله. وروبير الذي صار في السادسة عشرة من عمره، كان قد دخل فرع التجارة في مهنية مشغرة.

*

في مساء أحد الأيّام، وبينما كنت على وشك إقفال المحلّ والعودة إلى البيت، إذا بسيّارة عسكرية سورية تتوقّف أمام باب المحلّ، ويترجّل منها جنديان يبدآن بنقل أخشاب من السيّارة إلى داخل المحلّ. وحين لمحا علامة الاستفهام على وجهي، قالا:

- "هذه الأخشاب للضابط فلان، وسيأتي غداً بنفسه إليك"، فهمت أنّ لديهم بعض أشغال النجارة، فقلت لهما:

- "لكنّي لا أستطيع العمل، فأنا ما زلت في نقاهة من جرّاء عملية جراحية" ورفعت قميصي، وأريتهم الشاش والقطن على موضع الجرح، فقال الجندي:

– "نحن ننفّذ الأوامر"، وأكملا وضع الخشب في المحلّ وانصرفا.

وبعد أن عدت إلى البيت، بقليل، إذا بجاري عزيز خليل قادماً يضحك، وروى لي أنّه كان عند الضابط السوري حين عودة الجنديين من محلّي، وسألهم الضابط عمّا جرى، فأخبروه أنّي اعتذرت عن العمل، وظنّ بادئ الأمر أنّي أتهرّب من تنفيذ الأعمال التي كانت على ما يبدو ضرورية، لكنّ الجنديين قالا له:

– (عم بيقول عامل عملية جديد، وفرجانا القطن والشاش عَ الجرح)، وهنا تدخّل عزيز وأكّد للضابط صحّة ما قلته، قائلاً:

– "صاحب المحلّ جاري، وأنا أفتح له الباب يومياً لأنّه غير قادر على ذلك، وهو فعلاً لا يستطيع العمل بعد"، وعلمت أنّ الأخشاب كانت لدى إميل الصايغ الذي لم يستطع العمل فيها لعدم وجود مكائن لديه، وأنّه أرشدهم إلى عدّة نجّارين في البلدة، فقصدوني، وحين عرفت أنّ الأمر هكذا، وكان إميل تلميذي وصديقي، وجدت الحلّ بأن أذهب إليه وأعرض عليه أن يقوم بالعمل في محلّي، وهكذا كان.

31. مشوار العمر

في شهر نيسان، وكنت لا أزال في البيت، وأتردّد إلى زحلة للكشف على الجرح، عاد رئيف حوراني، شقيق برت إلى لبنان بأشغاله المتعدّدة، وزارتهم إيلين بالمناسبة، وأثناء الحديث سألها رئيف عن عملها، فأخبرته أنّها حالياً لا تعمل، وأنّها استقالت من مهنة التعليم، ودرست (السكرتاريا) في بيروت، فعرض عليها الذهاب إلى لندن، والعمل معهم في "بيت الطلبة"، حيث أولاده مع طلاّب من عدّة بلدان، ويمكنها هناك دراسة اللغة الإنكليزية من منابعها، فقبلت على الفور، وكانت إيلين قد مرّت بتجربة خطوبة غير متكافئة قبل عدّة أشهر، وقرّرت شقّ طريقها بنفسها، وجاءت تخبرني عن أمر السفر قائلة:

– "لا يمكن أن أمكث في البيت بانتظار العريس، أريد أن أتعلّم وأبني مصيري

بيدي".

لم يكن لديّ عرض أفضل أقدّمه، وأنا في وضع صحّي يحتاج وقتاً لتجاوزه، وحالة اقتصادية صعبة مع ارتفاع وتيرة الأحداث وبشاعتها، والمسلّحون من كلّ صنف ولون يملأون الطرقات، ولم يكن أمامي سوى أن أدعو لها بالتوفيق، مدعوماً بثقتي الكبيرة بها، وبخالها رئيف، وقدرته على تدبير الأمور كما يجب، وودّعتنا إيلين إلى لندن يوم السابع عشر من نيسان 1978.

كان كميل يتنقّل بين بيروت ومشغرة، يساعدني أحياناً في المحل، وطموحاته وآماله الكبيرة مكبوتة، وهو متململ من عدم وجود الإمكانات المطلوبة لمتابعة تعليمه العالي. ومضت سنة هدراً، وجاء فصل الصيف، واستعدت أنا صحّتي تماماً، وفي إحدى زياراتي إلى بيروت كنت عند بيت لور، شقيقة برت، وكان ابنها نبيل، وهو طالب في الجامعة الأميركية، يتحدّث عن غلاء الرسوم والتكاليف للتعليم الجامعي، فسألته:

– "ولماذا لم تدخل الجامعة اللبنانية"، فأجابت لور أنّ دراسة نبيل السابقة تستوجب المتابعة في الجامعة الأميركية، وصرت أقلّب الأمر في ذهني مفكّراً في دراسة كميل، وقرّرت أن أقوم في الغد بمحاولة، إمّا تصيب وإمّا تخيب.

*

كلّية الفنون الجميلة التابعة للجامعة اللبنانية، تقع في محلّة الروشة، وهي قريبة بعض الشيء من بيت عمّي، قصدتها متمشّياً، وسألت عن المسؤول، وعرضت عليه ما عندي، فأعطاني قائمة مطبوعة تتضمّن شروط التقدّم إلى امتحان الدخول، الذي على أساسه يقبل الطالب أو يرفض.

عدت إلى البيت ومعي القائمة المطبوعة، وتدارسنا المطلوب، ثمّ ومن اليوم التالي، بدأنا بالحصول على شهادة البكالوريا الثانية من وزارة التربية، وكانت العلامات جيّدة. وفي يوم امتحان القبول، لم أكن مع كميل في بيروت، بل كان همّي

تأمين الدعم له من المعارف القادرين على ذلك، فقصدت نقولا طرابلسي الذي أصبح مديراً لمهنيّة الدكوانة العالية، وأخاه اسكندر، مدير ثانوية فرن الشبّاك، وكان وعدهما أنّ المساعدة ستكون بعد الامتحان، شرط أن يحصل كميل على علامات عالية في امتحان القبول، فقلت لنفسي إنّ هذا الشرط سهل، ودخول كميل الجامعة، أصبح مضموناً في هذه الحالة.

رجعت إلى مشغرة، وكان كميل قد صرف يومين في بيت جدّه وعند خالته لور في بيروت، وحين عاد أخبرته ما جرى معي في مقابلتي للطرابلسيين، اسكندر ونقولا، فقال لي:

- "ليس لدي أمل كبير بدخول الجامعة".

- "لماذا؟" سألته، فأجاب:

- (لأنو اللي كانوا معي بالفحص، كلّ وحدة كحلتها لَوَرا دينيها، وكعب سكربينتها شبر)، فأجبته:

- (إذا كان هيدا معيار دخول الجامعة، توفّقنا!. المهمّ، انت عملت منيح؟)

- (أنا عملت الواجب وأكتر، وساعدت رفيقتي، وعنقود العنب اللي رسمتلها اياه بتقدر تاكل منّه حبّة).

ومضت أيّام الأسبوع بسرعة، ويوم السبت إذا بنقولا طرابلسي، وهو جارنا في مشغرة، قادماً يحمل ورقة العلامات بنفسه ويهنّئ كميل بقوله:

- (بيّضت وجهنا بعلاماتك، حضّر حالك لموعد افتتاح الجامعة). وكانت العلامة الأولى في ذلك الامتحان 60، نالتها زميلة كميل التي ساعدها، أمّا علامة كميل فكانت 59.5، ويبدو أنّ نصف العلامة هي مكافأة الكحلة، وكعب السكربينة. وصار علينا تدبير الأمور المطلوبة لانتقال كميل إلى بيروت، من سكن وما شابه، وتيسّرت الأمور بعد جهود، فأقام كميل مع رفاق له من صغبين، وكنت ألاحظ انسجامه، وتصميمه على المتابعة في ذاك العام الدراسي 79 - 80، متخطّياً كلّ

الصعوبات، رغم عدم توفّر الأسباب المريحة في السكن، وضيق الحالة المادّية.

*

في مسار حياتي، كنت ولم أزل مشاركاً ومتابعاً الذين جمعتني بهم ظروف الحياة، وأوجدت قرابة أو صداقة، لا فرق عندي أين يكونون، أو أكون. وتمضي الأيّام كالظلال والأحلام، تحمل معها حصّتها من أفراحنا ومآسينا، تترك لنا ذكريات ممّا كان يفرحنا، وممّا كان يبكينا، ونحن نعطيها العلامات الفارقة التي تميّزها عمّا سواها.

III
(1986 - 1979)

1. إيلين إلى أميركا

كانت أختي أدال، ومنذ وصولها إلى الولايات المتّحدة، قد استأجرت، وصهري، شقّة قريبة من شقيقتيّ وديعة ونسيبة، وأولاد نسيبة وعيالهم، وبقينا على اتّصال دائم بالمراسلة، حتّى في فترة سفري إلى البحرين لم تنقطع المراسلات بيننا، وكان من عادتي أن أحتفظ بكلّ الرسائل التي تصلني، لأعود إليها في أوقات الوحدة والحنين إلى الأهل والأصدقاء، فأصرف معهم فترة من الوقت، تكون دونهم مصدر شقاء وتعاسة، ومعهم تجديداً للقوّة والاحتمال، على أمل اللقاء الآتي، والأوقات الحلوة الموعودة.

لم تكن أختي أدال غريبة عن الأجواء في الولايات المتّحدة، فقد سبق لها زيارتها، وكان أيضاً لعملها، وتحمّلها مسؤوليات في جمعية الشابّات المسيحيات، وفي مستشفى الجامعة الأميركية، دور كبير في مساعدتها على تكلّم الإنكليزية بطلاقة، والتعاطي مع الناس، واستطاعت أن تكوّن بيتها واستقلاليتها. وكانت رسائلنا المتبادلة من البحرين، أو من مشغرة تحكي الكثير عن المعاناة التي يتكبدّها المغترب في بداية العمل والدخول إلى مجتمع جديد.

في عام 1979، كان البريد مازال يعمل، والرسائل تصل بانتظام، من أميركا، ومن لندن، وتبيّن لي من رسائل إيلين، استنفاذ الغرض من وجودها في لندن، بإكمالها البرنامج التي كانت قد بدأته في بيروت، وبعلامات أفضل من تلك التي لزميلاتها الإنكليزيات. ومن جهة ثانية، لم تعد مسألة السكن مؤمّنة. فشغلت بالي كثيراً مسألة عودتها إلى لبنان، والأحداث تتفاقم يوماً بعد يوم. فكتبت لأختي أدال ووضعتها في الصورة، كما كتبت لإيلين أنصحها بأن تعدّ نفسها للذهاب إلى عمّتها، لفترة نلجأ

بعدها إلى تدبير آخر.

ولاقى اقتراحي ترحيباً من الجانبين، ولم يصعب على رئيف ابن عمّي الاستحصال على تأشيرة دخول لإيلين من السفارة الأميركية. وهكذا غادرت إيلين إلى الولايات المتّحدة في ربيع عام 1979، وكانت قد أمضت سنة في لندن.

تولّت أدال تدبير أمور إيلين في البداية، وحيث أنّ تأشيرة الدخول السياحية إلى أميركا كانت لمدّة قصيرة، كان لا بدّ من إيجاد سبب للبقاء مدّة أطول، ولم يكن من سبب أنسب من الدراسة، فرافقها الصهر "مايك"، زوج أدال، إلى ثانوية قريبة من البيت وفي الشارع ذاته، وكانت تحمل أوراق وعلامات مدرسة لندن، فقُبلت على الفور، وأثناء الفحص الأوّلي لمعرفة مستواها في اللغة، سألها الفاحص:

- "أنت آتية للتعلّم أم للتعليم؟". وداومت في تلك المدرسة مدّة وجيزة، وحصلت على أوراق ثبوتية كتلميذة، ولم تلبث أن ابتدأت في العمل والتحصيل.

*

ويأتي عيد الميلاد في تلك السنة، وقد اعتادت أخواتي وعيالهم تمضية سهرة الميلاد في قاعة الكنيسة الكاثوليكية القريبة من مساكنهم. وهذه السنة كانت إيلين معهم، كما كانت معهم صديقتهم الدائمة إيجيني هندي من بلدة كفرحونة. والجدير بالذكر أنّ رعيّة كنيسة القدّيسة حنّة، معظمها أو كلّها من أبناء الوطن السوري، من شاميين ولبنانيين مع غالبية أردنية، ومن الطبيعي أن يكون الراعي أو الكاهن الأوّل فيها من هذه البلدان، وفي سهرات كهذه، عادة، يقوم الشبّان والصبايا من أبناء الجالية بالخدمة. فالعلاقات بين أبناء الرعية وثيقة كعائلة واحدة.

وكانت السيدة هندي قد لاحظت أنّ وجود إيلين معهم، فيه إجحاف بحقّها كشابّة وحيدة بين مجموعة من الكبار، فلفتت نظر شقيقاتي إلى شاب من الحضور، وقالت لهم:

- "أحبّ أن يتعرّف هذا الشاب إلى إيلين وبحضورنا جميعاً، هل هناك مانع؟"،

فقبِلت أخواتي بتحفّظ، إذ أنّ أختي أدال تعتبر نفسها مسؤولة عن إيلين، وموقعها عندها في حدقة العين. وأومأت السيّدة هندي إلى ذلك الشاب، فتقدّم نحوهم، وقالت له:

- "راي، أريدك أن تتعرّف إلى هذه الصبية"، مشيرة إلى إيلين، وانصبّت عليه أنظار أخواتي يتفحّصنه. فيما هو يتقدّم منها بحياء، شاعراً بالحصار المضروب حولها، وكان قد علم بوصولها حديثاً من لبنان، وسألها إن كانت تتكلّم الإنكليزية، وكان السؤال بالعربية المكسّرة، والجواب بالإنكليزية السليمة، فدهش، ورغب بمتابعة الحديث معها، فدعاها للرقص، فلبّت، ممّا زاد في إعجابه. وما إن هدأت الموسيقى حتّى عاد معها إلى طاولتها وجلس القرفصاء قربها، إذ لم يكن هناك موضع لكرسي بجانبها، وتدفّق سيل الأسئلة التي أحسّ بركاكتها أمام الأجوبة القوية، والتفكير الذي يكمن خلف تلك الأجوبة.

كان اسم الشاب "ريمون شلهوب" وأهله المولودين في الولايات المتّحدة من عائلتي شلهوب وسماحة من زحلة.

ومرّت مواسم الأعياد في نهاية عام 9197 وبداية 8019، والمراسلة بيني وبين أختي وإيلين مستمرّة، إلى يوم وصلتني فيه رسالة مطوّلة من أختي أدال تبلغني أنّ الشاب "ريمون" وأهله طلبوا منها يد إيلين، وتسألني رأيي في الموضوع. قرأت الرسالة على مهل مرّتين، وكانت برت تقرأ أسارير وجهي دون كلام، فأعطيتها الرسالة لتقرأها، دون أيّة كلمة، وقرأتها برت بدورها بإمعان، وسكت كلانا في فترة تأمّل، طال بعدها حديثنا في الليل في استعراض الأمر، وفيما يكون الردّ.

لم تكن الأمور مستعجلة ولكنّها ثابتة وبجدّية ملحوظة، من قول أدال أنّها استمهلت آل شلهوب، لأنّها لا تستطيع تجاوزنا في أمر كهذا، والمراسلة بيننا، أختي وأنا، صريحة وواضحة، ونحن أساساً نتفاهم بالإشارة. وتمهّلت في الردّ، والحيرة تأكلني لبضعة أيّام، كنت أضع المحاذير والمقاييس وأستوحي قلبي وضميري، ولم يأتِ

الجواب المقنع النهائي، وفي نهاية الأسبوع وكان كميل في البيت، دفعت إليه بالرسالة، وشغلت نفسي قليلاً، لأسمع ردّه بعدها بقوله:

- "خسرنا إيلين"، وناولني الرسالة. عندها قرّرت أن أضع القرار النهائي بالنسبة لإيلين بين يديها هي، علماً بأنّني لم أشعر، وحسب المعطيات المتوافرة، أنّها قادرة على اتّخاذ قرار كهذا بمفردها. وكتبت لأختي رسالة جوابية مطوّلة، ولإيلين أيضاً، طالباً أن تكتب لي عن شعورها بحرّية. وكان يحيطنا جميعاً، أدال وإيلين وبرت وكميل وأنا، شعور موحّد بالحالة الزريّة المتحكّمة في ذلك الوقت. وأتتني فيما بعد ردود مطمئنة وإيجابية، بأنّ الأمور تسير كما يجب، ولا لزوم لانشغال البال.

2. كلّ يرسم طريق حياته

كان كميل يتابع دراسته في كلّية الفنون بنشاط، وقد توسّعت دائرة أصدقائه ورفاقه، ومنهم روجيه صوايا الذي كان يدرس مع كميل في فرع الهندسة الداخلية. وفي أواسط العام الدراسي طرحت الجامعة موضوع تصميم ملصق، كمسابقة لصفوف السنوات الأربع. وكان كميل يراقب ما يفعله المشتركون في المسابقة دون أن يقوم بأيّة مبادرة، ومع اقتراب موعد التسليم النهائي، أخبر رفيقه روجيه أنّ لديه فكرة للملصق، فشجّعه هذا وعرض عليه مساعدته، وبالفعل باشرا العمل في تنفيذ فكرة كميل الذي قدّم مشروعه في آخر لحظة، وبعد انتهاء لجنة التحكيم من عملها، كانت المفاجأة أنّ كميل، طالب السنة الأولى، فاز على جميع الطلاّب، في السنوات الأربع.

لم يكن هذا غريباً بالنسبة لي، فقد كنت أثق بموهبته، وكان همّي الوحيد تأمين المسكن المريح الذي يوفّر له إمكانية الإبداع في دروسه وعمله، ويكون لهذا، بالتالي، الأثر الإيجابي في عمله بعد التخرّج.

كان كميل قد بدأ عملاً في شركة زيدان للإنشاءات المعدنية، ونستطيع تدبير احتياجاتنا بالتي هي أحسن. واستطعنا تأمين ناحية السكن بعد مجهود، حيث انتقل

كميل للسكن في غرفة مريحة في محلّة رأس بيروت، قريبة من مجال تحرّكه اليومي سيراً على الأقدام، في شقّة يشغلها رجل وزوجته، مسنّان وليس لديهما أولاد، ويبدو أنّ الزوجة هي من يهتمّ بتدبير أمور البيت، وفي بادئ الأمر بدت كصاحبة مصلحة، وتعامل قانوني، وبعد فترة من الوقت، ومن خلال تصرّف كميل الإنساني والمهذّب، صار بالنسبة للعائلة مثل ابن عزيز مدلّل. وقد كان الزوجان، سعيد حبيب وهيلانة متري، من بلدة البرامية قرب صيدا، يسكنان الشقّة بإيجار زهيد [50 ليرة في الشهر] ويستفيدان من إيجار الغرفة الذي يبلغ 400 ليرة شهريّاً، والرجل متقاعد من عمل سنين طويلة في الجامعة الأميركية، أمّا زوجته فتتعاطى الخياطة على نطاق محدود، ولديها زبائنها الذين يعرفونها. ومع مرور الوقت توطّدت الصداقة بيني وبين سعيد، فقد وجدت فيه الصديق بكلّ معنى الكلمة، إذ كان صادقاً خفيف الروح، يشرب دون إسراف، ويكون في أحسن حالاته في ذلك الوقت. ولا أزال أذكر موقفه يوم تعذّر وصولي إلى بيروت لمدّة من الزمن، وألمح كميل أنّه يريد إخلاء الغرفة لأنّه لا يستطيع تأمين إيجارها، فقال له سعيد يومها:

- (ما بتروح لمطرح، واللي بتحتاجه بتاخده منّي)، وحين تيسّر الحال ونزلت إلى بيروت، دفعت له ما كان قد تأخر علينا من متوجّبات. وفي الجوار من سكن كميل كان يسكن أيضاً فؤاد جبّور، وزوجته مادلين ابنة عمّة برت، وكنت في فترة سكني السابقة في بيروت شريكاً لفؤاد المذكور ولعمّ برت، رجا حوراني، لبعض الوقت، فصرنا نشعر أنّ هذا المكان بيتنا وأهلنا.

في مشغرة كان عطيّة وجريس ابنا أختي قد عادا من البحرين بعد تصفية أشغالهما هناك، وبفضل مساعدة عطية والشقيقة أدال، تحسّنت أحوال العمل عندي بصورة ملحوظة، وصرت أكثر حرّية على الحركة. ومن ناحية ثانية ازدادت المسؤوليات والمصاريف، فروبير مازال في مهنية مشغرة، وكميل في كلّية الفنون، وكان أكثر ما يضايقني حاجة كميل للعمل من أجل تغطية جزء من مصاريف الدراسة

والمعيشة، وكان قد ترك العمل في شركة زيدان إلى مكتب "المعمار"، الذي يخصّ المهندس الأمين حبيب كيروز، وخلال تلك الفترة توطّدت صداقته مع الرفيق تمّوز قنيزح، ابن الأمين الياس جرجي قنيزح، وعرّفني إليه في إحدى زياراتي لهم في مكتب "المعمار" للهندسة والذي كان بعهدتهما آنذاك.

في أواخر عام 1979، كان أخي أنيس قد تعرّض لنزف حادّ في معدته، ورغم جهود الأطباء في البيت أوّلاً، ثمّ في مستشفى تل شيحا، والتبرّعات بالدم التي تقدّم بها الأقرباء والأصدقاء، وافته المنيّة قبل يوم واحد من عيد الميلاد من تلك السنة، والمؤسف أنّه لم يكن يشكو من أيّ عارض قبل ذلك، وكان نعيه مؤلماً، خصوصاً لشقيقتيّ الكبيرتين، وديعة ونسيبة، لأنّه كان رفيقهما.

*

أمّا في أميركا فقد كانت أختي أدال، ومعها إيلين، تتابع أخبارنا وأخبار كميل، وتتعاون معنا كما لو كانت بيننا، وأشدّ ما يكون انشغال بالها على كميل في بيروت، ومن خطر تنقّله بينها وبين مشغرة، وما تسمعه من أخبار، يكفي واحد منها لانشغال بال دولة بحالها. إضافة لشعورها بالمسؤولية تجاه إيلين، وإن كانت الأخيرة قد أصبحت شبه مستقلّة ولا تشكّل عبئاً مالياً على عمّتها، بل كانت إيلين القوية خير مساعد وداعم لأدال في البيت والعمل.

وذات يوم تلقّيت رسالة من أختي أدال وقد ضمّنتها تذكرة سفر باسم كميل، تدعوه للسفر إلى الولايات المتّحدة الأميركية. فسطّر لها كميل رسالة مطوّلة جوابية، يعرب فيها عن امتنانه وتقديره لمحبّتها التي لا توصف، وأبدى من أسباب الرفض ما أعطى الرسالة مضمون ملحمة شعرية وطنية، أو نبوءة تحمل مصيره وحياته. وكتبت لأختي شارحاً لها صعوبة الحصول على تأشيرة الدخول وجواز السفر، فضلاً عن رفض كميل القاطع مغادرة الوطن، وأرجعنا لها التذكرة شاكرين.

مع بدايات سنة 1980 أصبحت الاستعدادات لعرس إيلين بالسرعة العالية، بعد

مراسلات عديدة معها، بغية معرفة شعورها الحقيقي تجاه ما يجري، ومع أختي لاستشفاف مدى اقتناعها بالأمر، واستطعت، بواسطة إيلين، أن أُجبر "ريمون"، أو "راي" كما ينادونه، على أن يكتب لي رسالة، أعلمني فيما بعد أنّها كانت الوحيدة التي خطّها في حياته.

وتصلنا بطاقات الدعوة إلى العرس الذي كان في 17 شباط عام 1980، ولكن بعد إتمامه، وذلك طبعاً بفضل "سرعة" البريد و"انتظامه". وبعد مدّة وصلتنا الصور، وكم كانت جميلة، وقد حرصت إيلين على أن تكتب الشرح عن كلّ صورة باللغتين، العربية والإنكليزية.

جرى الإكليل في لوس آنجلوس في كنيسة القدّيسة حنّة للروم الكاثوليك الملكيين، والاستقبال في قاعتها، وقد أصرّ "راي" وأهله سام شلهوب ولوسيل سماحة، وهم من أبناء الطائفة المارونية، علىالاحتفال بفرحهم في كنيسة الكاثوليك، لأنّ إيلين كاثوليكية، وهم يتعاملون مع هذه الكنيسة لقربها من بيتهم، ولا يشعرون بأيّ فارق، ولكنّ المطران الماروني حنّا شديد رأى في هذا إحراجاً له، أن يترك كنيسته ويحمل عدّته ومعاونيه ويذهب ليكلّل شخصاً من رعيّته في كنيسة أخرى، ولكن وبعد جدال عنيف، وتهديد من قبل أهل راي بقطع العلاقة نهائيا بكنيسته، قبِل الأمر مكرهاً، لمكانة عائلتي شلهوب وسماحة، وبعد أن عمل حسابات الربح والخسارة، واحتفظ بماء الوجه في نهاية الأمر.

ويوم العرس، تجمّع جمهور كبير في الكنيسة، وتمّ الإكليل بمشاركة حسّاسة بين الطقس البيزنطي والطقس الماروني، وطقس الطبيعة، الذي انهمر سيولاً في ذلك اليوم، وبعد الإكليل ضاقت القاعة بما يزيد عن ثلاثمائة مدعو، وكان عشاء وموسيقى ورقص حتّى ساعات الصباح الباكر، حيث هرب العروسان إلى مكان جميل يعرفه راي، وكان قد خطّط لهذا دون أن يخبر أحداً، لقضاء شهر العسل.

لور، شقيقة برت، وولديها، كانوا قد سافروا فيما سبق إلى الولايات المتّحدة، وقد

أتت من الولاية التي تقيم فيها إلى كاليفورنيا لحضور العرس مع ابنتها أمل، إشبينة إيلين. وكان راي قد أخذ شقّة في موقع متوسّط بين بيت أهله ومنطقة سكن أخواتي وعائلاتهن.

تلك الأجواء كانت تضعنا فيها رسائل أدال المكتوبة بأسلوب جميل ولغة سليمة، فكأنّنا شاركنا فعليّاً في حضورها.

3. سافر ولم يسافر

مع اليقين من أنّ ما سيقال ويكتب عن المأساة في الوطن الغالي، ستضيق به دور الكتب ورفوف المكتبات، أجد أنّ عليّ الإسهام بما يضيق به صدري، وهي في النهاية حكاية كلّ عائلة مرّت في مثل ظروفنا، واكتوت بتلك النار التي لا تنطفئ، وفيها من العبر ما يكتب له الخلود.

أحداث سنة 1980 متداخلة، وخصوصاً ما يختص بالشأن الحزبي وملابساته، إذ طرحت يومها مقولة "عسكرة الحزب وعقدنة العسكر"، وشعرنا أنّ هذه المقولة وضعت أعضاء الحزب الذين في مثل أعمارنا، 60 عاماً وما فوق، خارج الملاك، بصورة تلقائية، فقد فاتنا العسكر، وبالتالي موقعنا من العقدنة، وصرنا (لا في العير ولا في النفير). وتبعاً لهذا المنطق صرنا نشعر بأنّنا غرباء، حتّى في المراكز الحزبية، ونحتاج إلى "معاملات" إذا أردنا مقابلة أولادنا أثناء تواجدهم في المركز في مشغرة.

وأذكر يوماً، ذهبنا، روبير وأنا، لتركيب منجور في بيت جان الزمّار، ولم يمضِ الكثير على ابتدائنا في العمل، وإذا برفيق من المركز يأتي ويطلب من روبير أن ينزل ليكلّم الرفيق الياس خليفة، فلم يتوان روبير وقال لي:

- (بشوف شو بدّو وبرجع)، وتابعت العمل لوحدي، وأقلقني غيابه دون أيّة إشارة منه، وقصدت مركز الحزب للسؤال عنه، فكان الجواب:

- "غادروا إلى بيروت"، وحاولت الاستيضاح، فلم أتلقَّ جواباً.

عدت إلى البيت في المساء، وكان عليّ أن أجيب على أسئلة برت العديدة، ونحن في خضمّ ما نسمعه من أخبار تروي المآسي التي تحصل كلّ يوم وكلّ ساعة، وصرت أتحايل في الإجابة لتكون مطمئنة قدر الإمكان، وإيجابية، ولكن أنّى لي ذلك؟

كان روبير قبل هذه الفترة قد ذهب في بعثة حزبية إلى الخارج، وكان هنا في إجازة. وفي نهاية الأسبوع وبعد عدّة محاولات للسؤال، علمت أنّه عاد وسافر مع مجموعة من رفاقه لإتمام البعثة. وأخذني العجب، لماذا هذه العجلة، والتصرّف بهذه الطريقة؟ ومع هذا قبلت (الخبرية) وقرّرت النزول إلى بيروت لأرسل له الأغراض الضرورية التي يحتاجها، إذ أنّه غادر دون أدنى فكرة عن الأمر، ولم يأخذ معه شيئاً. وفي بيروت اتّصلت بالمركز هاتفياً، وسألت إذا كان حضرة عميد الدفاع موجوداً فأتاني الجواب بالإيجاب، فعرّفت عن نفسي وعن غرضي من السؤال، ثمّ توجّهت ومعي كميل، إلى المركز القريب من حيث كنّا، وصعدنا إلى مكتب العميد وبكلّ براءة قدّمت له الأغراض مع رسالة إلى روبير، ليتمّ إرسالها له، وتسلّم حضرة العميد الأغراض، وتفحّصها واحداً واحداً، ووعدني أنّها ستصل إلى روبير في القريب العاجل. وقال إنّ ما حصل من سرعة في الأمر، تقتضيه ضرورة مواعيد السفر. وقفت وأنا لا أعرف الصحيح، من كلامه، من الخطأ، وكلّ ما حولي يوحي بأنّ ما سمعته هو كلام للاستهلاك، ولا يُلزم قائله بشيء.

حيّينا وانصرفنا، كميل وأنا، وما إن خرجنا من باب المبنى، حتّى فوجئنا بروبير مع بعض رفاقه، متّجهين نحونا.

صدمت، ولكنّي لم أسأل أيّ سؤال، بل قلت:

– (خلّينا نروح نتغدّى)، وتناولنا طعام الغداء في أحد المطاعم، ثمّ توجّهنا إلى غرفة كميل، وهناك شرح روبير لنا ما جرى بالتفصيل، وأنّه قرّر المتابعة في البعثة، إذ لم يبقَ إلاّ شهوراً قليلة وينهي المدّة المحدّدة لها.

كان أهون عليّ أن يسافر روبير ويكمل ما بدأه، ليتخلّص من الوضع الزريّ

الذي كان يعيشه، والمحفوف بالمخاطر من كلّ جانب، وبالتالي يخفّف عن كميل الضغط وانشغال باله الدائم عليه. ونمت تلك الليلة في بيروت، بعد أن تدارسنا، كميل وأنا، وإلى ساعة متأخّرة، الإمكانات المتوافرة واستعرضنا وضع البيت والعمل، وفي اليوم التالي اشتريت بعض ما يلزمني في العمل، وعدت إلى مشغرة، وهناك لاقتني برت متلهّفة لسماع الأخبار عن روبير، فرويت لها ما جرى بالتفصيل، حسبما تعوّدنا على الصدق والصراحة.

4. حارَ الطبيب وخانته العقاقيرُ

في تلك الفترة، وكان عمّي والد برت قد انتقل وعائلته، مع ابنه رئيف إلى جونية، وصلني خبر مفاده أنّ عمّي في المستشفى، وفي حالة خطرة. وقرّرنا برت وأنا الذهاب إلى هناك ما دامت الطريق سالكة، وكانت المناطق مقسومة بين "شرقية وغربية" وهناك مصاعب في التنقّل بينهما، وكذلك في اختيار وسيلة النقل والسائق الذي بمقدوره الذهاب إلى هناك، ووصلنا إلى بيت عمّي بعد الظهر، فوجدنا زوجته لتخبرنا عن الحالة الصحّية الصعبة التي أوجبت نقله إلى المستشفى، وأنّ "عزّت" زوجة ابنها رئيف، بمفردها معه. تركت برت في البيت وأسرعت إلى المستشفى لأجد عمّي في أسوأ الحالات، يصارع الأزمة المتحكّمة بدون طائل، وعزّت لم تفارقه دقيقة، وتحاول ما استطاعت التخفيف عنه، وحاولت عبثاً إقناعها بأخذ قسط من الراحة، على أن أبقى مكانها، فرفضت، وبقينا نحن الاثنين وحالته مازالت تتراجع. ودخل الطبيب والممرضة فأخرجانا من الغرفة بحجّة عملهما، وفي البهو حاولت تشجيع عزّت على مجابهة الواقع والقدر المحتوم. وحوالي الساعة الثامنة مساء، خرج إلينا الطبيب وفهمنا من عينيه ما يريد قوله، فأخذنا نصيبنا من انفجار الدموع، رغماً عنّا، ومن كلمات المواساة والتشجيع من الطبيب.

في بعد ظهر اليوم التالي كان المأتم الحافل، وكان رئيف قد وصل في الليلة

الفائتة، وشارك في الصلاة التي ترأسها القس داود متري، كاهن ماروني، ثمّ سار المشيّعون وراء الجنازة من "المنطقة الشرقية" حتّى خطوط التماس، وتابع الذين يستطيعون العبور وحدهم إلى مدافن رأس النبع.

مهازل ومآسي تتكوّن وتتكوّم أمام ناظريّ، وأنا مع الحشد أردّد في سرّي بيت شعر، لا أعرف صاحبه، سمعته من المرحوم عمّي مرّة، وكنت وقتها أروي له أسباب وفاة أخي أنيس، فأجابني بقوله:

إنّ العليل إذا حانت منّيته، حار الطبيب، وخانته العقاقير

وكنت أفكّر في عمّي، كما في لبنان المريض الذي يتلوّى من الألم، مع كثرة الذين تنطّحوا للعلاج، وخذلتهم الأدوية والوصفات المسكّنة. والسبب في هذا الفشل الذريع، كان ولم يزل، ترك أسباب العلّة تحبل وتلد عللاً في كلّ منحىً وزاوية، والانصراف إلى معالجة الأعراض.

انتهت مراسم الدفن، وتقبّل التعازي، وعدنا إلى البيت في جونية وكان لم يزل يعجّ بالمعزّين، وإلى ساعة متأخّرة، فحاولت ما استطعت، التخفيف عن برت التي كان تأثّرها عميقاً. وما زاد الغصّة عندها أنّ الفرصة لم تسمح لها أن ترى والدها، ولا أن تسمع منه كلمة واحدة. في الوقت الذي كنت أشعر فيه أنّي فقدت، إضافة إلى الأب، صديقاً حميماً كانت ساعات اجتماعنا به أجمل الساعات، حيث كانت أحاديثنا من القلب، ويضحك إلى أن تنهمر دموعه.

5. صورة معلّقة في بيتي دون سواه

وتمضي الأيّام، والإشاعات المغرضة لاتختلف عن الأخبار الحقيقية، كلّها تشير وتنبئ بالخراب وسوء المصير، وضحايا الحروب كما في الغالب ليست ممّن يشارك في صنعها، بل الأبرياء، تطالهم في أرواحهم وأرزاقهم، أينما حلّوا. في هذه الأجواء كنّا نعيش، برت وأنا مثل غيرنا في قلق وترقّب، وانشغال بال على الغائبين، والسؤال

يتردّد:

- "إلى متى؟ ولماذا؟ وإلى أين؟"، والجواب مغلق بألف حاجز وحاجز.

ندرة الرسائل من روبير، كانت حسب المثل الإنكليزي: " No News, Good News"، "لا أخبار، إذاً الأخبار جيّدة"، وما كان يريحنا بصدده، كونه بعيداً عن مسرح الأحداث، ولو مؤقّتاً، أمّا كميل فكانت تقلقني عليه مخاطر التنقّل في بيروت، وخصوصاً في الليل، والذي كثيراً ما يحتاجه، علماً بأنّه كان حريصاً على إطلاعنا على أخباره للتخفيف من مخاوفنا ما أمكن.

أختي أدال وإيلين من أميركا تعملان ما في وسعهما لإقناعنا في السفر، وإن كانتا تعانيان الأمرّين في وجودهما هناك كمهاجرين جدد، وكانت المراسلات بيننا تضعني في الصورة ، من معدّلات الإيجار والمصروف وإمكانية العمل لمن هم في مثل عمري، وكنّا نتباحث بهذه الأمور على أنّها محتملة الوقوع.

وأرسلت مرّة أستوضح بعض الأمور بشأن شقيقتيّ الكبيرتين، ومضى الوقت ولم يصلني جواب، لا من أدال ولا من إيلين، وعزوت ذلك للأحداث في لبنان، وما تسبّبه من عدم انتظام في البريد، وأرسلت ثانية، وكان مصير الرسالة مثل سابقتها، واقتربت مواسم الأعياد، فأرسلت بطاقات المعايدة، وكانت تصلني مثلها من أميركا مبكرة، ولكنّها لم تصل، ومضت الأعياد وأيّام بعدها من العام الجديد 1981، فتملّكني القلق وإلحاح التساؤل، وصرت أعطي لنفسي الأسباب المخفّفة، وصبرت، إلى أن جاءني في يوم من أيّام شتاء شباط القاسية، وكنت في المحلّ أنتظر أن يخفّ هطول المطر لأعود إلى البيت؛ جاءني ساعي البريد برسالة من إيلين كما يدلّ العنوان عليها، واسم المرسل، وأسرعت إلى فتحها لأرى أوراقاً كثيرة ومشوّشة باللغتين العربية والإنكليزية، فبدأت القراءة في المقدّمة، وحالاً أحسست أنّ لدى إيلين شيئاً تريد قوله ولا تعرف كيف، بل تحوم حوله، ووصلت إلى الصفحات المكتوبة بالإنكليزية، وصرت أقرأ تباعاً أنّ أختي أدال أُدخلت إلى المستشفى على إثر عارض في القلب، في الخامس عشر

من كانون الأوّل الفائت، وأنّهم كانوا عندها ليلة عيد الميلاد وقد سمح الطبيب بعودتها إلى البيت على أن تغادر المستشفى قبل ظهر يوم عيد الميلاد، غير أنّهم تلقّوا مكالمة هاتفية من إدارة المستشفى في الصباح الباكر، تنبئهم أن أدال تعرّضت لنوبة جديدة في الليل، ولم يستطيعوا إنقاذها.

هنا، توقّفت عن متابعة القراءة، فلم أعد بحاجة إلى تفاصيل أكثر، وبقيت مشدوهاً لا أدري ماذا أفعل، وتحرّكت باتّجاه البيت وقد قرّرت ألاّ أخبر برت، إلى اليوم التالي، وفي الصباح أحضرت الرسالة وجلست أقرأها من جديد، وقد لاحظت أنّ إيلين تعمّدت أن تكتب الخبر الأليم بالإنكليزية، وذلك كي أتلقّاه بالتدريج، وهي تعرف أنّي، لو كتبَتْه بالعربية، سألتَهِمُ السطور التهاماً. وحيث أنّ الرسالة من إيلين، صارت برت تتناول الصفحات عند انتهائي منها، لتقرأها هي بدورها تباعاً كالمعتاد، وكما حصل معي، فقد لاحظت برت أسلوب إيلين المختلف، خصوصاً عند وصولها إلى الصفحات الإنكليزية ولم تكمل القراءة.

وكأنّ برت أرادت أن أغادر البيت لتطلق لدموعها العنان. لبست ثياب العمل وخرجت بمظهر عاديّ جدّاً كما في كلّ يوم، فأبلغت النبأ إلى عائلتنا التي تحتلّ فيها أدال مكانة رفيعة من المحبّة والاحترام، وتدارسنا أمر إقامة قدّاس وجنّاز لراحة نفسها، كما هي العادات، إذ يعلن الكاهن النبأ في قدّاس الأحد، على أن يكون موعد الجنّاز في الأحد الذي يليه، وتكون الدعوة عامّة للمشاركة.

وبعيداً عن هذه العادات والتقاليد ودلالاتها، فإنّ الحزن والتأثّر يبقيان أملاكاً خاصّة لمن يعنيه الأمر، وهكذا طُويَت تلك الصفحة الناصعة البياض، وبقيت صورة معلّقة في بيتي دون سواه. وبقيت إيلين وحدها في مواجهة مجتمع جديد كلّ الجدّة، فأدال كانت قد رافقتها منذ ولادتها وحتّى خروجها من بيتها عروساً معزّزة مدلّلة، وكانت لها خير الملجأ والمرشد الأمين، وخير تعويض عن الحب الذي افتقدته في البعد عنّا.

أمّا شقيقتيّ الكبيرتين، وديعة ونسيبة، فكان بينهما وبين إيلين عشرات السنين، وأهل راي ولدوا وعاشوا حياتهم في أميركا في ظروف بعيدة عن ظروف مجتمعنا ومفاهيمنا، وبنوا حياتهم هناك واستمرّوا عائلة كبيرة من مشارب مختلفة، فرضتها ظروف البيئة والحياة. لكنّ والدة راي، لوسيل سماحة شلهوب، أحبّت إيلين جدّاً للتقارب في قوّة الشخصية وسرعة الخاطر، اللذان ساعدا إيلين على تخطّي الكثير من المصاعب.

6. الزحف الأسود

في مشغرة، كنّا نشعر، برت وأنا، بالألم والضيق، من الظروف التي تتحكّم بنا من جرّاء حرب صار عمرها سبع سنوات، ونتحمّل كغيرنا دون أن يكون هناك أيّ مؤشّر على انفراج الأزمة. وركّزنا جهودنا على مساعدة كميل لتأمين الحدّ الأدنى للاستمرار، وهو من جهته، توسّعت صداقاته ونشاطاته، وصار الوقت هو العامل الرئيسي في تحسّن إنتاجه.

في تلك الأثناء، صرنا نتلقّى إشارات تفيد عن قرب عودة روبير ورفاقه، وصرت أحسب لهذا ألف حساب، ولمستقبله وحياته، وليس في اليد حيلة، وتسارع الأحداث يسبقنا ليضعنا أمام أمر واقع علينا التعامل معه وفيه، شئنا أم أبينا. وعاد روبير، وفرحنا جدّاً بالأوقات الحلوة بوجوده معنا، وبوجود كميل في أيّام العطل، ولكن لم يطل مكوث روبير في البيت، وأصبحت فترات غيابه تطول إلى الأسبوع أو الأسبوعين، نراه بينها لساعات قليلة، وصبرنا راضين بما قُسم لنا،على أمل أن تأتي أيّام أحسن.

وانقضى عام 1981، وكان هذا الوضع بين مدّ وجزر، قد أثّر على صحّة برت وعينيها من ارتفاع ضغط الدم، وبدأ العلاج الدقيق والمستمرّ عند الدكتور الباليكي في جب جنّين. وفي تلك المرحلة كانت قد بدأت أخبار الحشود العسكرية في الجنوب وتوقّعات الحرب، تملأ الصحف اليومية ووسائل الإعلام المسموع والمرئي، ووجوه

النــاس متجهّمــة وكــلٌّ يحســب للآتــي، بقــدر ظروفــه، وخلفيــات علاقاتــه السياســية والاجتماعية، وانتشرت حمّى ارتفاع أسعار الحاجيات التموينية، إلى أن صار الحديث عن قرب هجوم محتمل لإسرائيل، حديث الناس اليومي.

*

ويصل حزيران 1982، ومشغرة غير بعيدة عن "الحدود"، بدأنا نسمع عن هجوم على أماكن قريبة، ثم ابتدأ القصف المدفعي على قرية عين التينة التي تبعد ستّة كيلومترات فقط عن مشغرة، وتحديداً في صباح الخامس من حزيران، استفقنا على أصوات قذائف مدفعية في خراج مشغرة من الجهة الجنوبية، وكنّا في اليوم السابق قد شهدنا أعداداً كبيرة من قوّات منظمة التحرير الفلسطينية، باللباس العسكري، تنسحب إلى الشمال، علماً بأنّه لم تكن في مشغرة أيّة مكاتب للمنظّمة. ومع تقدّم النهار، وبالرغم من عدم وجود أيّ مقاومة، شهدنا الطائرات في فترة قبل الظهر، تلقي شتّى أنواع القنابل وحيث تشاء، ومدفعية الدبّابات تطلق نيرانها على أيّ شيء يتحرّك، ولو كان عصفوراً على شجرة، وسقطت قذيفتان كبيرتان مدمّرتان من الطائرات على الوسط التجاري في البلدة، وبعد الظهر، ومع دخول الجنود المشاة، أصبح القسم الشمالي من البلدة، يعج بالجنود والآليات.

القذيفتان الكبيرتان، نزلت إحداهما على مؤخّرة مبنىً يملكه نايف ابراهيم غطّاس، مؤلّف من ثلاث طوابق من الإسمنت المسلّح، الطابق الأرضي فيه مفتوح من الجهة الشرقية فقط، وفيه محلاّت على الشارع العام وهو مغروس في أرض جبلية صخرية تحيطه من جهاته الثلاث، ففتحت هذه القذيفة فتحة بقطر ثلاثة أمتار في الطبقات الثلاث، وتضرّر من جرّائها بيت قديم وكبير من الحجر، كنّا نسكنه سابقاً، ويقع إلى الغرب من المبنى الأوّل، تفصله عنه طريق، يملكه الحاج بطرس قرقش، كما تشوّه حائط الكنيسة الشرقي مع بعض أضرار في السقف. والقذيفة الثانية لم تبعد أكثر من عشرين أو ثلاثين متراً إلى الشمال الشرقي، فأصابت مبنىً مستطيلاً كأنّه ثلاثة بيوت

متلاصقة، يملكه فارس عبّودي، ويقع بجانب مبنى البريد الحديث، فاختفى ذاك المبنى وتساوى مع ما يحيطه من الأرض.

7. موت رخيص، لفرح رخيص

في هذه الأثناء، وفي خضمّ مايحدث من دمار، نزلت إحدى السيّدات، واسمها أنطوانيت، زوجة شربل شربل، إلى الشارع، وهي تحمل صينية كبيرة، عليها أكواب المرطّبات التي أعدّتها، وقدّمتها، مرحّبة، إلى الجنود اليهود المحتلّين، المتواجدين قرب بيتها، حيث تسكن في مبنى جديد يملكونه، ويقع على مفترق طرق على الطريق العام، ويطلّ على محطّة بنزين وشبه ساحة كبيرة من الشرق.

وبعد ساعتين، ويبدو أنّ السيّدة أنطوانيت لم تستطع كبت فرحها بما فعلت، فأرادت إشراك الجيران والأصحاب به، ونزلت من البيت رغم احتجاج زوجها ومعارضته، بحجّة أنّها تريد تفقّد محلّ الأحذية الذي يملكونه في وسط البلدة، والمسافة ليست قصيرة، والمحلاّت مقفلة، ومن النادر مشاهدة أيّ إنسان خارج منزله، فقامت بجولة على جيران البيت والمحلّ، وكلاهما في محلّة العين الكبيرة قرب الكنيسة، تهنّئهم بالسلامة، و"بما حدث"!. وقاربت الشمس على المغيب، فألحّ عليها بعض الجيران بالمبيت عندهم، تجنّباً لما قد يحدث في مثل هذه الظروف، ولكنّها أصرّت على العودة إلى بيتها، والقيام ببعض الزيارات في طريق عودتها، وفي نهاية مشوارها رافقها جارهم فارس برشان، وكان في محيط منزلهما، وحين أصبحا على مقربة من البيت، تصادف مرور وحدة عسكرية إسرائيلية مؤلّلة متّجهة شمالاً، فداست آخر دبّابة من القافلة على عبوة ممّا تزرعه القنابل العنقودية، ودوّى صوت انفجار لم يؤثّر بالطبع على الدبّابة التي واصلت طريقها. وكان فارس وأنطوانيت يختبئان في هذه الأثناء خلف أحد البيوت، في حين يلزم الدبّابة مترين لتختفي عن ناظريهما، وعندما أطلاّ لمتابعة السير، لمحهما الجندي في مؤخّرة الدبّابة، وأطلق النار باتّجاههما فوراً،

فسقطا يتخبّطان في دمائهما. ومرّت فترة، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منهما، وخيّم الظلام، وتعذّر استدعاء طبيب، فماتا ينزفان.

8. سحابة سوداء

كان قد سقط رجل آخر، بيته عند المنعطف، حين خروجه لحظة وصول الدبّابات الإسرائيلية، فعاد راكضاً، لكنّ الرصاصات أدركته فخرّ صريعاً أمام باب بيته. ثمّ وصل مجموع القتلى إلى عشرة، فيما بعد، من حوادث متفرّقة من بقايا المتفجّرات.

بعد أيّام، وصلت القوّات الإسرائيلية إلى منطقة عمّيق في البقاع، وإلى طريق عامّ بيروت – دمشق في الجبل، وإلى مشارف بيروت على الطريق الساحلي، وخلال الأيّام الفائتة تعطّلت الكهرباء والهواتف، وانقطع اتّصالنا بالعالم الخارجي، بينما كانت شاشات التلفزيون في كلّ أنحاء المعمورة، تنقل صور الاجتياح وأخباره، وكنت أدرك مدى انشغال بال إيلين في أميركا علينا، فكان لابدّ من إيجاد وسيلة لطمأنتها.

عدت لمتابعة عملي في محلّي، على الطريق العام، الذي أصبح كالأرض المفلوحة بفعل (جنازير) الدبّابات التي تمّر ذهاباً وإياباً دون انقطاع، وكانت رائحة الدجاج المشويّ والمقليّ والمطبوخ تزكم الأنوف، إذ أنّ معظم الناس، خوفاً من أزمة تموينية، خزّنوا كمّيات منها، ولكنّ انقطاع الكهرباء أرغمهم على التهامها قبل أن تفسد دون تبريد. لم تحصل أزمة تموينية، وعادت الأفران تموّن الناس بالخبز، وفتحت المحلاّت مثل السابق، لكنّ الاتّصالات بقيت مقطوعة. وكنت ألاحظ مرور السيّارات العسكرية طوال النهار في الطريق العام الذي يتّسع لمرور سيّارتين في الاتّجاهين، فكتبت رسالة مختصرة لإيلين، أطمئنها أنّنا بخير، والدتها وأنا، وبطريقة تفهم منها وحدها، أنّ كميل وروبير ليسا في مشغرة، وتحيّنت فرصة توقّف سيّارة جيب عسكرية مكشوفة فيها بعض جنود الاحتلال، أمام محلّي، فتقدّمت منهم، على أمل أن تكون

المحاولة ناجحة، وسألتهم بالإنكليزية إذا كان من الممكن تكليفهم بإرسال الرسالة إلى الولايات المتّحدة، فكان الجواب بالقبول، وأعطيتهم الرسالة وثمن طابع البريد نقوداً لبنانية فضّية، وكم كان عجب إيلين حين وصلتها رسالة عليها ختم بريد من إسرائيل. وسرعان ما فهمت الأمر، وأرسلت لكميل تخبره بتسلّم الرسالة، مبدية استعدادها لتلبية ما قد نطلبه منها.

*

علمنا بعد أيّام أنّ بالإمكان الوصول إلى بيروت عن طريق جزّين – صيدا، فتهيّأت لأوّل فرصة، وأتت في اليوم التالي، إذ كان عصام ابن أخي أنيس ذاهباً إلى هناك، فنزلت معه في سيّارته الـ "فولكسفاكن"، ومن الجيّة حملنا خضاراً وفواكه وخبزاً وغيرها من الحاجيات، وتابعنا، وعند وصولنا إلى حاجز خلدة، مُنعنا من العبور لأنّ ما نحمله مكشوفاً يبدو وكأنّه للتجارة، فتراجعنا مسافة وتخلّصنا من بعض ما نحمل وأخفينا الباقي في صندوق السيّارة الضيّق، وتابعنا سيرنا، فعبرنا في اتّجاه محدّد إلى الدورة في "المنطقة الشرقية" حيث بيت سامي ابن أخي أنيس، وشقيق عصام، ثمّ قمت أيضاً بزيارة إلى بيت عمّي في جونية، وقرّرنا، عصام وأنا، المبيت في بيروت تلك الليلة بسبب التأخير الذي حصل معنا أثناء الطريق.

في المساء كنت في بيت سامي ابن أخي، وزوجته ريموندا أبو جودة، حيث يشعر المرء بالمحبّة الحقيقية والطيبة، خصوصاً في أوقات الشدّة والحاجة، وكان ذلك اليوم بداية حصار "بيروت الغربية"، وقصفها بكلّ أنواع الأسلحة المدمّرة. وكميل هناك، وكذلك ماري شقيقة سامي وعائلتها، وأيضاً شقيقة ريموندا وعائلتها، واشتركنا في انشغال البال والقلق، خصوصاً على كميل الذي لانعرف عنه شيئاً، وقضيت الوقت على شرفة البيت، أتطلّع باتّجاه أحياء بيروت الغربية، فلا أرى سوى سحابة سوداء من الدخان المنعقد فوقها، ويفور قلبي في صدري، وما إن أسمع رنين الهاتف، حتّى أركض إلى الداخل عسى أن يصلني خبر يطمئنني، إذ كنت قد سألت عنه

بواسطة الهاتف، ورجوت ممّن يعرف عنه شيئاً أن يبلغنا، إلى أن أتت مكالمة هاتفية في ساعة متأخّرة، تفيد أنّه شوهد اليوم، وكان يسأل عن شخص من مشغرة وهو بخير. هذا كلّ ما استطعت أن أطمئن نفسي به، فارتحت ما يقرب الساعة من الوقت، وطلع النهار وابتدأت الحركة، وبعد قدوم عصام وتناول الفطور على أصوات الانفجارات والقذائف، توجّهنا إلى مشغرة من حيث أتينا، لكنّنا منعنا من المرور عن طريق الحدث – الشويفات، فأخذنا الطريق باتّجاه عاليه ومنها جنوباً إلى عرمون فالدوحة فطريق صيدا، إلى مشغرة.

9. بين الحصار والتسلّل

وتزخر الأيّام بالأخبار من كلّ شكل ولون، ويأكلنا القلق على ولدينا اللذين لا نعرف عنهما شيئاً وسط تلك الأخبار المتضاربة، سوى أنّ كميل في بيروت تحت الحصار. وروبير مع الحزب.

وما أن فُكّ الحصار عن "الغربية"، بعد دخول الجيش الإسرائيلي إليها، ودارت المفاوضات لانسحاب قوّات منظّمة التحرير الفلسطينية، وصار بإمكاني الوصول إلى رأس بيروت، حتّى كنت هناك، أقصد كلّ الأماكن التي يتردّد إليها كميل، دون أن أتمكّن من رؤيته، وقلّما تجد أحداً يسير في الشارع، أخيراً توجّهت إلى بناية Perfect Home للشقق المفروشة، حيث شقّة الصديق الطيّب شفيق ناصيف، وحيث ينام كميل في غيابهم، وأخذت معي بضع سندويتشات ومياه للشرب، ولكنّي لم أجده، إذ قيل لي في مكتب الاستعلامات أنّه لم يأت بعد، وبقيت واقفاً أمام المدخل، أتمشّى حيناً وأجلس حيناً، وقد أعياني القلق والانتظار، وإذا بكميل قادم مع رفيق له، يتمهّلان في السير لاستكمال الحديث بينهما، ويضحكان وكأنّ الدنيا بألف خير، فأخذته بين أحضاني مقبّلاً لحيته السوداء الناعمة، بعد طول انتظار. وصعدنا إلى الشقّة واسترحنا وكلٌّ يروي ما جرى معه، وكنت في أشدّ الحاجة إلى النوم، من شدّة التعب والسير

طوال النهار.

وتخلّل الليل رشقات من الأسلحة الرشّاشة، تطلق من أماكن متعدّدة، وداعاً لمجموعات من منظّمة التحرير، التي تغادر بيروت حسب التسوية التي حصلت.

طمأنني كميل أن لا شيء يستوجب انشغال بالنا عليه، بل هو من يفكّر بنا، أنا وأمّه وأخيه، واتّفقنا على تبادل الأخبار بواسطة الصديق السائق محمّد الخطيب، الذي كان ينقل الركّاب إلى بيروت ومنها، ويوصل الرسائل والأغراض الخفيفة، وهو يعرف كلّ زبائنه وأماكن عملهم وبيوتهم. غادرت ظهراً عائداً إلى مشغرة، حيث أخبرت برت عن كلّ ما حدث معي، وكيف التقيت كميل في المساء، وكانت تخفي دموعها في حضوري كي لا تحمّلني أكثر ممّا بي، وصار همّنا الأوحد أن نعرف عن روبير شيئاً، فنسأل هنا وهناك، دون طائل، سوى أنّه مع الحزب، وفي أحد الأيّام وكنّا قد انتهينا من تناول الغداء وإذا بي ألمح رأس روبير من النافذة متّجهاً نحو باب البيت، مرتدياً قميصاً بالياً أزرق اللون، وسروالاً كبيراً يشدّه إلى وسطه بحبل، بدلاً من السير، وينتعل خفّاً بلاستيكياً، ركضنا إليه غامرين إياه بالقبل والدموع، وتصادف أنّ الشارع خالٍ من المارّين في هذا الوقت، إذ أنّ روبير كان يأتي متسلّلاً خوفاً من معرفة جنود الاحتلال بمجيئه، وهو معروف أنّه عضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي، ومع المقاومة، وبالتالي فهو مطلوب من قبلهم. وللحال بدأ تسخين المياه للحمّام، وإعداد الطعام من جديد، وكان يكفينا أن يكون بيننا، فلم نسأله شيئاً، حتّى استحمّ وتناول طعامه، وأوى إلى غرفته ليغطّ في نوم عميق افتقده طويلاً، وفي اليوم التالي صار يروي لنا أخباره على دفعات، للتخفيف من وطأتها. وفي إحدى زياراتي إلى بيروت لاحظت أنّ كميل مرتبك، ويتحاشى الحديث عن روبير، وحين ألمح أنّه لا يعرف عنه شيئاً، قلت له أنّ روبير في البيت في مشغرة، فهتف فرحاً:

– (صحيح؟) ودمعت عيناه، وصرنا نتشاور في إيجاد أفضل السبل كي يعود إلى متابعة دراسته التي توقّفت بعد نيله شهادة [البكالوريا التجارية] من مهنيّة مشغرة،

فضلاً عن وجوده في البيت في مشغرة ممّا يعرّضه للمخاطر، وبعد رجوعي إلى البيت، كان روبير قد استعاد نشاطه، فتدبّرنا ما يلزمه، وغادر إلى بيروت، ليتابع دراسته في الجامعة اللبنانية، في كلّية العلوم الاقتصادية.

10. على باب السفارة

في هذه الأثناء عاد البريد يصلنا دون تأخير، وكانت رسائل إيلين مطمئنة وتخبرنا عن حملها الأوّل، وفي إحدى الرسائل أخبرتنا عن موعد ولادتها كما توقّعه لها الطبيب في السابع عشر من كانون الثاني 1983، ودعتنا للذهاب إليها، واطّلع كميل على الرسالة فشجّعنا بقوله:

– (لا تحملوا همّنا، روحوا لعند إيلين)، وكان ذلك في الشهر العاشر أو الحادي عشر من عام 1982، وسعينا للحصول على جوازات السفر، وتمّ ذلك، وبقي الحصول على تأشيرة دخول من السفارة الأميركية، هو العقبة، ونزلنا، بعد إملاء الطلبات، إلى السفارة دون موعد، وانتظرنا دورنا هناك كغيرنا، إلى أن نادانا الموظّف وهو يقلّب في الجوازات والطلبات، وصار يسأل، بواسطة مترجمة، بعض الأسئلة الواردة في الطلب، وأنا أجيب الإجابات المكتوبة نفسها، وسألني:

– "من يموّل هذه الرحلة؟" فأجبته:

– "رشيد بركة"

– "هل تحمل معك دفتر البنك؟"، ولم أكن أتوقّع هذا الأمر، لكنّ الدفتر كان معي بالمصادفة، فقدّمته له، وكان الرصيد ضئيلاً، سبعة آلاف وخمسمائة ليرة لبنانية، فقال لي الموظّف:

– "ليس كافياً"، لكنّه ترك لنا فرصة أخرى إذ قال:

– "أحضر عقد الإيجار وأوراقاً تفيد عن عملك"، لم أجادله بل أخذت الجوازات وانصرفنا. واتّصلت بإيلين وطلبت منها تحويل مبلغ ألفي دولار إلى حسابي في

مصرف فرنسا بنك، لرفع الرصيد، على أن أسحب المبلغ، بعد الحصول على التأشيرة، وأرجعه لها معي. فوعدت بإنجاز المطلوب في النهار، إذ كان الوقت عندهم ليلاً.

في اليوم التالي استحصلت على إفادة عمل من مشغرة، وحين عدت إلى بيروت، ذهبت إلى البنك للسؤال عن التحويل، ولكنّ المبلغ لم يكن قد وصل، وسألت إيلين عبر الهاتف فقالت أنّها حوّلته في اليوم نفسه، فكان علينا الانتظار، وصرفنا نهاية الأسبوع في زيارات للأقارب، ثمّ وردني خاطر أن نذهب إلى القنصلية مجدّداً، فربّما نوفّق بالتأشيرة بعد تقديم الأوراق التي طلبها القنصل، وبالفعل ذهبنا في اليوم التالي، وحين جاء دورنا لمقابلة القنصل، وكنت أحمل الأوراق المطلوبة، لم يسأل عنها ولم ينظر إليها، بل ناولني الجوازات وعليها تأشيرة الدخول إلى الولايات المتّحدة الأميركية، قائلاً:

– "إدفع على الصندوق"، فتنفّست الصعداء، وأنهينا الإجراءات وخرجنا. وحين اتّصلت بإيلين وأخبرتها بما حصل، تبيّن أنّها حوّلت المبلغ خطأً إلى البنك اللبناني الفرنسي بدلاً من فرنسا بنك، ولكنّ المشكلة كانت قد حُلّت.

11. (كمِل النقل.. بالعجوز)

كانت تذاكر الطائرة يومها لم تزل رخيصة نسبياً، وحجزنا على شركة "عالية" يوم الأربعاء في التاسع والعشرين من كانون الأوّل عام 1982، وكانت أمّ كميل تسافر لأوّل مرّة بالطائرة، والمرحلة الأولى كانت إلى عمّان على طيران الشرق الأوسط، ومن عمّان على متن طائرة الجامبو الكبيرة، إلى فيينّا حيث توقّفنا هناك لمدّة ساعتين بقينا فيها في الطائرة، وهي فترة انتظار مملّة، إذ حصل تأخير أُضيف إلى فترة التوقّف العادية. وكانت قد انضمّت إلينا، من مطار بيروت، سيّدة مسنّة مسافرة بمفردها أوصونا بمساعدتها، فـ (كمِل النقل بالزعرور) وزيادة على ما معنا من أغراض، تكفّلت

بنقل حقيبة العجوز الكبيرة. أمّا في مطار "كنيدي" في نيويورك، ومعنا كلّ (كراكيبنا): ستّ حقائب وطرد مأكولات والعجوز وحقيبتها، فلم نجد تعقيدات في الجمرك، ولم تفتح الحقائب، فقط أعطونا البطاقة البيضاء التي تحمل الموافقة ومدّة الإقامة لستّة أشهر، وأمام مكتب "عالية" قيل لنا أنّ طائرة لوس إنجلوس قد غادرت، وفاتتنا بسبب تأخيرنا في فيينّا، وكنّا نحن الثلاثة فقط متوجّهين إلى لوس إنجلوس، فقالت لنا موظّفة شركة "عالية":

– "سوف نرسلكم على طائرة شركة أخرى"، وساعدنا موظّف من عالية، فحشرنا أنفسنا وحقائبنا في تاكسي إلى مكاتب شركة Eastern، ولكلّ شركة فسحة تساوي مطار بيروت مساحةً، وبعد إتمام الحجز، ساعدني موظّف من الشركة في وضع إشارة لوس إنجلوس على الحقائب، وإدخالها ووضعها على السير المخصّص لها، إلاّ أنّ رفيقتنا العجوز، وككلّ مرّة، رفضت أن تتخلّى عن رفقة حقيبتها، ويدور (الشحط) حيناً و(الدفش) حيناً إلى حيث تجلس. توجّهنا إلى الباب رقم 14، ولمحت شابّاً يستعمل أحد الهواتف، فسألته أن يطلب لي رقم إيلين، لأنّي لا أعرف كيف أتصرّف، فقال لي أنّه سيطلبها على نفقة المتّصل به، وهكذا حصل، وأجابني على الطرف الآخر والد صهرنا راي وكان ينتظر مكالمتنا، وأخبرته أنّنا سنصعد إلى الطائرة في الثامنة بتوقيت نيويورك، وأعطيته اسم الشركة ورقم الرحلة، وتابعنا إلى الباب رقم 14 الذي فتح بعد ساعة من وقوفنا، فصعدنا إلى الطائرة وأرشدتنا المضيفة إلى مقاعدنا، وانتظرنا ساعة أخرى إلى أن صعد الركّاب جميعهم، وبدأت الرحلة إلى لوس إنجلوس، وما أطول الطريق التي يسلكها المرء لأوّل مرّة، وبعد ستّ ساعات سبقتها أحد عشر ساعة من فيينّا، وصلنا أخيراً إلى لوس إنجلوس في الواحدة من صباح الخميس في الثلاثين من كانون الأوّل، وكنّا قد أمضينا أربعاً وعشرين ساعة دون نوم.

*

نزلنا من الطائرة ومشينا مع "الجمهور" في الممرّات إلى حيث الحقائب، ووجدت

رفيقتنا من كان بانتظارها، وكنت لا أزال في الممرّ حين تقدّم شخص منّي قائلاً بالعربية:

- "حضرتك رشيد بركة؟"
- "نعم ومن أنت؟"
- "جوزف عطا الله، صهر راي شلهوب"، وفي تلك اللحظة لمحت راي وعرفته من الصور، وعرفنا هو أيضاً من وصف إيلين، سلّمنا، وأصبحنا أربعة أشخاص، وسألتهم عن إيلين، فقالوا أنّها في انتظارنا، وصعدنا إلى سيّارة كاديلاك سوداء فخمة [ولكن دون حرس]، قطعت بنا الشوارع ونحن مثل (الأطرش بالزفّة)، واستغرق الطريق ساعة كاملة، إلى أن وصلنا إلى مبنىً كبير وقع نظرنا في مدخله على مغارة ميلاد متقنة، وفوجئنا بأنّه مستشفى مار يوسف، حيث إيلين كانت قد وضعت مولودها منذ خمس ساعات فقط، وكانت تنتظرنا بمفردها، إذ كان راي قد غادرها قبل ساعتين لملاقاتنا. صعدنا إليها متلهّفين وغمرناها بالقبل، مهنّئين بالسلامة، وكانت الفرحة فرحتين، باللقاء وبالمولود الجديد، الذي استعجل وأتى، ونحن مازلنا في نيويورك، وبعد الاطمئنان عليها، توجّهنا إلى الغرفة الزجاجية لرؤية ابنها ودلّنا راي على "غريغوري" حفيدي الأوّل، ثمّ استطعنا أن نراه عن كثب حين أحضروه إلى أمّه في الغرفة لترضعه.

غادرنا إيلين إلى البيت، وهو قريب من المستشفى، ولأوّل مرّة، هذا اليوم، أصعد إلى السيّارة ولا أمكث فيها طويلاً، إذ سرعان ما وصلنا وارتمينا على الفراش المعدّ لنا. ولم يخطر ببالي التغيير في المناخ والمحيط، الذي لم نختبره من قبل، ومدى تأثيره الكبير، فلم نستطع النوم عميقاً، بل وكأنّنا مازلنا في الطائرة، نوم متقطّع عند كلّ همسة أو حركة، والصهر معتاد على القيام باكراً بحكم عمله، لكنّه هذا اليوم في إجازة، فتركنا نرتاح وذهب إلى المستشفى ليكون مع إيلين والصبي.

كان سرور راي كبيراً كونه يستطيع التفاهم معنا بالإنكليزية، وكان قد أبلغنا أنّنا

مدعوّون إلى بيت أهله في المساء، إذ أصرّت والدته على أن تذهب إيلين لعندها، لكي تكون قربها وتساعدها في شؤون المولود، وأنّه سيقام حفل عشاء عندهم، بمناسبة رأس السنة، وبحضور أصدقاء وصديقات.

12. (الخواجة بيحكي غير شكل)

كان الحضور حوالي خمسة وعشرين شخصاً، كلّهم من لبنان، والأحاديث تدور بالإنكليزية يتخلّلها بعض الكلام بالعربية، لم يكن ذاك مريحاً بالنسبة لي، ولكنّي أستطيع المسايرة، وكان قد مضى على اجتياح إسرائيل للبنان ستّة أشهر، وأخباره ما تزال ساخنة، وكنت المرشّح الأوحد للكلام في هذا الموضوع كوني واصل (طازة) من لبنان، وتشكّلت حلقة من ستّة أو سبعة اشخاص، ودار الحديث، وكلّهم شغف لسماع أخبار جديدة، أو وجهة نظر مختلفة، وصار الكلّ يسأل وأنا أجيب، وكنت أعرف من طريقة طرح السؤال ميول سائله، فأجيب بطريقة لا تجرحه، ولا يستطيع منها أن يأخذ عليّ مأخذاً، بل أحرّضه على إعادة التفكير فيما يعتقده، وكان بين الحضور رجل لم ينضمّ إلى الحلقة، ولكنّه قربنا يستمع إلى الأسئلة والأجوبة، وفجأة وبين لغط الأصوات من هنا وهناك، سمعته ينادي زوجته:

- (سلوى، تعي اسمعي، الخواجة هون بيحكي غير شكل)، قالها بلهجة زحلاوية صرفة، وأتت سلوى لتنضمّ معه إلى الحلقة التي اتّسعت، وجاء دورهما بالأسئلة التي اختلفت نوعاً عن البقيّة، وتابعنا الحديث بالعربية فشاركتنا برت، وقد أعجبه أن نشجب، برت وأنا، الاحتلال الإسرائيلي من أساسه، ليس للبنان فقط وإنّما لفلسطين أيضاً، حيث ما يسري عليهم يسري علينا، بالعقلية والأسلوب والوسيلة نفسها، قتل وتدمير وعنصرية حاقدة، يقابلها جهل وتعصّب وأنانية، يريدها العدوّ أن تبقى، لأنّها تسهّل مهمّته بل تبرّر وجوده.

ولم يتردّد السيّد إميل أيّوب، وهذا هو اسمه، في إبداء إعجابه، لأنّها قناعته

أيضـاً، فكـان اللقـاء الأوّل كافيـاً لجعلنـا أصـدقاء، بعـد أن تعارفنـا أكثـر واتّضـح أنّـه (زحلاوي)، وزوجته من دمشق.

مع الأيّام صارت تتكشّف لي أحوال المغتربين، من أيّ منطقة كانوا، عن عدم الرضى عن أوضاعهم، والرغبة في العودة إلى الوطن، فما من مغترب إلاّ ويتمنّى أن يعود، وقد أحسست بذلك بعد عشرين يوماً من وصولي إلى أميركا، إذ ضاقت بي على وسعها وعظمتها ولم أشعر أنّها تعنيني بشيء، فقلت لبرت:

- (خلّينا نرجع عَ بيتنا)، ولكنّ برت كانت تشعر بحاجة إيلين إليها لمساعدتها في حضانة الولد، وكان لـ "راي" اليد الطولى في إبقائنا عندهم لمدّة ثلاثة أشهر، إذ كان يخلق [ليوم الغد] مشاريع وبرامج يشعرنا أنّها ضرورية، ويجب أن نبقى، ومرّت الشهور الثلاث، وكبر الولد وتعلّقنا به جدّاً، وصدق من قال: (ما أعزّ من الولد إلاّ ولد الولد)، أمّا إيلين فكانت تتمنّى إيقاف الزمن حتّى لا يأتي موعد الرجوع، وكانت فترة رائعة فعلاً، والحادث الوحيد الذي آلمنا في الصميم، في شباط 83، هو وفاة عارف بركة ابن عمّنا، وصهرنا زوج فكتوريا ابنة أخي وديع، في مشغرة، وكان في عزّ عطائه الذي لا يتوقّف، إذ كان يساعد في رفع الثلوج المتراكمة على إثر عاصفة ثلجية كبيرة اجتاحت لبنان آنذاك، حين زلّت قدمه وسقط عن سطح البيت. واستغرب صهرنا راي الحزن الشديد الذي تولاّنا حين وصلنا الخبر من مشغرة.

13. برفقة عجوز .. أيضاً

مضت الأشهر الثلاثة وحدّدنا يوم الرجوع وأكّدنا الحجز في نهاية آذار، وتبرّعت "مونيكا" زوجة فكتر ابن أختي نسيبة، بإيصالنا إلى المطار وتأميننا في الطائرة على شركة T.W.A.، إلى نيويورك، لنأخذ من هناك طائرة شركة عالية إلى عمّان.

من البيت إلى المطار تعرّفنا أكثر إلى "مونيكا" تلك السيّدة العظيمة، وهي يابانية، وقد كنّا معها كالأطفال تقودنا ببراعة، ورافقتنا إلى داخل المطار الذي كان

يخضع لورشة إصلاحات كبيرة وفوضى عارمة، وصلنا إلى حيث نأخذ التذاكر، وأخبرنا الموظّف أنّ هناك تأخير في موعد رحلة الـ .T.W.A، وأوشكت مونيكا أن تودّعنا وتتصرف، ولكنّي لفتّ نظرها لتتأكّد من أنّ التأخير لن يطول، فسألت وعادت لتخبرنا أنّنا سنغيّر الطائرة إلى أخرى من شركة "بان أميركان" وأنّها ستصل إلى نيويورك بفارق ثلاثة وأربعين دقيقة فقط عن موعد إقلاع طائرة عالية، ولم يكن في اليد حيلة، وأخذنا مكاناً لنجلس فيه ثلاث ساعات، وهناك تعرّفنا على سيّدة لبنانية تساعد أمّها التي ستسافر معنا في الرحلة نفسها، وأوصتنا بها، وهذه المرّة أيضاً كنّا ثلاثة ركّاب لبنانيين على متن الطائرة، وودّعتنا مونيكا، وكذلك فعلت ابنة رفيقتنا. ودخلنا الطائرة واكتمل الركّاب وانطلقنا، وبقيت على أعصابي طوال الرحلة، وأحسب أنّ ثلاثة وأربعين دقيقة غير كافية لإتمام المعاملات في مطار نيويورك، خصوصاً أنّنا برفقة من يعمل على إعاقتنا في الحركة كيفما تحرّك، وكانت رفيقتنا قد خلعت حذاءها أثناء الرحلة، وتعذّر عليها انتعالها حين الحاجة، فسارت معنا حافية، حتّى وصلنا إلى مكاتب شركة عالية في مطار نيويورك، ومرّة أخرى عدنا إلى السلالم المتحرّكة والممرّات الطويلة، إلى أن وصلت أنا أوّلاً، وطائرة عالية في انتظارنا، بعد الاتّصالات التي أجرتها إيلين مع الشركة، وشرحت لهم الموقف. وابتدأت رحلة نيويورك عمّان الطويلة.

في عمّان تجمّع الركّاب إلى بيروت في طائرة صغيرة ضاقت بمن فيها، حتّى أنّ البعض بقي واقفاً طوال الرحلة، وحين وصولنا، وبعد إتمام المعاملات، وجدنا كميل ورفيقه تمّوز في انتظارنا، فوضعنا الحقائب في سيّارة تمّوز، وانطلقنا إلى رأس بيروت، والمسافة قريبة، لكنّي لاحظت أنّ تمّوز لا يسلك الطريق الاعتيادية، بل طريقاً متعرّجة وطويلة، فمن هنا حاجز ومن هناك طريق مقطوعة، إلى أن وصلنا أخيراً إلى بيت نازك، شقيقة برت، وزوجة أنطون أبي منصور، في رأس النبع، وكانت هناك امرأة عمّي وابنتها الراهبة وروبير، وكانت سهرة طويلة. نمنا ليلتنا هناك، وفي اليوم التالي

جاءت عزّت زوجة رئيف ابن عمّي وابنتها رلى من جونية، وازدحم البيت بالمحبّين، إلى أن حان وقت المغادرة إلى مشغرة، ووصلنا في الثانية بعد الظهر إلى هدوء مشغرة بعد ضجيج الطائرات وضجيج بيروت، وهناك، وفي بيتنا، وعلى فراشنا، نمنا ملء عيوننا. وكانت ثلاثة أشهر في أميركا مثل الحلم.

في اليوم التالي، أتاني العمل عاجلاً، فحين نزلت إلى المحلّ جاءني بهجت محفوظ وحسن ابراهيم وطلبا منّي عمل طقم مقاعد "Louis 15" وتمّ الاتّفاق على الأجور، وناولني بهجت ثلاثة آلاف ليرة لبنانية لتحضير اللوازم.

14. ليلة القبض على روبير

كان الوقت في أوائل نيسان 83، وكان اللغط يدور حول الاتّفاق الذي سمّي فيما بعد اتّفاق 17 أيّار، والجوّ السياسي مشحون بالتناقضات، وهناك صعوبة في التنقّلات حسب أمزجة الواقفين على الحواجز. وسط هذه الأجواء كنّا كغيرنا نستخلص لقمة العيش بالمبادرات وسرعة الخاطر، ممّا يرهق العقل والجسم على السواء، وكان العمل الذي أوصاني به بهجت يستوجب الإكثار من الذهاب إلى بيروت لعدم وجود حفّار خشب في مشغرة على السويّة المطلوبة. وبعد جهد وزيارات إلى عدّة أماكن لرؤية البضاعة أثناء الشغل، سلّمت العمل لحفّار شامي اسمه جورج كردوس، وكان محلّه على خطوط التمّاس بين الضاحية الجنوبية وفرن الشبّاك، وحصل تأخير في المواعيد، إلى أن انتهى العمل أخيراً، فوضّبت الأغراض في أكياس، وعبر طريق طويلة وأسئلة كثيرة، تحمّلت منها ما تحمّلت من غلاظة السائلين، وصلت أخيراً إلى مشغرة وسلّمت العمل. وتوطّدت العلاقة مع بهجت الذي نفّذت له عملاً أكبر فيما بعد.

أمّا الأحوال الاقتصادية فقد شهدت ازدهاراً ملحوظاً في تلك الفترة، بالرغم من الجوّ السياسي المشحون والمؤهّل للتغييرات الجذرية، وشهدنا أيّامها جميع أنواع

العمالة القذرةّ التي كشفت نوايا أصحابها السيّئة وأفكارهم الغريبة، والتي لاقينا منها الأمرّين. والحالة العامّة تستلزم الحدّ الأدنى من الطمأنينة، وليس آليّات مدرّعة، وأسلحة معبّأة، والإصبع على الزناد، فكنّا نحسب أنفسنا سعداء إذا مضى يوم ولم نسمع فيه خبراً، أو نرى بأمّ أعيننا حادثة بشعة، سواء طالتنا نحن أو طالت غيرنا، على حدٍّ سواء.

*

وذات يوم، وكان روبير في البيت، وقد أطفأنا النور وأوينا إلى أسرّتنا، وإذ بنا نسمع وقع أقدام في الخارج وصوتاً يقول:

– "هنا"، قرع بعدها الباب، ففتح روبير، وإذا بضابط إسرائيلي ومعه ستّة جنود بأسلحتهم الكاملة وجهاز لاسلكي، سأل:

– "أين روبير"، فأجابه روبير:

– "أنا"

– "تفضّل معنا، وستعود حالاً"

– "هل أستطيع تغيير ملابسي"، وسمح الضابط بذلك، ودخل معه جندي إلى غرفته صار يفتّش في أغراضه بينما ينتهي، حينها سألت الضابط بالإنكليزية:

– "What shall I do?"، ماذا عليّ أن أفعل؟، فأجاب بلهجة صارمة:

– (بحكي عربي أحسن منّك، اجلس وسيعود حالاً). وحاول روبير التخفيف عنّا بقوله:

– (ما بطوّل، هلّق برجع)، وانصرفوا.

كانت ليلة غارت فيها عيوننا في محاجرها من القلق المصحوب بتوتّر الأعصاب، وتوقّع الشر في كلّ دقيقة من دقائق الليل ثمّ النهار الذي يليه، تبعها أسبوع كامل بالحالة نفسها، لم نترك خلاله وسيلة لمعرفة ماذا حصل أو يحصل مع روبير. ويوم الجمعة قصدت "الصليب الأحمر الدولي" في صيدا، وبعد حديث مطوّل

مع المسؤولة، تبيّن لي أن لا خير يرجى من مسعاي. ومن ناحية أخرى، أخبرني أحدهم أنّ روبير مع غيره، في ثكنة النبطية، فقصدتها طالباً مقابلة المسؤول العسكري، فقيل لي أنّ اليوم هو الجمعة، وصار الوقت بعد الظهر، والمسؤول في عطلة السبت.

وعدت إلى مشغرة والهمّ يكاد يقتلني، وسألني أحد الجيران:

– "هل كلّمت فارس الحاج بالأمر؟" وكان هذا مسؤول حزب الكتائب في مشغرة، فكانت إجابتي الفورية:

– "إذا كان فارس يستطيع أن يفعل شيئاً فيجب أن يفعله من تلقاء ذاته، أمّا أنا فلن أذهب إليه في أسوأ الاحتمالات" وكنت أعني ما أقول تماماً.

وصباح الأحد، وكنّا نتشاور، أم كميل وأنا، فيما يمكن أن نفعل في الغد، وإذا بروبير يطلّ قادماً علينا، وركضنا إليه في استقبال حارّ بالقبل والدموع، بين الفرح والقلق، وكانت تلك المرّة الثالثة التي يعود فيها روبير ونحن في هذه المشاعر، كمن يتناوب النار والثلج، وكلاهما مؤذٍ ومؤلم.

15. كيف نجا روبير

تلتها أيّام وروبير كمن يمشي في حقول الألغام والأسلاك الشائكة، وكنت ألمح في عينيه القلق والحذر الشديدين، وصار لا بدّ من إبعاده عن المنطقة كلّها، لأنّهم إذا ما اعتقلوه ثانية فلن تمّر بخير هذه المرّة، وتمّ ترتيب كلّ شيء، وما إن أطلّ الأسبوع التالي، وخلال دقائق في الصباح الباكر، كان روبير مغادراً المنطقة إلى بيروت، التي كان اليهود قد انسحبوا منها، وهي أكثر أماناً من مشغرة التي مازالت تحت الاحتلال، وعلمت فيما بعد، أنّ روبير ومن معه من ركّاب سيّارة الأجرة التي استقلّها باسم مستعار، قد اجتازوا المسافة بين آخر الدوحة ومفرق خلدة تحت الرصاص، إذ كانت معركة الجبل قد اشتعلت.

انتظرنا أسبوعاً، حضّرت خلاله أمّ كميل مؤونة تكفي لأسبوع أو أكثر، ونزلنا إلى بيروت، على أن تبقى هي مع كميل وروبير، وعدت أنا إلى مشغرة حيث كان العمل ضاغطاً. وكان روبير قد استحصل على جواز سفر بدل عن ضائع، وقد اتُّخذ قرار تسفيره لعند إيلين في الولايات المتّحدة الأميركية، إذ كان بقاؤه في البلد خطراً عليه وقد صار له ملفّاً عند العدوّ الإسرائيلي. وشغلنا كلّنا في أمر السفر، ونزلت ثانية إلى بيروت لشراء بعض اللوازم، فأرسلت الأغراض إلى محلّ كميل عبّود في مشغرة، وبقيت هناك لأتفرّغ في اليوم التالي لمساعدة روبير. وفي اليوم التالي أفقت باكراً، وقد اتّفقنا أن نكون أمام السفارة الأميركية في الصباح الباكر لنحجز مكاناً في صفّ الدور، وتأخّر روبير في الحضور، إذ كان نائماً عند صديقه حسين صادر ليخلي مكانه لي عند كميل، وعند السابعة أتى هو وحسين، فانطلقنا، وأنّبتهما على التأخير، حتّى سائق "السرفيس" الذي أقلّنا، أكّد أنّه كان علينا أن نبكر أكثر إلى السفارة، وحين وصلنا إلى محلّة عين المريسة حيث تقع السفارة، وجدنا صفّاً من البشر بطول خمسمائة متر تقريباً، من بابها، غرباً على كورنيش البحر، وأخذ روبير مكاناً في الصف لعلّ الحظّ يسعفه ويصل دوره، ووقفت أنا وحسين على الرصيف المقابل مع الواقفين بكثرة هناك، ثمّ رأيت أنّ الذهاب لقضاء بعض الأمور خير من الوقوف في الشمس، خصوصاً أنّ حسين معه، فتركتهما وأسرعت في غرضي، وسبقتهم إلى البيت لآخذ قسطاً من الراحة، ولم يطل الوقت حتّى سمعت أصوات روبير وحسين وضحكهما يملأ المكان. وأخبرني روبير ما حصل قائلاً:

- "أتى موظّف السفارة لجمع الجوازات والطلبات من الواقفين، فوضعت داخل جوازي مائتي ليرة، وأعطيته إيّاه، (رسم الفيزا مائة وعشرون)، وحين عاد صار يوزّع الجوازات على أصحابها بالأسماء، ووصل دوري فأخذت الجواز ومشيت دون اكتراث، على أساس أنّ النتيجة واضحة ممّا كنت قد سمعته من السباب والشتائم ممّن استلموا جوازاتهم قبلي دون تأشيرة، ثمّ وأنا أتحسّس الجواز، لاحظت أنّ فيه سماكة أكثر من

ذي قبل، وحين فتحته تبيّن لي أنّها الأوراق النقدية بقية المائتي ليرة، وإذا بتأشيرة على جوازي تصلح لخمس سنوات". وهلّلنا فرحاً، وشعرت بارتياح عميق لسير الأمور على ما يرام، فقد كان وضع روبير يشغلني كثيراً.

عدت في اليوم التالي إلى مشغرة لمتابعة الأشغال المتراكمة، وكانت تلك العائدة لبهجت قد انتهت بمعظمها، وأنا بحاجة لنقود، لكنّي فضلت ألاّ أطلب منه مالاً قبل التسليم الذي ما زال يحتاج لبعض الوقت، وزارني الصديق الطيّب ريشار غطّاس، وسألني عن أحوالي، فأخبرته عن الأمر، وطلبت منه ستّة آلاف ليرة لاحتياجات تذكرة السفر وغيرها لروبير، فأبدى استعداده، وفي صباح اليوم التالي أتاني بالمبلغ. وعدت إلى بيروت لإيصال المبلغ، والعودة مع أم كميل إلى مشغرة، بعد أن تكفّل كميل وروبير بتأمين التذكرة بعد السؤال في شركات الطيران واختيار الأنسب. وفي نهاية الأسبوع أرسل كميل خبراً مع صديق ليخبرنا بموعد سفر روبير على خطوط "عالية"، وكان صباح الخميس، فنزلت من مشغرة إلى بيروت، ثمّ إلى المطار مع روبير وكميل ورفيق لنا في سيّارته، وودّعنا روبير الذي اتّجه إلى مكتب الأمن العام، ثمّ اجتازه إلى قاعة المسافرين، حاملاً حقيبته على ظهره، والغيتار بيده.

في طريق عودتنا إلى بيروت سمعنا جميع أنواع الانفجارات والأسلحة، وكان ذاك اليوم من أصعب الأيّام، ولكنّا عرفنا فيما بعد، أنّ الطائرة إلى عمّان أقلعت بسلام، وفي اليوم التالي تماماً أُغلق المطار، ودام إغلاقه مدّة غير قصيرة.

حين عدت إلى مشغرة بعد الظهر، كانت حدّة الاشتباكات قد خفّت في محيط المطار، ووصلت إلى البيت، ولا أدري كم من الأفكار كانت تدور في رأسي، تتصادم وتتشابك. طمأنت أم كميل عن سفر روبير، وبعد يومين اتصل معنا هاتفياً من بيت إيلين، وصرنا بانتظار رسالة مطوّلة منه ليطمئننا عن أخباره والتطوّرات المحتملة.

*

انهمكت بالعمل متمنّياً ألاّ تحصل ظروف تعيقني، محاولاً ترتيب المواعيد التي لم

أتعوّد الإخلال بها، إلاّ مرغماً، ولكن أنّى لي ذلك؟ والأحداث مسرعة لا أستطيع تجاوزها، بل تفرض الانتظار و التريّث، ريثما تمرّ الأزمات. هكذا انقضت تلك الأيّام في اقتناص الفرص، لتجاوز مشاكل كلّ مرحلة والاستعداد لما بعدها. أمّا الأحوال السياسية والاجتماعية، فقد كانت تغلي على مرجل ينذر بالانفجار في أيّة لحظة، هذا ما كان يقع تحت ناظريّ كلّ يوم في مشغرة، وما تحبل به الأيّام من حقد وضغينة بين أبناء الوطن الواحد، تنذر بأوخم العواقب. وكم بحّ صوتنا ونحن ننذر ونحذّر أنّ دوام الحال من المحال، وأنّ العلاقة الاجتماعية والتصرّف الإنساني، لا يجوز أن يبنى على ظروف عابرة ومعطيات مغلوطة وضيّقة، لكنّ القوى المعاكسة لهذه التوجّهات، وخصوصاً الطائفية منها، كانت قد قطعت أشواطاً بعيدة في زرع بذور التعصّب والتفرقة، وكلّ ما من شأنه أن يهدم الوحدة الاجتماعية، مدعومة بالمال والسلاح بلا حساب. وأينع الزرع وحان موسم القطاف، وانسحبت "إسرائيل"، وبدأ كلّ فريق يجمع غلاله، فكان أنّ الذي يزرع الريح يحصد العاصفة، وإن اختلفت النهايات، وقد علّمنا التاريخ أنّ ما يبقى هو الحقائق الأزلية التي تحمل في تكوينها عناصر بقائها واستمرارها، وإن بدا للبعض، بفعل غسل الأدمغة، عكس ذلك.

16. بدأ القلب ينذر

في عامي 1984 و1985 كان للضغوطات التي رافقت الأحداث من بدايتها تأثير سلبي، وإن بشكل غير مباشر، ففي أحد الأيّام، أواخر صيف الـ 84 عدت إلى البيت بعد انتهائي من عملي، وبعد العشاء، أمضيت كعادتي سهرة قصيرة في البيت، إذ قلّما نخرج بسبب الأحداث، وغفوت على مقعد أمام التلفزيون لمدّة عشر دقائق، استيقظت بعدها على وجع مؤلم بين الكتفين، خطر لي في البداية أنّه بسبب وضع غير مريح، ثمّ تمشّيت إلى الحمّام والألم يتحرّك بصورة تصاعدية، فامتدّ أوّلاً إلى الكتف الأيمن، ثمّ إلى الأيسر، وصاحبه ضيق في التنفّس، فقلت لأم كميل:

- "إنّ ما يحصل معي أمر غريب لا أعرف ماهو، ولا شعرت بمثله من قبل"، وأخبرنا الدكتور سالم أبو خليل بواسطة الهاتف، وأسرعت أم كميل لتطلب من جارنا طوني الدبس أن يحضر الطبيب بسيّارته، اختصاراً للوقت، وحضر الطبيب برفقة زوجته، وهي صديقة لنا أيضاً، وبدأت أشرح له ما شعرت به، فعرف الوضع للحال، وقال:

- "لن أتهاون بالأمر، فأنت عزيز جدّاً علينا" وفهمت من حديثه خطورة الموقف، وأصغيت لتعليماته التي كان أوّلها تعليق المصل، إضافة إلى الأدوية التي حقنني بها في الوريد، وحضر المصل وقامت جارتنا الممرّضة بتعليقه بإشراف الدكتور الذي صرف معي ثلاث ساعات كاملة، ولم يغادر إلاّ وهو مطمئنّ إلى سلامة وضعي.

نمت بفعل المهدّئات والأدوية، وحين استفقت صباحاً شعرت بضعف شديد ودوار، فاتّصلت بالدكتور سالم وأخبرته عن حالتي، فكان ردّه:

- "لا تتحرّك كثيراً، وابق اليوم مرتاحاً، وغداً تذهب إلى الطبيب المختصّ سليمان كنعان"، وعملت بنصيحته، وفي اليوم التالي ذهبت إلى الدكتور كنعان في جزّين، بسيّارة خليل الصايغ، وبرفقة فؤاد ابن أخي أنيس، وفي طريقنا توقفت أمام بيت الدكتور سالم، وصعدت لأخبره أنّي ذاهب إلى الطبيب كنعان، لكي يتّصل به ويتفاهم معه، وتعجّب من صعودي درج بيته وحذّرني من الإجهاد، ولم أكن قد أدركت بعد أبعاد ما حصل معي.

وتابعنا إلى جزّين فلم نجد الدكتور كنعان في عيادته، وقيل لنا أنّه في عيادته في عبرا إحدى ضواحي صيدا، تبعناه إلى هناك فلم نجده أيضاً، فتابعنا إلى صيدا حيث أرشدونا إلى المبنى الكبير حيث تقع عيادته في الطابق الرابع، وما إن استقلّينا المصعد، حتى انقطع التيّار الكهربائي، فتابعنا صعوداً على الدرج؛ بعد انتظار قصير، دعتني الممرّضة لإجراء تخطيط للقلب، وما إن بدأنا حتّى انقطع التيّار الكهربائي ثانية، وانتظرنا إلى أن عاد، لمتابعة التخطيط؛ وأخيراً وقفت بين يدي

الدكتور كنعان، وأسمعته الحكاية من أوّلها، فأجرى الفحص التقليدي وقرأ التخطيط، لكنّه لم يبادر إلى كتابة وصفة كما توقّعت، بل أعطاني تحويلاً إلى مركز لبيب أبو ظهر الطبّي.

17. (أطرش بالزفّة)

توجّهنا فوراً إلى هناك، كان بناءً حديثاً منظّماً من أربع طبقات، استقبلتنا موظّفة الاستقبال في مكتبها، وليس معنا سوى ورقة الدكتور كنعان الصغيرة، ثمّ غابت قليلاً لتعود مع ممرّضة أرشدتنا إلى غرفة قريبة في الطابق نفسه، تحوي مقعداً طويلاً، وسريرين أشارت إلى أحدهما، وانصرفت، وترقّبت عودتها، فلم تعد، فنزعت ثيابي ووضعتها في الخزانة، واستلقيت في فراشي أنتظر ما سيأتي، وأنا في وضع اعتيادي دون أيّ ألم أو شكاية من شيء.

ومرّ الوقت، ولم تأتِ إليّ ممرّضة لتتكلّم معي أو ترشدني، فتصرّفت تلقائياً، وطلبت من خليل أن يذهب إلى السوق ويشتري لي "بيجاما" ومنشفة، لأنّي بقيت بالملابس الداخلية فقط، وذهب خليل، وطال غيابه، في هذه الأثناء أتى ممرّض يدفع كرسياً على عجلات، وقال:

- "تعال معي إلى غرفة تصوير الأشعّة"، فنزلت من السرير وأنا شبه عارٍ وسألته:

- "هكذا؟"، فأجاب:

- "أجل هكذا، تفضّل"، وتفضّلت، على الكرسي، ثمّ إلى غرفة التصوير الذي لم يستغرق سوى دقائق، للقسم الأعلى من الجسم، الصدر والظهر، وأعادني الممرّض إلى الغرفة، ومن حسن حظّي أنّ الطقس كان حارّاً. ومضى من الوقت ما يقرب الساعتين وأنا أتحدّث مع فؤاد، وصرت أتسائل عن سبب وجودي هنا، وأنا أشعر أنّ باستطاعتي الوصول إلى مشغرة ماشياً، وعاد خليل ومعه الأغراض، وقد أعياه

التفتيش عن محلّ غير مغلق، بسبب وقفة عيد الفطر، لبست "البيجاما" وشكرت خليل على جهوده وطلبت منه العودة إلى مشغرة، ورجوته أن يطمئن أم كميل.

كان يومها الجمعة، وحسب قول الدكتور كنعان كان عليّ المبيت ليلة أو ليلتين، وبقيت أنا وفؤاد ابن أخي. وعادت الممرّضة السيريلانكية السوداء وهي تحمل عدّتها هذه المرّة، وتوقّعت أنّها لا تتقن العربية، وسرّها أنّي أتكلّم الإنكليزية، وتفاهمنا، وسألتها أن تشرح لي شيئا، لأنّني لا أفهم ما يجري، فأجابت:

– "حالة مؤقّتة، ما في خطر"، وتابعت عملها في تحضير الحقنة، وكشفت عن عضدي وشعرت بوخزة دبّوس خفيفة، ممّا يدلّ على براعتها، وطمأنتني بكلمات لطيفة وابتسامة كشفت عن أسنان بيضاء كالثلج، وانصرفت.

بعد قليل حضر العشاء فأكلنا أنا وفؤاد، وما لبث هو أن تمدّد على المقعد الطويل، وراح يغطّ في نوم عميق، ويشخر طوال الوقت. حاولت بدوري أن أنام فلم أفلح، وصرت أتقلّب، وبعد قليل دخلت الغرفة سيّدتان، ورأيت إحداهما تحضّر حقنة، فأخبرتها أنّ زميلتها السيريلانكية حقنتني قبل قليل، لكنّها لم تجب، بل كشفت عن عضدي الثاني وأدخلت إبرتها بشكل عمودي، ممّا آلمني جدّاً وأحسست كأنّ الإبرة وصلت إلى العظم، ولم أنبس ببنت شفة، ثمّ أخذت إبرتها وانصرفت، دون أن تفتح فمها بحرف هي ومساعدتها، وتكوّن لديّ انطباع أنّ هذه المرأة أتت لتؤذيني فقط، وقرّرت إن هي عادت، أن أرفضها وأرفض المستشفى.

*

وكانت ليلة ليلاء، لم يغمض لي جفن فيها ولم أستطع البقاء في وضع أكثر من دقائق معدودة، وكانت الحاجة إلى التبوّل ملحّة ومتتالية، ممّا استلزم قيامي إلى الحمّام الملاصق كلّ بضعة دقائق، ولم أصدّق طلوع الفجر حتّى أغفو قليلاً، وأفاق فؤاد من نومه، بل من شخيره، إذ كان يعاني من زكام قويّ، أمّا أنا فلم يعد يهمّني من يدخل ومن يخرج، وأريد أن أرتاح فقط.

وحضرت "الترويقة" التي تكفي عصفوراً شبعاناً، شربت منها الشاي، وبقيت في انتظار الدكتور كنعان الذي لم يحضر ذلك اليوم، وقبل الظهر بقليل جاء الدكتور أبو ظهر، صاحب المؤسّسة، ومعه اثنان، وقفوا جميعاً قبالتي، وأنا في السرير، وسألني أبو ظهر:

– "كيفك؟"

– (شوفة عينك)، واستدار الثلاثة وخرجوا من الغرفة تاركين إيّاي مثل الأطرش في الزفّة، دون أن أعرف من هم ولماذا جاؤوا. وبقيت منتظراً الدكتور كنعان دون جدوى، وانقضى يوم السبت دون [إبر] واقتصرت المعالجة على بعض الحبوب أحضرتها السيريلانكية. صباح الأحد استفقت على حركة ممرّضات في الغرفة، وكان فؤاد قد استيقظ منذ بعض الوقت، وتحرّكت لأجد نفسي بكامل النشاط والقوّة، وكأنّها [شوكة وانقلعت]، فقفزت من السرير ودخلت الحمّام، وعدت لارتداء ثيابي، وقد استغرب فؤاد نشاطي، فقلت له:

– (أنا صحّيت، ما بني شي)، ثمّ أتت "الترويقة" وفي هذه المرّة مسحتها كلّها، وكان خليل قد وصل من مشغرة وانضمّ إلينا، وسرّه الوضع الذي أنا فيه، وجلسنا نحن الثلاثة كزوّار في المستشفى، وما لبث أن حضر الدكتور كنعان حوالي الساعة العاشرة، فبادرته فوراً بالكلام:

– "أريد أن أذهب إلى البيت"، فقال:

– "تفضّل"، واقتصرت توصيته على أن أرتاح في البيت وأتابع الدواء، وأنّ الدكتور سالم في مشغرة سيتكفّل بالبقيّة.

المهمّ أنّنا وصلنا إلى البيت بخير، وهناك كانت العناية الفائقة التي امتدّت ثلاثة أشهر نقاهة، كان خلالها الدكتور سالم الطبيب والصديق الوفي يتابع حالتي، وأمّ كميل خير رفيقة، تحيطني بكلّ العناية وأسباب الراحة. ومع بداية الربيع كنت قد اجتزت فترة النقاهة، فعدت إلى العمل تدريجياً، والدكتور سالم ما زال يراقبني ويسأل

كلّ يوم تقريباً عن نشاطي، ولا أنسى كيف كان يتصرّف كلّما رآني أصعد درجاً أو أحمل غرضاً ثقيلاً.

18. موسيقى، بين القذائف

بعد تخرّجه من كلّية الفنون الجميلة، وقف كميل على مفترق طرق الحياة المهنية هذه المرّة، ولم يكن هناك الكثير من الخيارات أصلاً، فقد كان مكتب الأمين المهندس حبيب كيروز، "المعمار"، مازال باستلام تمّوز قنيزح وكميل، وروجيه صوايا كان يتردّد إليهما. وفي أواخر تشرين الثاني من عام الـ 84، كان العمل في المكتب الهندسي قليلاً بعض الشيء، وتمّوز كان في فرصة زواجه، فأمضى كميل وقتاً في تجربة العمل معي في المحلّ، وكنت يومها أنفّذ طقماً لغرفة سفرة، لكنّه ما لبث أن شعر بالملل من حياة مشغرة الرتيبة، عمل طوال النهار وعودة في المساء إلى البيت للأكل والنوم. ومع أنّه أحبّ العمل في الخشب والتفنّن فيه، إنّما شعر أنّه دون طموحاته الكبيرة. وكان قد قطع شوطاً كبيراً في الموسيقى والمسرح والرسوم الإعلانية، وتوسّعت حلقة معارفه وأصدقائه، وصار عنده مكانة في مجتمع رأس بيروت.

وأهمّ تلك العلاقات، وأعظمها في البعد الإنساني، كانت تلك التي مع أهلنا في بيروت، الذين احتضنوه وعاملوه كأنّه واحد من أولادهم، فقد جمعتنا بهم وحدة حياة وانتماء، لا تنفصم عراهما، وتجذّرت مع الأجيال الجديدة، حيثما يكونون وحيثما نكون. هؤلاء الأهل الذين أتحدّث عنهم، الأمناء شفيق ناصيف، عبد الله محسن، والياس جرجي قنيزح، جمعتني بهم وحدة العقيدة والرأي الثابتة، لم نختلف مرّة واحدة، رغم الأعاصير والأحداث العاصفة التي مرّ بها الوطن والحزب. وقد حفظ كميل هذه الأسماء قبل أن يتعرّف بأصحابها، وحين كبر وكملت معرفته، في الخط الفكري الأخلاقي نفسه، رأى منهم ما يفوق توقّعاته، من الثبات في العقيدة والالتزام بالمناقب والممارسة للمبادئ، كما وأنّه وجد في كلّ من السيّدة أم شاكر ناصيف، والأمينة هيام

أم رائد محسن، والسيّدة أم فداء قنيزح، أمّاً بكلّ ما يحمله مضمون هذه الكلمة، وكنّ يحسبنه فرداً من العائلة في بيوتهنّ. وتبعاً لهذه المعاملة الكريمة، بالإضافة إلى نشاطاته الفنّية والاجتماعية المتعدّدة التي كانت تأخذ الكثير من وقته وطاقته، انتفى الفراغ الذي قد يحياه من هو بعيد عن أهله وبيته. ما جعل من بيروت مناخاً أوفر وأغنى، مع تنوّع أجواءها، لمن يملك، ككميل، طموحات فنّية وفكرية شتّى.

*

كنت قد ذكرت سابقاً عن ارتفاع ضغط الدم لدى برت، والذي أثّر على عينيها، وكان العلاج يتطلّب متابعة إشراف الدكتور الباليكي في جب جنّين بشكل دوري، وفي إحدى المعاينات، طلب صورة لشبكية العين؛ والجهاز الخاص بهذه الصور ليس موجوداً عنده، ممّا يستوجب النزول إلى بيروت، وذهبنا إلى هناك، إلى عيادة الدكتور سمير سلمون، الذي نعرفه من قبل، وتبيّن بعد إجراء الصورة وجود انفصال في الشبكية، ونصح الدكتور سلمون بأن يقوم الدكتور بشارة فارس بإجراء العملية في مستشفى الجامعة الأميركية، والدكتور فارس من أقارب برت، وقد ساعدنا مساعدة قيّمة ونجحت العملية نجاحاً ملموساً، ومكثت برت في المستشفى أسبوعاً.

قبل خروجها بيوم، ذهبنا، كميل وأنا، لعيادتها وإجراء الترتيبات لليوم التالي، وعدنا في المساء إلى غرفة كميل، وبعد سهرة قصيرة أوينا إلى أسرّتنا نتحدّث، وإذا بانفجار يدوّي، تتبعه انفجارات من كلّ حدب وصوب. وكانت تلك، الليلة التي ضربت فيها "حركة أمل" و"الحزب التقدّمي الاشتراكي" مواقع "المرابطين" واقتلعوها. وغرفتنا تقع في الجهة الغربية لفندق "رويال غاردن"، وكأنّنا في بحر من مواقع المرابطين المهاجَمين، وتحت سيل القذائف والرصاص. وحوالي منتصف الليل، اصطدمت قذيفة RPJ بجدار غرفة الجيران من الناحية المقابلة لغرفتنا في الشارع، وتساقط الزجاج في البيوت المجاورة، وبعد قليل سمعنا صوت الجارة تقول:

– "الحمد لله لم يصبنا شيء" وسمع بعد ذلك صوت جمع الزجاج المتناثر، وكان

كميل يقوم بالشيء نفسه في غرفتنا، وصار من الأفضل لنا الابتعاد عن جهة الطريق، فانتقلنا إلى المطبخ من الجهة الخلفية للبيت، وهنا أحضر كميل العود، وبدأ يعزف، وبدأت أصوات القذائف تبتعد عن الحيّ تدريجياً، وما كان من جارنا في الشقّة القريبة، إلاّ أن أتى وشارك في العزف، وصرنا حلقة تستمع إلى الموسيقى بأعصاب هادئة، وكأنّ الدنيا بألف خير.

*

طلع الصباح، وصار الناس يطلّون برؤوسهم بحذر وخفر، على مناظر ولا أبشع، وبقينا في جحورنا حتّى كاد النهار ينتصف، ثمّ نزلنا واجتزنا المسافة القريبة حتّى مستشفى الجامعة، والطرقات خالية من المارّة والسيّارات، كان اليوم موعد خروج برت من المستشفى، لكنّ ذلك تعذّر بسبب الشلل العام الذي نتج عن أحداث الليلة الماضية، فأُجّل إلى اليوم التالي، الذي كان يوم الاحتفال بذكرى الأسبوع لـ"عروس الجنوب"، الشهيدة سناء محيدلي، وكانت الأمينة هيام والأمين عبد الله محسن في طريقهما إلى المهرجان الذي أقيم للمناسبة، حين مرّا لرؤية برت في المستشفى. وخرجت أم كميل إلى غرفة كميل، وبعد استراحة قصيرة، نزلت إلى مكتب "تاكسي" وطلبت من سائق أعرفه أن يقلّنا إلى بيت عمّي في جونية، على أن يأتينا بعد ساعتين لتكون برت قد ارتاحت قليلاً، وعدت إلى البيت، وفي منتصف الطريق، لعلع الرصاص من جديد، فعدت أعقابي إلى مكتب التاكسي، واستقلّيت السيّارة مع السائق إلى البيت، وهناك وجدت كميل في غاية القلق لغيابي، وكنت قد عرفت أنّ سبب إطلاق النار، هذه المرّة، تشييع جثمان أحد قتلى معركة الأمس، فطلبت من كميل إحضار الحقيبة ريثما انتهت برت من ارتداء ملابسها، لكي نغادر المكان فوراً، وسلك بنا السائق الطريق المؤدّية إلى البريستول فكورنيش المزرعة، وكان التجمّع لبدء المسيرة هناك، وإطلاق النار من جميع أنواع الأسلحة في ذروته، وحاولت جهدي تهدئة روع برت، موضحاً لها أنّ الرصاص يطلق في الجوّ، فكان اجتياز تلك المسافة

التـي لا تتجـاوز الخمسـين متـراً، فـي غايـة الصـعوبة، واسـتلمنا أخيـراً طريـق جونيـة، واستردّ السائق لون وجهه، إلى أن أوصلنا إلى بيت عمّي، وهناك كان كلّ شـيء معدّ لنا بفضل السيّدة الطيّبة عزّت زوجة رئيف ابن عمّي، وكانت امرأة عمّي لم تزل قويّة، وكذلك الراهبة الأخت "ماري دو لاكروا" أو كليمـانص، فأحطن بـرت بكلّ عنايـة بعد تعب العملية والرعب الذي ذاقته في الطريق.

بعد أن ارتحت لوضع برت، غادرت إلـى مشغرة حيث المحلّ مغلق والعمل في انتظاري، وكان كميل أيضاً قد خطا خطوات إلى الأمام، والتزم أشـغالاً تأخذ كلّ وقته، وصار متعذّراً عليه المجيء إلى مشغرة كلّ نهاية أسبوع.

وبعد فترة النقاهة التي بلغت حوالي أسبوعين، أمضتها أمّ كميل في بيت عمّي، عدت بهـا إلـى البيت، مـع تنبيـه الطبيـب إلـى عدم تعرّضـها لمـا مـن شـأنه أن يضـرّ بعينيها، من انفعال أو توتّر أو هواء بارد وما شـابه، وكانت الخدمـة فـي البيت سـهلة لعدم وجود أحد غيرنا، هي وأنا.

19. الآفتان، والباب العالي

في مشغرة، وبالعودة قليلاً في الزمن إلـى فترة انسحـاب "إسرائيل"، التـي كانت قد تميّزت، قبل ذلك، بالمدّ الطـائفي المسيحـي المنغلق، الـذي أسفر عن وجهه البشـع في تفتيـت الـتلاحم الاجتمـاعي المعـروف عـن المنطقـة، وعـن مشـغرة بالـذات، فيمـا كـان يقابلـه، بعد ذلك، المدّ الأصولي الشيعي المنغلق أيضـاً، والـذي كـان يعمـل فـي الخفـاء على درس الممارسات الانعزالية المسيحية البشعة، لتكون ردّة الفعل أكثر بشاعة، وكلّ هذه الممارسات ليست لصالح المنطقة والأهالي، أو الوطن ككلّ، وأكثر من ذلك، أنّها ليست من القيم الدينية المسيحية أو المحمّدية بشـيء، بل هـي لصـالح "إسرائيل" ومن وحي قيمها، فكانت هذه صورة مشابهة لما كتبه الوالي التركي قبل أحداث 1860 إلـى الباب العالي في "استانبول"، إذ قال في كتابه:

- "الدروز والنصارى، آفتان، كلّما ذبح أحدهما الآخر استفاد الباب العالي" دون أن يدري أحد منهما وحدة المصير الذي يُغرقان الشعب في مهالكه، وهذا ما ظهر بجلاء ووضوح، فما فعلته قيادة الانعزال المسيحي، ومتطرّفوا الأصولية الشيعية، هو تفتيت وحدة الشعب، ممّا يخدم مصلحة عدوّ الشعب والوطن "إسرائيل"، ذلك الكيان السرطاني الذي لم يألُ جهداً في التوسّع والامتداد منذ نشأته، وبأساليب أفظع من الفظاعة، بالقتل والتدمير والتهجير وجمع فتات الشعوب للتجمّع في أرضنا وبيوتنا، وعلى مرأى من أعيننا.

تزامن الانسحاب الإسرائيلي جنوباً من منطقة البقاع، مع انسحاب الانعزال المسيحي شمالاً بما يشبه، أو أنّه فعلاً، الهروب والخزي، إذ أنّه بين ليلة وضحاها، وقبل انسحاب اليهود، لم نعد نرى وجهاً لعنصر من "القوّات اللبنانية" في البلدة، ولا من يتبختر بالسلاح، الذي كثيراً ما كان يفوق طول حامله، ومن جهة ثانية كانت المنظّمات المتطرّفة الشيعية قد بدأت تتكشّف وتظهر، علماً بأنّ هاتين القوّتين الطائفيتين، وكانتا موجودتين ومعروفتين، لم تتصادما قبلاً على مستوى القيادة وبشكل معلن. ثمّ كثر الحديث بعد ذلك عن "حزب الله" في محاولة غير معلنة لإزاحة "حركة أمل" باحتواء كل عناصر الشيعة.

*

أولى الحوادث كانت قد بدأت بخلافات كلامية، افتعلها من تسلّم قيادة التطرّف الأصولي، تمحورت حول عبّاس شرف والتنظيم الشيوعي الذي كان يرأسه، وارتفعت وتيرة المشادّات، وكأنّ الأخير أحسّ بخطورة الموقف وضرورة تفاديه، فعمل جاهداً على تجاوزه. وفي عصر يوم من أيّام التوتّر، قصد عبّاس الجامع الذي في الحارة الفوقا، وهو أحد مراكز حزب الله، علّه يستطيع حلّ الإشكال القائم آنذاك، وهذا ما عرفناه لاحقاً، وما إن خرج عبّاس من الجامع باتّجاه بيته القريب، حتّى لعلع الرصاص، فسقط يتخبّط في دمائه على تقاطع الطرق الأربع، عند زاوية الجامع،

وتواصل إطلاق النار والقذائف ساعات إلى أن خيّم الظلام، وسمعنا فيما بعد عن المعاملة التي لقيتها زوجة عبّاس شرف في البيت، وكان جثمانه ما زال مطروحاً في الطريق، وصرنا نسمع فيما بعد تسريبات من هنا وهناك، مثل:

- (خلصنا من الشيوعيين، وبعدهم القوميين)، وكأن حرّية الإيمان والمعتقد باتت محظورة، وقد نسي الأصوليون أن لا إكراه في الدين، فلم يكن هناك أيّ احترام للآخر المختلف فكراً أو معتقداً أو ديناً، أو حتّى مذهباً. ولم تأخذ قيادة القوميين المحلّية في مشغرة هذا القول على محمل الجد، ولم تقم بأيّ تدبير وقائي، وتزايد العنف واستشرى، في سلسلة من الحوادث، قتل وسرقة واقتحام بيوت. أمّا المحبّة والتسامح والتضامن، والفضائل كلّها فقد نحروها على مذبح ما اصرّوا على تسميتها [المقاومة الإسلامية]، والإسلام منهم، ومن تصرّفاتهم، براء.

في تلك الأجواء المشحونة بالحقد المطبق والكراهية الدفينة والتعصّب الأعمى، عشنا، عائلتي وأنا، في مشغرة وبإمكاناتنا الضئيلة، وكنّا نسبح عكس التيّار الذي جرفنا وجرف الخير الذي نعمل له. وكان الوضع لا ينبئ بالخير خصوصاً بعد مقتل عبّاس شرف في وضح النهار، فصرت أتمنّى على كميل ألاّ يأتي إلى مشغرة، رغم أنّه وبحكم إقامته وعمله في بيروت، لم يكن لديه أيّ تعامل مباشر مع أيٍّ كان.

20. وتد ابن الشيطان

وتوّجت سنة 1985 أيّامها على أكوام الضحايا وطوابير المهجّرين، وأطلّت سنة 1986 لتقول لسابقتها: "إذا كنت أنت الكحل، فأنا العمى"، بحكم التعصّب الذي يغتال كلّ نسمة خير أينما وجدت، وبتخطيط الشيطان الأكبر الذي تبتلع مصالحه الكرة الأرضية كلّها، ويترك الشياطين الصغار يلهون ويتسلّون، بينما هو يتفرّج ويضحك.

رحمة الله على جدّتي، إذ أخبرتني قصّة في طفولتي، مفادها:

[إنّ ابن الشيطان طلب من أبيه يوماً السماح له بأن يخرج ليلعب، فسمح الوالد

بقوله:

- (ما تبيعد، وما تخرّب كتير) وخرج الولد، وأوّل مكان وصله هو دار الجيران، فوجد عجلاً صغيراً مربوطاً إلى وتد مزروع في الأرض، وأمّه البقرة التي انتهت صاحبتها من حلبها أمام عيني عجلها، مربوطة في مكان قريب. وأدرك ابن الشيطان بغريزته رغبة العجل، وانتبه إلى الوتد المزروع ودوره في منع العجل عمّا يريد، فعالجه إلى أن خلخله، وترك الباقي لمن يهمّه الأمر، وانصرف، وبقي العجل مستمرّاً في محاولاته إلى أن اقتلع الوتد، ودخل البيت وقلب وعاء الحليب، مخرّباً ما لقيه في دربه، ولامَ صاحب الدار زوجته على أنّها لم تحسن ربط العجل كما يجب، ولامته هي لعدم صلاحية الوتد، وتطوّر الكلام إلى شجار، وضربها الرجل، فذهبت إلى أهلها، فانتصر لها إخوتها، وانتصر له أهله، وانقسمت القرية فريقين في معركة أسفرت عن عدّة إصابات بين جروح وكسور...

والشيطان الكبير يتفرّج، وتنبّه أنّ ابنه سأله ليلعب، وركض إلى البيت فرأى ابنه مثل الملاك، فبادره:

- "ماذا فعلت؟" فأجاب هذا بكل براءة:

- "لم أفعل شيئاً، هززت الوتد فقط"].

وما أكثر الذين يكتفون بهزّ الأوتاد، ويتظاهرون بالبراءة، وهم من حيث لا يدرون، أو لعلّهم يدرون، يسوقون البلاد كلّها إلى الدمار.

هكذا كانت الأحوال في مشغرة، وبرت وأنا وحدنا في البيت، والعمل متراكم في المحلّ، وأحاول استراق الأيّام التي يمكن العمل فيها، لندرتها، ولما تحمله من مخاطر تجعل الذهاب إلى المحلّ مجازفة بحدّ ذاتها، حتّى الزيارات والواجبات الضرورية، أصبحت خاضعة لترتيبات وأوقات معيّنة من النهار، وعند الغروب تقفل المحلاّت أبوابها، ولا يخرج أحد من بيته إلاّ لحاجة ملحّة.

*

أمّا كميل في بيروت فكان غارقاً حتّى أذنيه في مشاريع عمله ونشاطه الفنّي، من أعمال مسرحية للصغار، أو تنفيذ رسوم لمؤسّسات تربوية، ومشاركة في أعمال موسيقية إذ كان يعزف على العود والغيتار، وغيرها وغيرها.. ولم يعد لديه وقت ليحكّ رأسه، حسب تعبيره، وتدبّر أمر معيشته فلم يعد محتاجاً للتردّد إلى مشغرة، ممّا أكسبه الوقت الذي يحتاجه، وهذا ما أراحني قليلاً بشأنه.

فهنا يتزايد العنف يوماً بعد يوم، ويتزايد معه عدد المنتمين والمناصرين للتطرّف الأصولي، مع تدفّق الأموال والأسلحة من الخارج بلا حساب، وكانت العلامة الفارقة لهؤلاء، التحجّب الكامل للنساء واللفّات الخضراء واللحى الطويلة للرجال، واستفحلت التظاهرات بالأسلحة الكاملة وتوسّع نطاقها، دون أن تهتمّ الجهات الأمنية المتواجدة في المنطقة، أو تتنبّه لخطورة هذه المظاهر المسلّحة، التي تظهر العداء لكلّ من هو خارج حلقتها. أمّا الأموال فكانت تنفق، لجهة دون غيرها، فللمتفرّغ الذي يحمل السلاح ألف دولار شهرياً، ولزوجته المحجّبة الملتزمة خمسمائة، ومثلهم للصبية العزباء، ومن هنّ دون العشر سنوات لهنّ ترتيب خاص. وكان هناك عائلة من جيراننا، يقع بيتنا، بين بيتهم وبيت أهل الزوجة، الذين نعرفهم وتجمعنا بهم صحبة ومودّة، وبحكم صداقة الأهل وزمالتي مع الزوج الذي عمل معي، صرنا أصدقاء وصار بيتنا الذي يمرّ طريقهم أمامه، محطّة للزيارة كلّ يوم تقريباً، والجارة نشأت في دمشق وبيروت بحكم عمل والدها، وهو ميسور الحال، لكنّ الأحداث أعادتهم إلى مشغرة. وفجأة، هبط [الإيمان] دفعة واحدة، وكانت أوّل الإشارات مسبحة طويلة يحملها الأب شابكاً يديه وراء ظهره المنحني، ويسير متمتماً بالصلاة، أمّا ابنته فقد وضعت أوّلاً المنديل غطاءً للرأس، وأسقطت معدّل الزيارات إلى بيتنا إلى النصف، ثم ما لبثت أن تحجّبت بالكامل هي وبناتها الأربع، وقاطعتنا نهائياً، وصارت حين تمرّ أمام بيتنا تشيح بوجهها عنّا وكأنّ بيننا عداوة موروثة أباً عن جدّ.

أنا أعرف أنّ الدين معاملة، فأين الدين في هذه التصرّفات التي لا تمتّ إلى

الإسلام وقيمه بصلة؟ هذه حادثة من حوادث شملت جميع من انتمى إلى الأصولية رجالاً ونساءً، أمّيين ومتعلّمين، على حدّ سواء، فالعلم لا يبني وجداناً نقيّاً.

أمّا جاريَّ وصاحبيَّ، أبو محمّد، حسين العمّار وكان يلقّب بـ (أبو الدراهم)، وأبو عبّاس، قاسم حمّود الملقّب بـ (الحبحاب)، وبعد أن ذهب الأخير إلى الحجّ وعاد، وبعد التهاني والتبريك، خرج إلى الشارع في طاقية الحجّ البيضاء ومسبحة بيضاء تكاد تلامس الأرض، وتمشّى في الشمس إلى قرب دار جاره وصديقه العمّار أبو الدراهم، وبادره:

- (بدّي اسألك يا أبو الدراهم، إنت بتقرا وبتعرف أكتر منّي)
- (شو بدّك تسأل؟)
- (نبيّنا محمّد كان شيعي ولاّ سنّي؟) !!.. هذا هو السؤال الذي كان يشغل بال الحاج قاسم، والذي حمله من الديار المقدّسة ليسأله لجاره الذي يثق بإجابته ومعرفته، وكم كان سروره بالغاً عندما صحّت توقّعاته، في أنّ النبيّ محمّد، كان شيعياً..!!

في هذه الأجواء المشحونة بعلامات الاستفهام الكبيرة، والوجوه الغريبة، والتصرّفات التي لم نألفها من قبل، كنت مصمّماً على البقاء في مشغرة، وعدم التسليم والقبول بما كان يعدّ لتخريب وتدمير القيم الحلوة التي كانت الطابع المميّز لهذه البلدة الوادعة. وممّا يؤسف له، ويدمي القلب، انجراف الفئات التي كانت تشكّل تلك الوحدة في التيارات المتضاربة، ممّا أدّى إلى تصادمها العنيف بعد انسحاب "إسرائيل"، فكانت الفرصة مؤاتية لانفجار الأحقاد والضغائن التي تركتها خلفها، لتكمل عنها دورها المفتّت والمخرّب.

21. اختطاف كميل

وفي يوم الإثنين 9 حزيران 1986، كان كميل في مشغرة، وكنت في غاية الانشغال في المحلّ، وأبذل ما في وسعي للإسراع في العمل نظراً لندرة الأيّام التي

تسمح فيها الأحوال الأمنيّة بفتح المحلّ والشغل، وعند الظهر عدت إلى البيت كالعادة، للغداء، فأكلت بسرعة ورجعت للعمل حتّى ساعة متأخّرة، ثمّ اقفلت المحلّ وعدت مع غياب الشمس، وصادف يومها ألاّ يدخل أحد إليّ في المحلّ، ولم أتكلّم مع مخلوق. ودخل كميل إلى البيت، حوالي الساعة السادسة، متجهّم الوجه، ولا يبدو عليه رغبة في الحديث، فاحترمت رغبته دون أن أدري سبب ذلك، واتّصل بالأمن السوري ليسأل عن الحالة الأمنية، ممّا أثار مخاوفي، فكان الجواب لا تطمين ولا تخويف، إذ أنّ الوضع إجمالاً سلبي، ثمّ اتّصلت أمّ عليّ اسماعيل هاتفياً، ورجت كميل ألاّ يخرج من البيت، فقال لها أنّه سينام، وكانت أمّ كميل تعدّ لنا العشاء، فتعشّينا، وأوينا إلى الفراش بعد سهرة قصيرة، ولم يمضِ الكثير من الوقت، حتّى سمعنا وقع أقدام، وصوتاً يقول همساً:

– "هذا هو البيت" وبعدها صوت قرع على الباب بعقب الكلاشنكوف، مع صوت آمر:

– "افتحوا الباب"، وأسرعت إلى الباب أفتحه لأرى ما يزيد على خمسة وعشرين مسلّحاً من عناصر "حزب الله" بالأسلحة المختلفة والعتاد الكامل، وبأزياء متنوّعة بين الكفن الأبيض وقناع "زورو"، ومنهم باللحى الطويلة واللفّات الخضراء، فسألت وأنا بالبيجاما حافي القدمين:

– (خير انشا الله؟ شو في؟ ليش جايين لعندي بكلّ هالسلاح، تفضّلوا فوتوا)، وقبل أن أسمع الجواب كان كميل خلفي، وأحدهم واسمه إيهاب ناصر يقول له:

– (انت هون؟ شرّف لعندي يا...)، وتقدّم كميل نحوه فلطمه هذا وأصبح بين أيديهم، فتدخّلت ويديّ في وجه ذلك الوقح وصرت أسأل كالمجنون:

– (ليش هالشغل؟ شو بدكم؟) وسمعت أحدهم يقول:

– (خلّيه يروح معنا، وهلّق بيرجع) وقد صار أمام البيت عدد يفوق ما في داخله من المسلّحين، فقلت لكميل:

- (روح معهم، بسيطة) إنّما المجرم إيهاب ناصر فقال:
- "سنقتله"، وأجبته:
- "أنـت المسـؤول" فلـم يجـب، وانسـحبوا وقـد أحـاطوا بكميـل بقلـوبهم الحاقـدة وأسلحتهم المشرعة، وعند زاوية بيت أمين الشمالية الغربية اختفى عن ناظري، وعدت إلـى الداخل مصعوقاً لأرى حسن دياب أبو عبّاس مكشّراً عن أنيابه يقلّب الفراش، فصرخت به:
- "عمَّ تبحث"
- "عن سلاح الحزب السوري القومي" واصطدمت يده ببيت النظّارات الذي يخصّ كميل، فصاح بحدّة:
- (وين الفرد) وعندما وجد النظّارات اغتاظ من غباوته، وكان رفاقه قد اكتفوا بالصيد الثمين الذي اقتنصوه، فنادوه وانصرفوا تاركين بصماتهم البشعة على كلّ ما في البيت، لتروي حكاية أخلاق الجريمة الحاقدة.

ارتديت ثيابي بسرعة استعدادا للحركة، لا أعرف كيف ولا إلى أين، وأمّ كميل في فراشها عاجزة عن أن تقول حتّى كلمة واحدة، من شدّة الصدمة والضعف الجسماني، وهنا دخل بعض الجيران المناصرين لحزب الله، وتبرّع أحدهم أن يذهب ويستكشف، لكنّه عاد خالي الوفاض، وأخذ يلوم ويسأل (ليش ما عملتوا هيك، وليش ماصار كذا)، وحوالي منتصف الليل رن جرس الهاتف فأجبت في الحال، وإذا بصوت يقول:
- "كميل يريد أن يطمئنّ إلى صحّة والدته" فسألته في الحال:
- (مين عم يحكي؟ وين كميل؟)
- (مش مهم مين عم يحكي)
- (اعطيني كميل)
- "لا"
- "اسمع، إذا كان لكم شيء عندي، أدفع فوراً، والذي لي، أريده في الحال، لماذا

لم يرجع كميل؟" فلم يجب وأقفل الخط. وقضيت الليل كلّه جالساً على حافّة السرير.

22. الهمس الذي صار دوياً

طلع نهار 10 حزيران، ونزلت إلى السوق علّني أسمع خبراً، ودخلت دكّان عقل شرف لأشتري منه بعض الحاجيات، فتقدّم هذا منّي مقدّماً تعزيتة بوفاة كميل.

صعقت، وصرخت "لا"، وانتهرته رافضاً رفضاً قاطعاً أن يكون كميل قد أصابه مكروه، وأخذت حاجياتي وعدت إلى البيت دون أن أنبس بكلمة أمام برت، وصرت كالمجنون، إذ ليس هناك أيّة أخبار مؤكّدة، ولا أريد أن أصدّق ما سمعت، ولا أريد أن يصل لأمّ كميل ما يزيد همّها، وكان يوم طويل من التوتّر والقلق، لم أستطع خلاله معرفة شيء عمّا حصل، وفي اليوم التالي، اقترحت على برت أن نقوم بزيارة الجيران، في محاولة لإخراجها من جو التفكير الذي كاد يقتلها، ففعلنا وتوجّهنا إلى بيت الدكتور سالم أبو خليل، وما إن دخلنا حتّى لاحظت أنّ عفاف زوجته تتحاشى النظر إلينا وتتظاهر بأنّها مشغولة، وعندما جلست معنا لم تتمالك دموعها، ولكنّها لم تقل شيئاً، وأنا كمن عرف أمراً ولا يريد تصديقه، بل ويتجنّب كلّ ما من شأنه تأكيده، لكنّ الهمس الذي أسمعه كان قد بدأ يكبر، ويتصاعد، ويتعالى، في دوّامة من الهدير، حتّى أصبح دويّاً يصمّ أذنيّ، ويلتف من حولي ليغرقني في هاوية الهواجس والحزن والمخاوف، حتّى سقطت أخيراً على الحقيقة الفاجعة، لقد رحل كميل.

رحل الشفّاف، الفنّان، الهادئ، الذي لم يتسبّب في أذيّة لأحد طوال حياته، رحل من كان في مسلكه يمثّل المحبّة لكلّ أبناء بلدته وبلده، من كان الفنّ اختياره الأوّل ليوصل من خلاله الفرح والفائدة والقيم الراقية والمثل العليا لكلّ الناس، من كان بعيداً عن التعصّب لأيّ فكرة أو مذهب أو دين، ذنبه الوحيد أنّه كان خارج التصنيفات والصراعات الطائفية، فكان أن قضت تلك عليه.

23. دموع الأجراس والمآذن

مرّت أيّام، وأنا وحيد في حزني وهواجسي، وصار همّي الوحيد إيصال برت إلى بيت عمّي كي لا تتلقّى الصدمة وحيدة، وصرت أحسب أنّ إبلاغها الخبر، يوازي كارثة فقدان كميل. وكانت قوّات "الحزب السوري القومي الاجتماعي"، قد ضربت حصاراً حول مشغرة وقوّات "حزب الله" فيها، على إثر وصول نبأ اختطاف عدد من القوميين، وتصفية بعضهم، ودارت معارك بين القوّتين، ما لبثت أن انتهت بتدخّلات سياسية. فأجريت ترتيباً بأن يوصلنا الصديق والنسيب سامي طرابلسي إلى عينتيت، ويوم الأحد 15 حزيران، حوالي الظهر، والطرقات خالية في مشغرة، حملت حقيبة كبيرة فيها ملابس تكفينا مدّة إقامتنا عند بيت عمّي في جونية، وتوجّهنا إلى عينتيت، لنجد ساحتها تكتظّ بالناس والسيّارات على غير عادة، فقد كانت نقطة لتجمّع القوميين، من مشغرة ومن خارجها، وطلبت من الرفيق إيلي كرم أن يوصلنا إلى بيت ألفرد عبّود في خربة قنفار، ونقلت الحقيبة إلى سيّارة إيلي مسرعاً بالصعود إليها قبل أن يتكوّم حولنا الكثيرون من أهالي مشغرة المتواجدين هناك، وفهم إيلي قصدي فاستعجل وأوصلنا حيث أبغي واستقبلنا ألفرد كما يليق بالأصدقاء، وبتنا عنده ليلة بعد أن اتّفقنا مع سائق سيّارة ليوصلنا إلى جونية، وكانت السيّارة تغادر إلى بيروت في الرابعة صباحاً، ووصلنا إلى بيت عمّي في جونية قبل أن يستفيقوا من النوم، وبعد استراحة قصيرة عدت على أعقابي إلى خربة قنفار، حيث نمت ليلة ثانية عند بيت ألفرد، وكأنّي أنام على شوك أو على جمر يكويني في مفاصل جسمي كيفما تقلّبت، وطلع الصباح، فقمت أتمشّى علّ ذلك يريحني قليلاً، وما إن أطلّت شمس الثلاثاء 17 حزيران، حتّى قرع جرس الكنيسة المقابلة دقّاته المتقطّعة الحزينة، وأحسست بالأرض تميد بي، وسمعت من يذيع على مكبّر الصوت نعياً لشهداء مشغرة، وأُذيعت أسماؤهم بالتسلسل: جورج أبو مراد، كميل بركة، علي اسماعيل، أحمد قاسم، رضوان صالح، زاهي الحجّار، بشارة الحجّار. وكلّهم قوميون اجتماعيون.

استجمعت قواي ودخلت بسرعة وبدّلت ثيابي، ولم ألمح من ألفرد ميلاً لمرافقتي، فنزلت إلى بيت حمّود صادر حيث يسكن في خربة قنفار، وترافقنا إلى عيتنيت بسيّارته، وفي بيت نورما ننخل، وبفعل مشاركتي الآخرين بمصابي، شعرت أنّي وقفت لأوّل مرّة أمام هول الفاجعة، وصرت أحسب حساب مواجهتي مع أمّ كميل، وكيفية التخفيف عنها.

ويغوص قلبي في داخلي قبل وصول موكب الشهداء، حيث خرجت مع الجموع إلى مدخل بلدة عيتنيت، من الجهة الشمالية، وتأخّر وصول الموكب بسبب مروره إلى بلدة القرعون لمشاركتها في تشييع ابنها، الشهيد جورج أبو مراد، وحوالي الثالثة من بعد الظهر أطلّت السيّارات تحمل نعوش كميل، علي، أحمد، ورضوان. واقترب منّي الرفيق تمّوز قنيزح مقدّماً نفسه لي: [كميل بركة]، بكلّ الزخم والقوّة اللذان يربطاني بولدي، ولمحت في عينيه التصميم والعزم الأكيد على هذا الالتزام، وشدّني إليه لمبادلته التعهّد نفسه. ورافقت الجموع الغفيرة الجنازة سيراً إلى آخر البلدة من الجهة الجنوبية، ناحية مشغرة، واتّجهت السيّارات إلى المدافن التي سيوارى بها الشهداء علي اسماعيل وأحمد قاسم ورضوان صالح، والذين امتزجت دماؤهم بدماء كميل وجورج، امتزاج أفكارهم وإيمانهم، ومشاعرهم المحبّة لكلّ الناس، وانتمائهم للوطن أوّلاً، ليفترقوا، بعد الموت، حسب التقاليد الدينية، إلاّ أنّ الأجراس والمآذن كانت تذرف الدموع نفسها وترفع الابتهال ذاته.

وبقي نعش كميل وحده في السيّارة وبقيت بجانبه، كان أبيض اللون مميّزاً ويحمل لوحة كتب عليها: كميل بركة، 1958 – 1986، اسم سيبقى خالداً خلود الحياة، رغم أنف الذين أرادوا تغييبه. وانتهت مراسم دفن الشهداء الثلاثة، وتحوّل الموكب إلى الكنيسة دون استعداد، وتراكض الذين يودّون المشاركة فوصل عدد ضئيل منهم قبل انتهاء الجنّاز الذي ترأّسه وخدمه الأب جبرائيل نصر، وانحشر الناس في السيّارات إلى مدافن الطوائف المسيحية حيث مدفن عائلة بركة، وهناك أحسست أنّي خشبة

محروقة، وجفّ لساني في حلقي فلم أعد استطيع الكلام، واحترق الدمع في عيني، فحرمني نعمة البكاء، حتّى أنّ الأمين عبد الله محسن بادرني:

- (ابكيلك شوي!)، حين كان يرافقني إلى حيث نتقبّل التعازي في قاعة المدافن كما العادة.

وانحشرنا في السيّارات ثانية إلى عينتيت، وإلى بيت السيّدة نورما ننخل، حيث نام يومها العشرات كيفما اتّفق، بعد تناول الطعام عن المائدة المعدّة ليلاً نهاراً. تلك الممرّضة كم ساعدت، وكم أنقذت أرواحاً، بحقيبتها التي كانت تحملها دائماً، وكم أطعمت أفواهاً جائعة دون تذمّر ولا منّة. وكان فؤاد ابن أخّي أنيس معي، وقد أحضر سيّارة للنزول إلى بيروت في الصباح، وهناك افترقنا على مستديرة الدورة، هو إلى بيت أخيه سامي، وأنا إلى بيت عمّي في جونية، وأبدى الأقارب والأصدقاء تعاطفهم معنا بشكل خفّف عنّا، لفترة، وطأة الحزن واللوعة، التي مالبثت تكبر وتتعاظم مع الأيّام.

24. مشغرة، الغريبة الحزينة

عدنا إلى مشغرة، وفي البيت، في كلّ لفتة ونبضة، كان كميل معنا، يملأ دنيانا بكلّ ما يبعث الحياة والأمل. لم نكن نريده أن يغيب، ورفضنا الحزن، أمّ كميل وأنا، رفضنا أن نكون مثل الذين لا رجاء لهم، وكنّا على يقين من أنّ الذي يموت في النهاية هو الشرّ، والتعصّب البغيض، والانغلاق الأعمى، الذي ملأ بعض القلوب، فحسبوا أنّ قتل النفوس البريئة هو النصر النهائي لهمجيّتهم وتخلّفهم.

عدنا إلى مشغرة، وأهلها لا يتوانون في الواجبات، فكان البيت يمتلئ بالناس كلّ يوم، يحاولون شغلنا بما يقتل الوحدة والصمت، للتخفيف من هول المصيبة. وفي بعد ظهر يوم، وكان في بيتنا جمهور من المعزّين، وشبابيك الدار تطلّ على الطريق، مرّ من أمام المنزل إبن محمّد قاسم العمّار، ومعه رفيق له، يحمل كلٌّ منهما رشّاشه على كتفه، وكأنّما الطريق ساحة معركة، وتقدّم هذا بكلّ وقاحة إلى الشبّاك، وجال بنظره

في الحضور وكأنّه يحصيهم. كانت هذه التصرّفات الاسفزازية وما شابهها، بمثابة قتل لنا ولكلّ من يتمسّك بوحدة الحياة في المتّحد الواحد، لكنّ المتطرّفين كانوا قد اتّخذوا قرارهم، فهم لا يريدون كلّ من يختلف معهم في الرأي. فيهاجمون بيتنا، ويهدمون حياتنا، ويحطّمون آمالنا، ويأخذون كميلاً من بين يديّ بفرقة حربية مسلّحة، ويفاخرون بذلك!!.

سيبقى كميل مع أمثاله، الشعلة المضيئة، قدوة ومثالاً للمواطن الصالح الذي انتماؤه للوطن، كلّ الوطن، أوّلاً، وآخراً. وستنبت كلّ حبّة تراب ارتوت بدم كميل، ألف كميل، يقيمون الحقّ ويزهقون الباطل، بالمحبّة ومكارم الأخلاق، بالعمل والبناء والعطاء، بالإخلاص والولاء لقيمة الإنسان الفعلية، بالإيمان المطلق بقيم الحقّ والخير والجمال، التي منها فقط تهطل الأمطار وتتدفّق الينابيع وتتفجّر الخيرات، وينمو الزرع ويعلو البنيان. هذا هو الإنسان.

أمّا جميع أولئك الذين تركوا المعول والمحراث، وأدوات البناء، ووسائل الإنتاج، وحملوا بدلاً منها البنادق والرشّاشات والقنابل، موجّهينها إلى أبناء وطنهم، وأقفلوا عقولهم، واضعين على أعينهم عصابة سوداء تحجب النور حتّى عن بصائرهم، ويمشون في اتّجاه واحد، دون وعي أو إدراك، كالآلات الصمّاء تفعل ما يريده صانعوها، فلا يمكن أن يقدّموا لنا وللجيل القادم، إلاّ أفقاً مسدوداً شاحباً، عابقاً بالغيوم السوداء والضباب والغبار.

25. على باب أميركا

لم يبق أمامنا غير السفر، فإيلين وروبير في أميركا، ونحن وحدنا في وضع لا نحسد عليه، لا صحّياً ولا نفسياً، وبدأنا إجراءات الحصول على جوازات السفر بمساعدة المحامي نبيل غلمية، وتمّ ذلك بسرعة، وبقي علينا الذهاب إلى السفارة الأميركية في دمشق للحصول على التأشيرة إلى الولايات المتّحدة الأميركية، بعد أنّ

كانت سفارتهم قد نُسفت في بيروت. وكنّا قد جمعنا ما عندنا من لوحات كميل وأشيائه الخاصّة، وكانت قليلة في البيت، والقسم الأكبر منه في بيروت، جمعه تمّوز قنيزح وروجيه صوايا.

رأيت أنّه من الأنسب أن أذهب وحدي إلى دمشق، في عمليّة جسّ نبض، علماً أنّنا قد حصلنا سابقاً على تأشيرة دخول لي ولأمّ كميل، عام 1982. نمت ليلة في شتورة عند تمّوز، الذي كان قد بدأ عملاً تجارياً هناك، وتابعت في الصباح الباكر جدّاً إلى دمشق، وأخذت دوري أمام السفارة، وبعد انتظار ما يقارب الأربع ساعات، دخلت وأخذت رقماً، ثمّ دعيت إلى غرفة أمام سيّدة تستجوب أصحاب الطلبات، بأسئلة مدوّنة في الطلب، ومن بينها سؤال بقي دون إجابة يختصّ بـ روبير، وأعطوني الجواز دون تأشيرة.

أخبرت إيلين بما جرى، وطلبت منها أن تبعث لي عنواناً لروبير في كندا عند أحد أصحابه، بعد إخطار صاحب الشأن، ففعلت. واتّفقنا على موعد آخر مع تمّوز، هذه المرّة بصحبة أم كميل وفي سيّارة تمّوز، وانطلقنا من شتورة في الثانية بعد منتصف الليل إلى دمشق، وانتظرنا كما في المرّة الأولى، طويلاً، وحينما دخلنا وصرنا خلف الباب، سألني الحاجب عن استمارة الطلب، فأجبته أنّها في الداخل، وأنّي آتٍ للمراجعة، فقال:

– "غلط"، وأعطاني استمارة جديدة لأملأها، فباشرت في الحال وأنا لا أعي ماذا أكتب من شدّة الغضب، وأعطيتها للحاجب، فأعطاني الرقم 24، بعد أن كان رقمي 3، وجلست أنتظر، الأرقام: 22 – 23، وتحفّزت للوقوف، فإذا بالأرقام تقفز إلى 29، تقدّمت إلى الشبّاك أمام الموظّفة، وأريتها الرقم الذي معي، فأَخَذَتْه، وعدت للجلوس، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتّى سمعت اسمي، وتقدّمت منّي سيدة تحمل الجوازات، وقالت:

– "إدفع تسعمائة ليرة سورية، رسماً عن اثنين".

وخرجنا من باب السفارة نلوّح بالجوازات لتمّوز الذي كان في سيّارته ينتظر هذا المشهد، وعدنا إلى شتورة، وفي اليوم التالي ابتدأ الاستعداد الفعلي لشراء تذاكر السفر وتحديد الموعد. وكان غسّان كوكباني من عيتنيت، موظّفاً نشيطاً في شركة صدّي للسفريات في زحلة، وساعدنا في اختيار شركة "لوفتهانزا" لنسافر معها عن طريق فرانكفورت، فكان اختياراً موفّقاً، ورحلة مريحة.

26. عائد، كما المهاجر

في مطار لوس إنجلوس، كان روبير، ورفيقه حسين صادر الذي تبعه إلى هناك، و"رتشرد" ابن أختي، في انتظارنا، وكان لقاءً مؤثّراً للجميع. ومضى أسبوع على وصولنا بين الاستراحة والاستقبالات، وصار رتشرد ابن أختي يصحبني معه كلّ يوم تقريباً إلى بعض أشغاله ومشاويره، وفي بعض الأحيان يأخذنا، أمّ كميل وأنا، في محاولة لإخراجنا ممّا نحن فيه.

وبعد بضعة أيّام، سألني مساعدته في أعمال الصيانة التي يقوم بها في الشقق التي يملكها، فوجدت فيها تسلية وفائدة مادّية، وكانت باكورة هذه الفوائد شيكّاً بقيمة 200$. وتابعنا على هذه الحال مدّة شهرين تقريباً كنت خلالها أفكّر في ضرورة العودة إلى لبنان، للتصرّف في البيت والمحلّ، والاستفادة من الحصيلة، وهذا أفضل من إبقائهما على حالهما.

وارتأيت أن أكون في لبنان بين العاشر من تشرين الأوّل، والعاشر من تشرين الثاني، وهي مدّة كافية لإنجاز ما عليّ. وبصحبة حسين صادر توجّهت إلى مكاتب "لوفتهانزا" للحجز، ومعه صديقته الأميركية التي التصقت به طوال الطريق، ولم تتوقّف عن تقبيله لحظة، لا في السيّارة ولا خارجها، حتّى في مكتب السفريات وأمام الموظّفة التي تهيّء لنا التذكرة، بل أنّها هناك تعلّقت برقبته وأطبقت على فمه بشفتيها مانعة إيّاه من متابعة الحديث مع الموظّفة، ممّا جعلني أتحرّك لصفعها، لولا أن

سبقني حسين وأبعدها عنه بشيء من العنف. أنهينا الحجز وعدنا إلى السيّارة، وانفجرت في حسين، طالباً منه أن يرمي تلك [الجيفة] في الطريق ويعود بدونها، فقال أنّه سيوصلها وننتهي، وهذا ما حصل فعلاً.

إلى المطار، أوصلني روبير، وبقينا معاً في البهو إلى أن حان موعد إقلاع الطائرة، وكانت فرصة لنتحدّث في أمور كثيرة، حيث أنّ روبير لم يكن معنا في البيت عند إيلين إلاّ في أوقات فراغه القليلة، وشعرت عندما ودّعته أنّي كمن يهاجر، لا كمن يعود إلى الوطن، ورافقني ذلك الضيق طوال الطريق، خصوصاً في صالة مطار فرانكفورت، حيث عدت من الفندق المريح إلى مكاتب "الميدل إيست" لأرى أكوام اللبنانيين على طريقتهم في الفوضى و(التدافش) لشراء التذاكر والحجز، وأسعفني قربي من الشبّاك أمام الموظّف، فأعطيته تذكرة السفر وأعطاني رقم الباب، ورقم المقعد، وانسحبت بعد أن سمعت كلاماً يتبادله البعض، ولم يكن موجّهاً إليّ، لكنّه جعلني أتردّد في إكمال السفر إلى لبنان، والعودة من فرانكفورت إلى الولايات المتّحدة.

لم يطل الوقت حتّى توجّهت (الجماهير) إلى حيث أخذت طائرة "الميدل إيست" موقعها، وعادت الأمور إلى التدافع و(التدافش)، إلى أن أخذت مكاني ورتّبت حاجياتي، وكان رفيقي في المقعد، لبناني من ضهور الشوير، واسمه خليل مجاعص، رجل أعمال ناجح، وبيننا زمالة في المهنة، وسرعان ما تعارفنا.

27. وجمعت أشلاء الذاكرة

وصلنا بيروت أوّل الغروب، وترافقت مع شريك الرحلة في تاكسي إلى رأس بيروت، وهو ابن المنطقة، فعرف الشارع والبناء وصاحبه، وأوصلني من خلال الأبنية والشوارع الكئيبة، وكان الظلام قد بدأ يخيّم، وشموع باهتة تطلّ من بعض النوافذ المفتوحة، وحمل السائق الحقائب معي، وأوصلني إلى باب الشقّة التي كان يقطنها كميل، وفتحت هيلانة الباب، وفتحت فمها دهشة لحضوري غير المنتظر.

في الحال ابتدأت تنفيذ ما جئت له، فكان الأمر الأوّل هو الذهاب إلى مشغرة وتفقّد البيت، والإتيان ببعض الحاجيات والثياب الضرورية، في حقيبة لم نستطع حملها في سفرنا السابق. أمّا المسألة الأكثر إلحاحاً فكانت، بيع المحلاّت للاستفادة من ثمنها في الولايات المتّحدة الأميركية، ولم يكن ذلك سهلاً، وفيما كنت أتحدّث مع الصديق والرفيق جميل الراسي عن المستجدّات في معاملات بيع المكائن لرفيق الطائرة خليل مجاعص، الذي كنت قد طرحت عليه الفكرة ووافق، أخبرني جميل عن قرار اتّخذته منفّذية البقاع الغربي في الحزب السوري القومي الاجتماعي، بصرف مبلغ من المال لشراء المحلاّت لصالح الحزب، والاحتفاظ بها لصالحي، وتولّى هو ترتيب الأمر، وأبرمت الصفقة، وتمّ تسجيل كلّ شيء قانونياً، وفي النهاية أخذ جميل شيكّاً مصدّقاً من الأمينة هيام بقيمة مائة وخمسين ألف ليرة لبنانية، وحوّلناه إلى فرع البنك الذي أتعامل معه، بعد تصريفه إلى دولارات، وكان المبلغ بقيمة سبعمائة دولار.

وانتهى العمل كلّه في ذلك اليوم، وشعرت بارتياح إذ صار باستطاعتي العودة قبل الموعد المقرّر. عدت إلى مشغرة، ووضّبت الحقيبة، بحيث لم تعد تتّسع لإبرة، ونزلت في الصباح الباكر بحثاً عن سيّارة تقلّني إلى زحلة أو بيروت، فوجدت السوق خالياً من الناس والسيّارات، وشعرت بالوحشة كمن يمشي وحيداً في صحراء، أتلفّت حولي حائراً، وحين أصبحت أمام بيت سامي طرابلسي حيث يكون الازدحام على أشدّه في الأيّام العاديّة، إذا بسيّارة بيضاء مقبلة، ومن فيها يقول:

– (أبو كميل اطلع، اطلع)، ونزل الرفيق يوسف علي صادر من السيّارة وتناول الحقيبة الثقيلة ووضعها في الصندوق، وانطلقنا بما يشبه الفرار إلى عيتنيت، وعلمت أن قوّات الأمن السورية قد أوقفت عنصراً من حزب الله لسبب لم أعرفه، فما كان من عناصر الحزب إلاّ أن خطفوا أربعة عناصر من الجيش السوري، واحتجزوهم، فتوتّر الحال بشكل خطير، وفي عيتنيت وجدنا الأمين عبد الله مازال في ثياب النوم، واستبقاني عندهم ذلك اليوم، وفي اليوم التالي لم أنسّ أن أودّع كميل، الوداع الذي لم

أذق أمرّ منه، وتابعت إلى بيروت لأذوق مرارة ثانية في جمع أشياء كميل الصغيرة وحشرها في حقيبتي.

أمضيت أسبوعاً في بيروت حسب ترتيبات موعد السفر، وأوصلني تمّوز إلى المطار، وساعدني إلى أن انتهت الرتيبات، ثمّ ودّعته وتوجّهت إلى قاعة المسافرين. وأقلعت طائرة الـ "ميدل إيست"، تحمل في جوفها مأساة وطن بأكمله، وجوهاً كالحة، صراخ أطفال، عائلات كاملة تنزح وهي تنزف، أمّهات يحتضنّ أطفالهن، وقد فقدوا الأب أو الأخ أو المعيل، سكوت ووجوم، يتخلّله صراخ طفل بين الحين والآخر.

IV
(1997 - 1986)

1. سوء تفاهم

حين قاربنا الوصول إلى فرانكفورت، دار الحديث بأصوات خافتة بين الركّاب، عمّن يكون بانتظارهم، في المطار، وماذا يمكن أن يفعلوا في حال عدم وجودهم، وارتفعت الأصوات، وصارت لغطاً عندما اقتربت الطائرة من المطار، ممّا أوجب على قائد الطائرة أن يطلب منهم الهدوء.

غادرت الطائرة إلى الفندق حيث سأقضي ليلتي، لنتابع في الغد إلى لوس آنجلوس، وتعجّبت لكوني أصبحت وحدي من بين كلّ ركّاب الطائرة، تناولت طعامي باكراً، وأسرعت إلى غرفتي، فقد كان النوم هو فقط ما أحتاجه.

أعجبني في الفندق دقّة المواعيد وحرص إدارته على إيقاظ الركّاب، وإعلامهم عن توقيت رحلاتهم، وإرشادهم إلى السيّارات التي ستنقلهم إلى المطار، وكلّ ذلك يجري بهدوء، ودون أن يحتاج أحد لسؤال أو لقول كلمة، وإن قيلت، فلا يسمعها إلاّ من تعنيه، وفي المطار الفسيح تجد جميع وسائل الإرشاد، ووسائل النقل إلى أيّ مكان تقصده.

عدت إلى المطار، وأخذت طريقي إلى حيث الباب الموصل إلى الطائرة، وهناك تعرّفت إلى سيّدة لبنانية مسافرة إلى لوس آنجلوس، على الرحلة نفسها، وفي فترة الانتظار، اكتشفت السيّدة من خلال حديثي العفوي، أنّي لست من الصنف السياسي الذي ترتجيه، وكانت نقطة الخلاف عندما أكّدت لي:

– "إنّ الله وعد إسرائيل بالاستيلاء على أرض الكنعانيين، ويجب أن يتمّ ذلك"، ولم أدر عن أيّ "الله" كانت تتحدّث، وعندما لقيت منّي عدم التجاوب مع هذا الرأي، بل الرفض، تركت مقعدها، ولم أعد أرى لها وجهاً. وصعدت إلى الطائرة، هدوء ونظام

على أكمل وجه، المضيفات أجسام مشدودة، وآذان مرهفة، وعيون مفتوحة، واستعداد لتلبية أيّ طلب وبأقصى سرعة. وصلنا مطار "لوس آنجلوس" المترامي الأطراف، وأرهقني الصف الطويل الذي وقف أمام اليافطة التي كتب عليها "أجانب"، إلى أن وجدت عربة وضعت عليها حقائبي، وتوجّهت إلى غرفة الهجرة، التي تمّ فيها استجواب طويل حول أسباب ذهابي إلى لبنان وعودتي السريعة، وفيما الموظّفة تتفحّص الجواز والتأشيرات المتقاربة في أوقاتها، صرت أشرح بلغتي الإنكليزية الضعيفة، وبصدق وعفوية، الأسباب الموجبة لتلك الرحلة، وأطلقتني الموظّفة أخيراً، فأسرعت باتّجاه الباب لأجد روبير وقد عيل صبره من الانتظار، وبدأ يفكّر بما يمكن فعله، وصعدنا إلى السيّارة، وفي الطريق أخبرني عن أهمّ ما جرى أثناء غيابي، وأخبرته ما جرى معي. ووصلنا إلى بيت الصهر، وأحسست أن فرحة اللقاء كانت باهتة، وهو أمر طبيعي لمن في مثل وضعنا، وفُتحت الحقيبة ونُكئ الجرح الذي ما زال ينزف. ولم أجد مبعثاً للقليل من الراحة، سوى النوم.

*

كنّا في الأسبوع الأوّل من تشرين الثاني، عام 1986، والطقس في "بيربانك" صيفاً، أفقت باكراً مثل العادة، وكنّا ما نزال في فراشنا العريض، صارت أمّ كميل تخبرني نتفاً من أحاديث جرت في بيت إيلين، وملاحظات راي حول وضعنا، وكأنّه متخوّف من طول إقامتنا وتحمّل مصاريفنا. ومع الأيّام ابتدأت أشعر أنّ عند راي شيئاً يريد قوله ولا يعرف كيف، وذلك انطلاقاً من الذهنية الأميركية التي نشأ عليها، وكنت ألمح التماع عينيه عندما كنت أخبره أنّني حوّلت أموالاً من لبنان، وبالتالي يصبح بالإمكان أن نخفّف من تكاليفنا، التي نعوّض عنها أضعافاً بطرق غير مباشرة، إذا أردنا أن نحسبها على الطريقة الأميركية، وبغير منّة لأنّنا مع إيلين وأولادها، ونشعر بوضعها الحرج، وكان روبير في تلك الفترة يسعى إلى تأمين شقّة لننتقل إلى السكن فيها معه، ولو انتظر راي قليلاً لظفر، إذ ليس من المعقول أن نبقى مقيمين في بيته

وبيت إيلين مدى العمر، بل كانت مرحلة مؤقّتة. وقد كانت أمّ كميل، ومنذ أوّل يوم في بيت إيلين وراي، هي التي تتولّى تحضير الطعام، فتذوّق راي الطعام اللبناني الأصيل وأحبّه، كما كانت تهتمّ بالولدين غريغوري وسامي اللذين وجدا في جدّتهما الملجأ الأمين، والحنان الذي لا يوصف.

وذات يوم مرّ بنا روبير وهو عائد من عمله، في طريقه إلى حيث يسكن هو وحسين، وكان الوقت عند الغروب، وقد عاد راي من عمله وانتهينا من طعام العشاء الذي حضّرته أمّ كميل، فابتدأ راي الكلام متوجّهاً إلى روبير بأسئلة عن سير العمل، وروبير يجيب بعفوية، وكانت أسئلة راي بهدف الوصول إلى النقطة الحسّاسة التي يستطيع منها أن (يفشّ الخمير والفطير)، وأطلق سؤالاً:

- "ماذا تفعل ياروبير لمساعدة أهلك؟"

- "أشتغل ستّة عشر ساعة في اليوم، وأعمل ما في وسعي لتحسين وضعي"، وكان روبير أثناء تواجده في منزل أخته، في السنوات التي فصلت بين حضوره وحضورنا، قد اشتغل مع راي، ولم أكن على دراية بتفاصيل تلك الفترة، وصرت أستنتج ما يريده راي، دون أن يقوله، واستمعت إلى النهاية دون أن أتلفّظ بكلمة، وانصرف روبير، واستمر راي متابعاً الكلام معي، وهو يلوم روبير على ما فعله ويفعله، إلى أن استنفذ كلّ ما عنده، وساد وجوم، قطعته بسؤالي:

- "أتريد أن تسمع لي الآن؟"

- "تفضّل"، وشكرته صادقاً في البداية على استضافته لنا كلّ تلك المدّة، من تاريخ وصولنا من لبنان، في 21 آب إلى أوائل تشرين الثاني، وأتبعت المقدّمة بكلمات قليلة حاسمة بما معناه:

- "(حلّ عن روبير) وإذا كنت متضايقاً من وجودنا إلى هذا الحدّ فما لك إلاّ أن تقول، وأنا أخرج في الحال وأنام على الرصيف". فأجاب:

- "No, No" ولم يعد يعرف كيف يعتذر.

تركتهم ودخلت الغرفة، وتمدّدت على فراشي أستعرض ما حدث، وبعد حوالي عشرين أو ثلاثين دقيقة، دخل راي على الضوء الخافت، وجثى بجانب فراشي، وأخذ يدي يقبّلها ويبلّلها بدموعه قائلاً:

- "أنا آسف، لا أقصد هذا، سامحني" فأخذت أهوّن عليه وأطيّب خاطره بصدق ومحبّة، فاطمأنّ، وانصرف، وأحسست أن عيناه انفتحت، بعد أن أغلقتها الترسّبات التي انتقلت إليه من محيطه، وأحسست أنّه بعيد عن إدراك المعاناة التي نمرّ فيها، وأنّه تكبّد كثيراً في مسايرتنا والتعاطف معنا، وكانت تلك الليلة هي الحدّ الفاصل بين الذي مضى، والذي سيأتي.

وابتدأت أحثّ روبير على استعجال ما بدأه في إيجاد بيت، ولم تمضِ سوى أيّام معدودات، حتّى صار عندنا بيت في المبنى نفسه الذي يشغل فيه روبير وحسين شقّة، وانتقلنا إلى شقّتنا، وتدبّرنا أمورنا كيفما اقتضى، في أوّل كانون الأوّل 1986، ومرّت مواسم الأعياد المثقلة بذكريات الماضي القريب المؤلمة، في بيت يحتاج الكثير، ولكنّه وفّر لنا الحرّية.

2. نعيش ولا نحيا

واحد من الذين جمعتني بهم وحدة الحياة والصداقة الحقّة التي رافقتنا سنيّ العمر كلّه، إميل رفّول، والذي لا تختلف معاناته عن معاناة أيّ مواطن لبناني، من تهجير واغتراب، وكانت المراسلة بيني وبينه عمليّة منتظمة في دقّة المواعيد والحرص عليها. بدأت الاتّصالات الأولى بالهاتف، هو في هيوستن وأنا في بيربانك، ثمّ كانت أولى هذه المراسلات، رسالة بعثت بها إليه عند عودتي من لبنان، وكان قد أوصاني لأحضر له أوراق المعمودية له ولزوجته آمال، وتضمّنت تلك الرسالة الأوراق المطلوبة، كما تضمّنت آخر المستجدّات التي حدثت في مشغرة بعد أن تركها كلانا بفارق أسبوع واحد. وقد أجاب عليها وضمّن ردّه ما عنده من أخبار وتعليقات، في

رسالة أُرِّخت في 1986/11/15، يقول لي فيها:

[رسالتك بقدر ما سرّتني لأنها مكّنتني من قراءة ما اعتمل في أعماق أعماقك، وإن كنت لا أجهل ذلك، لأنه فاعل فيَّ كما هو فاعل فيك، بقدر ما آلمتني شديد الألم، لأنها نقلت لي صورة جديدة عمّا يحدث في مشغرة من جديد، وما أعنيه اقتحام الرعاع لبيتك وبيت الصديق حكمت، ألم يكفهم الدم المهراق الذي جبلوا به تلك التربة المقدّسة]... [نحن نعيش هنا ولا نحيا، على حدّ تعبيرك، لأنّ صورة مشغرة وما فيها، وما لنا فيها، لا يبرح مخيّلتنا إطلاقاً، ألا قاتل الله الاغتراب ما أقتله، وخصوصاً إذا كان قسرياً].

*

كانت لور شقيقة برت كما ذكرت سابقاً، قد انتقلت للعيش في أميركا، وكانت تقيم وقتها في مدينة "San Jose" في كاليفورنيا، التي تبعد عن مدينة "بيربانك"، حيث نقيم، مسافة تستغرق 45 دقيقة بالطائرة، فدعتنا لقضاء أسبوع عندها، وكانت الرحلة سهلة كمن ينتقل إلى بيت جاره. واستقبلتنا لور بقلبها الكبير وضيافتها الكريمة، فأحسّت برت بنوع من العزاء، على الأقلّ من ناحية الإحساس بالغربة. وكانت أمّ كميل وقتها تشكو من عملية البلع، إذ تشعر أنّ جسماً غريباً داخل البلعوم، حتّى في شرب الماء، فأخذتها أختها إلى الطبيبة التي تتعالج عندها، وبعد فحص دقيق، وأسئلة عديدة، حوّلتنا إلى طبيب مختصّ وهو قريب من بيتنا في بيربانك، وأعطتنا الطبيبة تقريراً حملناه معنا حين عودتنا.

أخذنا موعداً عند الطبيب الجار، فأعاد الكرّة في الفحوصات والأسئلة الكثيرة، ممّا شغل بالي، وصرت أحسب للآتي ألف حساب، وحوّلنا إلى طبيب مختصّ في المستشفى الحكومي الكبير في مدينة "لوس آنجلوس".

كان الموعد الثاني بعد بضعة أيّام، ووجدنا أنفسنا في دنيا غريبة وبعيدة كلّ البعد عمّا ألفناه، فالعيادة الخارجية، حيث دخلنا، كانت مبنىً ضخماً من عدّة طبقات

تكثر فيه السلالم والمصاعد، وأناس بالمئات موزّعون على العيادات الكثيرة، وأرشدونا إلى المكان حيث يجب أن ننتظر دورنا، وانحشرنا بين العديد من الناس في قاعة انتظار تؤدّي إلى عشر غرف متلاصقة تابعة للعيادة، وابتدأت المناداة على الأسماء ومعظمها من المكسيك وأميركا الوسطى، ووصل دورنا، ورغم تعثّرهم بلفظ "بركة" أدركنا أنّ هذا هو اسمنا، فدخلنا إلى الممرّضة لأخذ ضغط الدم والحرارة والأسئلة الأوّلية عن الاسم والعنوان والعمر، إلى أن وصلنا أخيراً إلى الطبيب المسؤول وغرفته المجهّزة بأحدث الأجهزة.

طبيبنا هذه المرّة كان أرمنياً، وهو (ابن حلال وشاطر)، أخذ وقته في الفحص الدقيق وقال لنا أنّه سيجري فحوصات مخبرية، وأعطانا موعداً لذلك الغرض وإرشادات لازمة، وعدنا إلى البيت مرهقين بعد مضي أربع ساعات، وأفكار عديدة تتقاذفني، أحاول جاهداً إبعاد السيّء منها، دون طائل، متمنّياً أن يطول أجل الموعد الثاني، علّ وعسى أن تحصل أعجوبة تنقذنا من هذا الكابوس المزعج.

وتأتي المواعيد متلاحقة دون أن نفقد الأمل، إلى أن يأتي موعد الفحص المخبري الحاسم، فنذهب إليه ويدنا على قلبنا، وقد ذهبت معنا إيلين لتخفّف عنّا صعوبة التكلّم بالإنكليزية، وبعد فترة انتظار أخذنا طريقنا المتشعّبة إلى الطابق الثامن عشر في المبنى العام الملاصق لمبنى العيادة الخارجية الذي يبدو كاللعبة بالنسبة لحجم المستشفى، وفي المختبر تمّ أخذ عيّنة للفحص في حضورنا، وأُعيد، على صعوبته، مراراً في الجلسة نفسها، وبرت تتحمّل كلّ ذلك بصبر عجيب، وفي نهاية المطاف قالوا لنا أنّ النتيجة تعطى لاحقاً، وأعطونا موعداً جديداً، تمثّلته أمام عينيّ يحمل في طيّاته ما لا نستطيع تحمّله ولا نريده، حتّى للأعداء.

*

وظهرت النتيجة، وأعلمونا إيّاها مع الكلمات التخفيفية التي يعرفها ويتقنها الأطبّاء في مثل هذه الحالات، وابتدأت رحلة العذاب مع "السرطان" لأمّ كميل، ولنا

جميعاً. وكنّا لا نزال في صدد معالجة الجرح النازف الذي كان، وسيبقى، السبب لكلّ معاناة نمرّ فيها.

3. أمنيات غامضة

لم يمضِ على وجودنا في الولايات المتّحدة أكثر من خمسة أشهر، وكانت إيلين قد تقدّمت خلالها بطلب الإقامة الدائمة لنا من دائرة الهجرة، حتّى تم الاستجواب والموافقة، في زيارة واحدة، ففي يوم 5 آذار 1987 ذهبنا إلى الدائرة ووقفنا في قاعة فسيحة مملوءة بالمقاعد، ومئات الناس من جميع أجناس الأرض ينتظرون أن تعلن أسماؤهم، والعيون مسمّرة إلى باب يطلّ منه من يحمل أوراقاً وينادي، ومنه تعود الوجوه، إمّا كالحة، أو باسمة سعيدة. ودخلنا نحن الثلاثة، أم كميل وإيلين وأنا، ولم يطل بنا المقام. سُئلنا أسئلة سهلة وبسيطة، وأجبنا بما قلّ ودلّ، وطُلب منّا الوقوف ورفع اليد اليمنى، وردّدنا مع المسؤولة قسَماً صغيراً لحفظ الولاء والقانون، وحصلنا على "الغرين كارت" فأصبحت إقامتنا قانونية، ونتمتّع بامتيازات المواطن المقيم في الولايات المتّحدة الأميركية، ومنها الطبابة والاستشفاء.

وابتدأنا في تدبير أمورنا بتروٍ وحسب الظروف، أمّ كميل وروبير وأنا، ولم يكن همّ البيت ولا الأكل والشرب ما يشغل بالنا، بل أصبح الهمّ الأكبر حالة برت، ومواعيد المستشفى، وما يقوله الأطبّاء عنها، وتعاون معنا الصديق والرفيق حسين صادر، حيث نسكن وإيّاه في المبنى نفسه، وهو يملك سيّارة، ونعتبره، ويعتبر نفسه بالنسبة لنا، مثل روبير من حيث المسؤولية، كما راي وإيلين، ورغم ذلك كانت بعض المواعيد تجبرنا على استعمال وسائل النقل العامّة "الباص" وتستغرق رحلة الـ 15 – 20 دقيقة بالسيّارة، أكثر من ساعة بالباص، ومثلها في العودة، إضافة إلى وقت المستشفى ممّا يأخذ النهار كلّه، ويدخل في حساباتنا الموعد الذي يلي، وتوقّعات ما ينتج عنه، والأماكن والأجهزة التي، مجرّد النظر إليها، يوحي بألف فكرة وفكرة. وتجاوزنا هذا

كلّه، إلى يوم الموعد مع الطبيب الجرّاح، ليأخذ القرار بعد أن يجري فحصاً نهائياً، ويعيّن الرسوم المالية، وكلّ ما كنّا قد دفعناه قبلاً، هو رسم المستوصف فقط، وقيمته 39 دولاراً.

الطبيب الجرّاح إيطالي الأصل، ومختصّ في هذا النوع من الجراحة، وقيل لنا أنّ الأطبّاء يستطيعون، بعد الجراحة، الحكم النهائي على نوع المرض، لنبقى معلّقين في خيط الأمل الواهي. وأنجز الطبيب عمله، وحمّلنا بعض الأوراق، ورسم لنا الطريق إلى بناء ملاصق حيث المكتب المتعلّق بالأمور المالية، وصلنا ووضعنا الأوراق في السلّة أمام الموظّفة، وكنّا وحدنا، برت وأنا، سألتنا:

- "من سيدفع تكاليف العملية؟" أجبتها:
- "وما هي القيمة المطلوبة؟"
- "800 $ في اليوم"
- "ليس معي 800 سنت، فكيف يكون ذلك؟"
- "في هذه الحالة لا تدفع بالمرّة" وفتحت جرّار مكتبها وأخرجت منه أوراقاً طلبت منّي أن أملأها بالمعلومات المطلوبة، وساعدتني قليلاً، ثمّ وجّهتني إلى بناء ثالث حيث تقديمها وتوقيعها أمام الموظّف المسؤول.

وذهبنا، وسألنا، وانتظرنا، ثمّ عملنا المطلوب، وأنا غير مصدّق أن يحصل ذلك كلّه في يوم واحد، ومن السابعة صباحاً إلى الخامسة مساءً، تخلّله تناول "سندويش" على الماشي في فترة انتظار، وعدنا إلى البيت، ونحن في شعور أنّنا أمضينا يوماً، أين منه ضرب المعول وتشقيف الحطب طوال النهار.

*

أبواب المستشفى الحكومي مفتوحة على مدار اليوم، بما فيها الصيدلية، وقد صرت خبيراً في الممرّات والأجنحة، بمدّة وجيزة، ممّا ساعدني وقت الحاجة، وعندما حان وقت العملية لأمّ كميل، كنت الدليل لكلّ أفراد العائلة، وتجمّعنا في غرفة

الانتظار المقابلة لباب جناح العمليات الممنوع اجتيازه لغير الأطبّاء والممرّضين، وطال جلوسنا مع القلق واللهفة، وما أن أطلّ الطبيب من ذلك الباب، وهو ينزع الكمّامة عن وجهه، حتّى أسرعت إليه إيلين، كالعصفورة، وسألته، فأجاب:

– "Perfect"، (تمام)، فطبعت على خدّه قبلة. وحفظنا جميعنا اسمه الإيطالي [لوبروستي]، ونُقلت برت إلى غرفة العناية حيث ستقضي ليلة قبل أن تُنقل إلى حيث نستطيع زيارتها والجلوس معها.

وما هي إلاّ أيّام قلائل حتّى تماثلت أمّ كميل للشفاء، وصار باستطاعتنا أن نأخذها إلى البيت، وفرحنا جميعاً بتلك العودة، وكأنّها كانت مسافرة بعيداً عنّا، وعادت.

ابتدأنا نتعوّد نمط العيش، وصرت أتجوّل وأتعرّف على المنطقة المحيطة، كلّما سنحت الفرصة، مسترشداً بخريطة المدينة، فصرت أعرف الاتّجاهات والأماكن، وسهُل عليّ التجوّل حتّى في أواسط "لوس آنجلوس" المزدحمة، حيث تقع دائرة الهجرة، والأبنية الحكومية، والمستشفى الحكومي الكبير الذي توالت زياراتنا إليه، بعد إجراء الجراحة لإمّ كميل، لمراجعة الطبيب، وحسب مواعيد محدّدة، كي يراقب التئام الجرح الكبير الذي كان من الجهة الأمامية من الرقبة، والذي أصبح بعد بضعة أسابيع، كخيط أسود رفيع من الوريد إلى الوريد، إلى أن تلاشى، وبالكاد نميّزه.

وأحسّت أمّ كميل بنشاط، وصرنا نخطّط لأشغال في البيت لتحسين المفروشات وترتيب الغرف واستبدال أدواتها. وتوسّعت دائرة التعارف إلى العائلات اللبنانية القريبة منّا، ولكنّ دفتر المواعيد التابع للمستشفى، كان يسجّل زيارات تتباعد بين ثلاثة أو أربعة أسابيع، فتعوّدناها وألفناها، على أمل أن يحمل الموعد التالي ما يشير إلى تحسّن وتطوّر نحو الأفضل، ولم نكن نحصل سوى على وعود وتمنّيات غامضة.

4. مشاعر لا تموت

في أحد الأيّام، في أوّل السهرة، اتّصلت بنا إيلين وقالت:

- "عندي سيّدة لبنانية ترغب في رؤيتكم" أجبتها:
- "من هي تلك السيّدة؟ ألا نعرفها؟"
- "تقول أنّها صديقة كميل من الجامعة".
- "أهلاً وسهلاً"، وبعد قليل حضرت إيلين من بيتها الذي لا يبعد كثيراً، وبصحبتها سيّدة طويلة القامة، لباسها غريب بعض الشيء، وما إن دخلت من الباب، حتّى بدأت تقبّلنا الواحد تلو الآخر، ودموعها تبلّل وجهها ووجوهنا، ودموعنا لم تكن تحتاج من يثيرها، فهي متحفّزة ومكبوتة، وكان لقاءً مثيراً للغاية، عبّرت فيه الدموع عمّا لا يستطيع الكلام أن يقوله، تبعها فترة صمت قصيرة قطعتُها بسؤالي:
- "كيف عرفت أنّنا هنا؟" وكان جوابها أنّها ما برحت تسأل عن أخبار الوطن، إلى أن علمت القصّة بتفاصيلها، وتوصّلت إلى معرفة هاتف إيلين، فخابرتها. وقدّمت نفسها لنا، ربيعة سكّرية، زوجة طارق سكّرية، الضابط في الجيش اللبناني، أمّ لولدين في العاشرة والثامنة من العمر، وكان وجودها في الولايات المتّحدة لدراسة الماجستير في الفنون، بمنحة من مؤسّسة الحريري، وكانت زميلة لكميل في كلّية الفنون الجميلة في بيروت.

مع مرور الأيّام تعمّقت صداقتنا مع السيّدة ربيعة، وصرنا نتابع نشاطها وتفوّقها في الجامعة، وسكنت في مكان قريب نسبياً بحيث كان باستطاعتها أن تزورنا دائماً وساعة تشاء. ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أنّ هذه السيّدة على طموحاتها وتطلّعاتها الغنيّة، وجدت في بيتنا المتواضع كلّ ما افتقدته في سنيّ حياتها، وجدت عائلة من أمّ وأب وإخوة وأخوات، رأت نفسها فرداً من أفرادها، كانت تحسّ بالدفء والمحبّة التي تغمر المكان، كانت ترتاح في الحديث والطعام وكلّ ما يبعث على الطمأنينة والهدوء، وكانت أمّ كميل لا تفرّقها عن ابنتنا إيلين، إذ كانت تشعر في وجودها بالفرح والقوّة،

أثناء الحالات الصحّية الصعبة واشتداد وطأة العلاج.

وأقامت ربيعة معرض صورها الأوّل، في إحدى قاعات فندق في "لوس آنجلوس"، ودعتنا إليه، كذلك دعت أبناء أختي نسيبة، "فكتر" و"رتشرد" المختصّين في التصوير السينمائي. وكنّا جميعاً هناك في افتتاح المعرض، وأهدانا "فكتر" لوحة من أعمالها.

"فكتر"، كان قد اشترى بيتاً في سانتا مونيكا وانتقل إليه، وكان قبلها مقيماً في ستوديو سيتي، وبعدت المسافة بيننا، إضافة إلى انشغالاته الكثيرة، فصرنا لا نراه إلاّ نادراً. بينما "رتشرد"، وبحكم قربه منّا، وعملي معه، فقد تمتّنت صداقتنا، وصار يرتّب في أوقات فراغه، وبمرافقة زوجته "إيفيت"، نشاطات ورحلات إلى أماكن قريبة وجميلة، للترفيه عنّا، والتخفيف من الضغط الذي نعانيه.

*

كنت أكتب للصديق إميل رفّول، في هيوستن، عن كلّ ما يجري معي من نشاطات وأحداث، وفي رسالة جوابية له مؤرّخة في 1987/1/16، وكنت قد أخبرته عن الجوّ الذي بدأ يحيطنا ويحتوينا مؤمّناً بعض الاستقرار، قال:

[.. *فأنت أحوج الناس إلى هذا الجوّ الذي قد يهبك بعض الاستقرار والتركيز، ويعيد إلى نفسك الكبيرة شيئاً من الراحة، التي باتت هي وباتت نفوسنا بأمسّ الحاجة إليها.. أقول سررت بما حملته الرسالة، لأنها أراحتني أنا نفسياً بالنسبة إلى وضعك بعد التجربة الكبرى والامتحان العظيم اللذين مررت بهما، لا عجب في صمودك، فمن حمل فوق منكبيه آلام أمّته طوال حقبة من الزمن، لن يعجز عن تحمّل آلام نفسه هو، مهما عظمت، وهذا ما أشار إليه المعلّم في قوله: "إنّ آلاماً عظيمة، آلاماً لم يسبق لها مثيل في التاريخ، تنتظر كلّ ذي نفس كبيرة فينا"*].

في عام 1987، كنّا لا نزال، على ما يبدو، في غمرة اختبار أن يفقد الإنسان معنى البيت والوطن. إضافة إلى الحدث الجلل الذي كان سبب هذا الفراغ الموحش،

ويجبهنا التحدّي القائم بين إرادة الحياة والمرض الذي هجم علينا من خلال أمّ كميل، كلّ هذه الأشياء وضعت أمامي تصوّراً واحداً، ألا وهو الصمود، والمقاومة، فبدونهما أشعر بنفسي تافهاً لا قيمة لوجودي، فمن يتلقّى الصدمات بانكسار وهزيمة، يكون قد أعلن استسلامه قبل بدء المعركة. ومن خلال ما أخذته على نفسي، كنت أشعر بالفرح والقوّة عند تحقيق كلّ هدف أنجزه مع الاستعداد لما يليه. ومرّت الأيّام بحلوها ومرّها، دون أن تنال من عزمي، ومن التصميم الذي وضعته أمام عينيّ من نسيانٍ للماضي، إلاّ ما يفيد الحاضر والمستقبل.

وذات يوم، قال لي روبير:

- "عندنا اجتماع مع بعض الشباب، أتذهب معي؟"

- "لم لا؟"، وكانت هذه بداية إعادة جمع شمل مديرية لوس آنجلوس، بعد أن حصل ما حصل في قيادة الحزب في الوطن، من انشقاق وما تبعه من توتّر وانقسامات، وكنّا روبير وأنا مع هيأة المديرية، فتعرّفت إلى الرفيق "سيرج هتايان" الذي أعجبني منه عزمه وإصراره على متابعة العمل، رغم ما توحي به الحالة العامّة من إحباط، وشاركت بما أعرفه بخبرتي من حالات مماثلة في تاريخنا الحزبي، كنت قد تمرّست في حلّ مشاكلها وتجاوزها.

5. حبال الهواء

كان وجودنا في الولايات المتّحدة قد بدأ يضرب جذوراً، ويمدّ مع المحيط تفاعلاً، ويزداد بالأصحاب والمعارف غنىً، وبشكل ملحوظ. وبعد تطوّر الحالة الصحّية لأمّ كميل، وصولاً إلى الجراحة التي شكّلت فاصلاً في مسيرته، صارت برت قادرة على مرافقتنا في حياة طبيعية، مع تعديل طفيف يفرضه واقع المرض. وفي أحد المواعيد أبلغنا مكتب الطبيب المعالج أنّ علينا مراجعة عيادة ثانية في مبنىً مستقل، وأعطانا تقريراً كبيراً نأخذه معنا إلى تلك العيادة لتحديد موعد لتجربة علاج جديد اسمه

"العلاج النووي"، ممّا أعطاني انطباعاً بأن المريض في هذه الحالة أشبه بحقل اختبار. والأصعب في الأمر، أن لا إكراه في المعالجة، فنحن أحرار في اختيارنا قبول العلاج أو رفضه.

عدنا إلى البيت بوجوه كالحة وأفكار مضطربة، وعقدنا شبه اجتماع نتشاور فيه حول المعلومات التي أعطونا إيّاها عن العلاج وتركونا نتخبّط، حيث لا ضمانة ولا تأكيد من جانبهم على النتائج، والذي اتّخذ القرار الحاسم، هو نوعيّة المرض ونتيجته الحتمية، التي يمكن إبعادها بإطالة أمد العلاج، بأدوية ووسائل تطرحها مختبرات العالم، وفي طليعتها الولايات المتّحدة، إذ صحّ فينا المثل القائل (الغريق بيتعلّق بحبال الهوا). وقرّرنا أنّ تذهب أم كميل إلى هذا الاختبار الصعب، ولو كان التحسّن واحداً في الألف.

وذهبنا، أمّ كميل وأنا، ويدنا على قلبنا، فمجرّد ذكر الاسم يخيف، "المعالجة بالذرة"، إضافة إلى جهلنا بالأمر كلّياً، والإنسان عدوّ ما يجهل. وفي غرفة الانتظار أخذت تتوالى علينا الأوراق التي تطلب الموافقة والتواقيع، ثمّ حضر الفنّي الذي يشرف على هذا النوع من العلاج، وجلس قبالتنا وأخذ يشرح لنا قدر الإمكان عن ماهيّة العلاج، وأعراضه الأوّلية، ونتائجه النهائية، والذي فهمناه من هذا الشرح الطويل أنّ العلاج (إذا ما نفع، ما بيضر)، أي تجربة، وكنّا قد وقّعنا الأوراق واستسلمنا استسلام العاجز ولسان حالنا يقول: "أنا الغريق فما خوفي من البلل".

انتقلنا إلى الغرفة المعزولة التي ستمضي فيها أمّ كميل أربعاً وعشرين ساعة، لا يدخلها أحد سواها، حتّى الطعام تضعه الممرّضة أمام باب الغرفة، وتأخذه أمّ كميل إلى الداخل، تأكل وترمي الأوعية، كلّ هذا بعد أن تأخذ الجرعة الدوائية التي لا يزيد حجمها عن حبّة الخردل، وموضوعة في عبوة من الرصاص بحجم خرطوشة صيد، يحمله الاختصاصيّ في علبة معدنية مغلقة، وهو يضع على أنفه وفمه كمّامة، ويشرح لأم كميل أنّ عليها أن تأخذ الجرعة دون أن يتسرّب منها ذرّة إلى الخارج، وبواسطة

أنابيب محكمة التركيب الفنّي والإغلاق، ووقف هو على الباب يشّجعها: "ليست أكثر من جرعة ماء"، وأنا أراقب كمن يتابع وقائع فيلم من أفلام الخيال العلمي، أثناء تصويره، وبقيت خارج الغرفة حتّى نهاية الوقت المسموح فيه للبقاء.

في اليوم التالي تأخّرت في الذهاب ريثما تنقضي الأربع والعشرون ساعة، وحين وصلت سمح لي بمقابلة أمّ كميل دون المساس بأيّ غرض، وأعطوني كرسيّاً أجلس عليه في فتحة الباب فقط، وكانت مرتاحة وفي حالة طبيعية، ولكن عليها أن تبقى ليلة ثانية، زيادة في الحرص، للتخلّص من الإشعاعات.

وانتهينا أخيراً من هذه التجربة، ونحن على أمل أنّ ما قمنا به سيكون إيجابيّاً.

6. استراحة محارب

علّمتني الأيّام أنّ الزمن لا يقف عند واحدة من مآسيه، مهما عظمت أو كبرت، ولا هي تشكّل فيه نقطة انعطاف، مهما بلغ أثرها، بل أنّ المآسي رفيقة الحياة، لا تلبث تأتينا كلّ يوم بزيّ جديد وشكل مختلف، شأنها شأن ما يرافق الحياة في امتدادها وتلوّنها. ومن هنا تأتي فلسفة اقتناص الفرص، إذ لا أحد يعلم ما الذي سيأتيه. هكذا كنت أفكّر في واحدة من استراحات المحارب، وتبيّن لي أنّه بالإمكان الاستفادة من فرصة بضعة أيّام لتغيير أجواء ربّما في تغييرها بعض الإفادة المعنوية، في كسر الروتين الذي نعيشه كلّ يوم.

وفي إحدى زياراتي الروتينية لابنتي إيلين قلت لها:

– "دعينا نسأل عن تكاليف رحلة مواصفاتها .. (كذا وكذا)"، فدعتني إلى الركوب في السيّارة، وأوّل شركة دخلنا مكتبها الضيّق، وكانت قريبة من البيت، جلسنا على كرسيين مقابل الموظّف، وراحت إيلين تحادثه وتسأله بالإنكليزية، التي كنت وما زلت ضعيفاً في التعاطي بها، وكنت أستمع دون أن يدور في بالي أنّ الصفقة تمّت، وطلب الموظّف 250$ لرحلة ذهاب وإياب، مدّتها خمسة عشر يوماً، إلى عدّة

مقاطعات في أميركا.

كان قصدي من هذه الرحلة زيارة أصدقائي من مشغرة، جوزف شرارة في "أكرن أوهايو"، وألبير رفّول وإخوته في "ديترويت"، وسليمان الحموي في "شيكاغو"، وكانت تلك أوّل رحلة داخلية، بمفردي، دون جمارك وإجراءات أمنيّة، ولا أحمل سوى حقيبة ثياب صغيرة، وأوّل اختبار من هذا النوع أقوم به، ولا أدري لماذا كنت مطمئنّاً إلى أنّ الأمور ستسير على ما يرام.

وكانت كذلك بالفعل، استقبلني جوزف شرارة في مطار "كليفلند" بقامته المديدة وطلّته الحلوة، وفي البيت استقبلتنا والدته ببشاشتها وترحيبها، وقضينا أمسية حلوة، وفي سهرة اليوم التالي، كان والده حكمت معنا، فاجتمع الشمل في لقاء جميل استذكرنا فيه (صبحيّات) لبنان، وتحدّثنا عن أحوال مشغرة في الفترة الأخيرة أثناء غيابنا.

في اتّصال مع رائد إبن الأمين عبد الله محسن، تمّ الاتّفاق على أن يأتي ليأخذني إلى "ديترويت"، وودّعنا بيت حكمت وانطلقنا في اتّجاه ديترويت في طريق طويل، وبسيّارة رائد، وبعد مغادرتنا "أكرن" ناولني رائد مغلّفاً مغلقاً وقال:

- "هذا من جوزف" وإذ فيه مبلغ من المال مع كلمة شكر لزيارتي لهم، ولم أستطع حبس دموعي تجاه تلك البادرة الطيّبة والتصرّف الراقي من جوزف، ليحمّلني تجاهه المزيد من محبّتي وتقديري له، وقد كان القصد من زيارتي له التعبير عن امتناني لما قدّمه سابقاً، وبواسطة رائد أيضاً، لكنّه زاد الفضل فضلاً.

ومرّت فترة سكوت، استعرضت فيها تاريخ علاقتي مع هذه العائلة، والتي استمرّت وقويت مع العمر، ولم أزل أحفظ تصرّفات والده الوقور الصامت، وإن تكلّم فبصوت هادئ يحمل الحكمة والرأي الصائب. ولم ينقطع ذلك السكوت إلاّ عندما التفتّ إلى رائد أريد أن أقول شيئاً، وإذ هو نائم أو على وشك النوم، والسيّارة تسير بسرعة 60 - 70 ميل في الساعة، وصرخت به منبّهاً، فاستفاق، وركّز انتباهه حتّى

لا يتكرّر ما جرى، ومن جهتي لم أنقطع عن الكلام بعدها، وبمواضيع تثير اهتمامه، محاولاً إشراكه في الحديث، حتّى وصلنا إلى "بولينغ ج" حيث بيت رائد والجامعة التي يدرس فيها، ارتحنا ونمنا ليلتنا، وفي الصباح توجّهنا إلى "توليدو" محطّتنا الأولى، حيث زرنا هناك بيت رياض أبو عزّاج، وعصافيره التي يعتني بها، بالإضافة إلى ضيوفه، ومن معه في البيت. وتابعنا إلى منطقة "ديربورن" حيث زرنا بيت شكيب جعفر وولديهم حسّان ومحمّد مهدي، ثمّ وصلنا "ديترويت"، إلى بيت ألبرت رفّول، حيث أقصد، وبقي معنا رائد حتّى آخر السهرة التي تميّزت بالحضور الكثيف لرفاق كميل من مشغرة، بالإضافة إلى حضور إخوة ألبرت، جوزف وعادل وليلى وعائلتها، وكأنّ البيت انتقل إلى مشغرة، أو أنّ مشغرة انتقلت بمن فيها إلى هناك.

عبثاً حاولت الاتّصال بأولاد عمّي المتواجدين في ديترويت، وبعد جهد كبير تمكّنت من الاتّصال بـ يوسف بركة، واتّفقنا أن ألتقيه بعد عودتي من "فلنت" التي سأقصدها ليوم واحد، وحين عدت تعذّر الاتّصال نهائياً.

في فلنت تقيم لور شقيقة برت، وابنتها أمل التي تدرس في جامعة "الانسن"، وكانت نهاية الأسبوع عند سليمان الحموي وشقيقته لور، وصداقتي معه قديمة إضافة إلى القرابة، وكان قد ترك مشغرة في عام 1962 لإكمال علومه في أميركا، وبعد تخرّجه زار مشغرة أكثر من مرّة، وتوطّدت صداقتنا رغم فارق السنّ، بعد مناقشات علمية وفلسفية قاربت فيما بيننا. أمضيت عندهم يومين، استرجعنا فيها ذكريات الماضي، وأخذني سليمان رحلة سياحية طويلة بالسيّارة عرّفني بها على معالم "شيكاغو" الهامّة. وفي اليوم الثالث، كان موعد العودة إلى "بيربانك" فأوصلني سليمان إلى مطار "أوهير" الكبير، وبقي معي حتّى موعد دخول الطائرة ليضع في يدي مظروفاً مغلقاً، سألته:

– "ما هذا؟"

– (مافي شي بيحرز)، وأردت الكلام فمنعني، وتدافع الركّاب إلى الدخول. وأبى

سليمان إلاّ أن يدفع ثمن التذكرة.

7. زيت الجرح المضيء

في البيت صرفنا سهرات أحكي فيها عن مشاهداتي والناس الذين نحبّهم، وأمّ كميل تعرفهم جميعاً، وأجرينا مع كلّ من زرتهم، اتّصالات هاتفية جدّدت أمّ كميل خلالها مشاعر الصداقة وقد مضى على مفارقتهم سنوات، ثمّ بعثت لهم فيما بعد رسائل شكر على ضيافتهم، وكثرت زياراتي إلى صندوق البريد في "كاراج" المبنى الذي نسكنه، والمؤلّف من عشر وحدات يسكنها خليط من الأميركان والمكسيكيين والأرمن، ومن خلال التلاقي أمام صندوق البريد، تعرّفت على العديد من الجيران، إذ كان هذا الصندوق يحمل إليّ كلّ يوم عدداً من الرسائل، من أنحاء كندا وأستراليا ولبنان فضلاً عن أميركا، فصارت تلك الرسائل شغلي الشاغل، وتأخذ من وقتي حيّزاً غير قليل، والعمود الفقري لهذه الهواية كان رسائلي مع إميل رفّول، والتي كنّا نتبادلها بصورة منتظمة، نتشاكى فيها همومنا ومشاكلنا، ونتبادل الآراء وبوح المشاعر التي تنوء بثقل الحياة ومصاعبها. وكلّما عدت إلى تلك الرسائل، التي أحتفظ بها، بالطبع، وأعتزّ، تعيدني إلى القوّة والحياة. ولا تخلو واحدة منها من إشارة أو تلميح إلى السبب الرئيس لوجودنا في الولايات المتّحدة؛ هذا الجرح العميق الذي أنكأه في كلّ رسالة وحرف أكتبه، سيبقى الزيت المضيء، في ذلك المشعل الذي لا ينطفئ، ولن ينطفئ أبداً: كميل بركة.

*

في بداية شتاء عام 1987 – 1988، أصيب روبير بزكام قوي أقعده في البيت عدّة أيّام، كان فيها في أسوأ حالاته من شدّة الرشح والسعال من أثر التدخين، وأصبت أنا من تلك الموجة، في حين بدأ روبير يتعافى، وكنت دائما أحسب للزكام ألف حساب، وأحاول أن أتفاداه، وفي اليوم الأوّل منه لزمت الفراش للوقاية من

اشتداده، وفي المساء وبعد أن تناولت الحساء الذي أعدّته أم كميل، دخلت الحمّام لأغسل يديّ وفمي، فشعرت بدوار غريب لم يمهلني ثوانٍ، وانطرحت أرضاً فاقد الوعي، وسمعت أمّ كميل صوت الارتطام، فهرعت إليّ ونادت على روبير، وأفقت على صوت برت تنادي: "رشيد، رشيد"، وروبير يحاول أن يرفعني بين يديه، وعجبت ممّا يجري، وسألتهم:

- "لماذا أنا نائم في الحمّام؟"، إذ أنّني لم أعِ ما حدث، ووضعني روبير في فراشي كما الطفل الرضيع، وأسرع يطلب النجدة بواسطة الهاتف، وما هي إلاّ دقائق معدودات، حتّى دوّت صفّارة سيّارة الإسعاف، ودخل طاقمها غرفة النوم وحملوني إلى مستشفى "مار يوسف"، التي طلبت أنا أن ينقلوني إليها، وهناك كنت بكامل وعيي، وأبقوني في قسم الطوارئ ما يزيد عن ساعتين، وبعد جملة علاجات، نقلت إلى غرفة خاصّة، وأدركت أنّ المسألة ليست هيّنة، وإلاّ أعادوني إلى المنزل.

ثلاثة أيّام يعالجني فيها طبيب كلّفته إدارة المستشفى بمتابعة حالتي، وأنا مربوط إلى السرير بأنابيب المصل وأكياسه والأوكسيجين، غبت خلالها عن الوعي ثلاث مرّات، واستفقت في المرّة الأخيرة، لأجد حولي جمهرة من الأطبّاء، أحدهم يكاد رأسه يلامس سقف الغرفة، ويتكلّم مع زملائه، وسرعان ما انصرفوا، تاركين الطبيب الموكول إليه أمري، وكنت قد رجوته للمرّة العاشرة أن يعالجني من "الأنفلونزا" التي أعاني منها، وتسبّب لي تلك الإغماءات. وفي صباح اليوم الرابع، أخبرني أنّه سيضع لي المضاد الحيوي مع المصل، وبعد أربع أو خمس ساعات، استيقظت بنشاط، وأتيت على ما وجدته من طعام على صينيّة الغداء، وكذلك عند العشاء، ولم أصدّق مجيء اليوم التالي ليراني الطبيب، ويرى الفرق الكبير في حالتي، وفي دورته الصباحية على المرضى، وقف في باب الغرفة ينظر إليّ، فكدت أقفز من فراشي لأعانقه لولا إشارة من يده أن أبقى في الفراش، وقلت له:

- (شفت يا حكيم؟ ما قلتلّك؟) فربّت على كتفي، وصرنا بعدها صحبة.

وأمضيت في المستشفى يوماً آخر، قبل أن أعود إلى البيت لفترة نقاهة.

8. بالشعر تهون المحن

أمضيت فترة نقاهة صعبة في البيت، عانيت في بدايتها من نوم متقطّع وكوابيس، طالت مدّتها وأرهقتني، وأفكاري تدور بين حالة أم كميل المرضية، وندرة العلاقات بسبب بعد الأماكن، وعمل روبير ليلاً نهاراً لسدّ احتياجات البيت، كلّها أمور ترهق الأصحّاء، فكيف بالمرضى؟

وكان أمام البيت الذي نسكنه فسحة (سطيحة)، على طول المبنى وعرضه، بشكل زاوية، تصلح للمشي، في حال تعذّر الخروج من البيت، وفي عصر يوم وأنا أتمشّى كالآلة، تتقاذفني أفكار يضيق بها رأسي، ويجثم على صدري ما هو أثقل من حجر الرحى، بدأت أخاطب نفسي، بشكل عفوي، بمطلع قصيدة، شعرت كأنّ أحداً يضع كلماتها في فمي لأقولها:

ياريح، شوقي للوطن ودّي، وعند الحبايب، موكبك هدّي

مهد الطفولة ومرتع الغزلان وتراب إبني ووالدي وجدّي

تلفّظت بالمطلع وارتحت على أحد المقاعد المتواجدة في المكان، وتملّكني شعور غريب دمعت معه عيناي. وكأن أحداً ثقب ذلك البالون المنتفخ في رأسي إلى حدّ الانفجار، بدبّوس رفيع للغاية، وأزاح عن صدري الحجر الثقيل. أخذت نفساً عميقاً، وتلفّت حولي كمن يستفيق من رؤيا عجائبية، ونبّهني صوت أمّ كميل تدعوني إلى العشاء، ولم أكن أدرِ كم مضى من الوقت وأنا أتمشّى خارجاً، وجلسنا حول المائدة كالمعتاد، وكان الليل قد بدأ يهبط، وعجبت أمّ كميل لإشراقة وجهي، وعودة البسمة إليه بعد طول غياب، فسألتني عن سبب ذلك، ولم يكن لديّ جواب واضح، ولا تصوّر للحالة التي أنا فيها، فأجبت:

- "أشعر أنّي أحسن"، وتابعنا سهرة عادية، ثمّ أوينا إلى أسرّتنا، وبقيت أفكّر

بما جرى، يتسرّب من عقلي، ويسري مع ما يحتقن في صدري، كلمات أريد أن أسمعها للدنيا، إن بقيت في داخلي هي ذرّات تتفاعل وتتوالد تريد الخروج، ووجدت المسرب الذي بواسطته أصبحت كائناً ينبض بالحياة.

وكرّت المسبحة وأصبح لتلك القصيدة إخوة وأخوات، فقد كانت تلك الأمسية نقطة التحوّل الكبرى في حياتي، فبعد أن كنت على قاب قوسين أو أدنى لأن أصبح فريسة الحزن والهمّ القاتل، تنقلب الآية، فأقتل أنا في قصائدي ما كان يعذّبني ويقضّ مضجعي، أمتشق القلم، وأنا لست من أربابه، ليقول عنّي كلمة الحقّ التي تعتمل في نفسي.

*

في تلك الأثناء حضر الأب سليم غزال، وهو من مشغرة، إلى لوس آنجلوس في طريقه إلى أستراليا، ولا أعلم كيف حصل على رقم هاتفنا، ليعلمنا أنّه قادم لزيارتنا، ويطلب إرشاده إلى العنوان، فرحنا لهذه المبادرة، وانتظرنا بفارغ الصبر وصوله مع مضيفه ابراهيم سمعان وأبنائه، من المية ومية. وما كان أجمل تلك السهرة، ابراهيم في مثل سنّي ونشترك في الأفكار والمبادئ، ولا بدّ أن يكون الأب سليم قد أخبره بما جرى لنا، وبعد التعارف والأحاديث القصيرة في مثل هذه المناسبات، كان الوطن محور الحديث، مثل كلّ المغتربين، وأتحفنا أبو سمعان ببعض قصائده التي تحكي بصدق وعفوية حكاية كلّ مغترب، وأخبرنا أبونا سليم أخبار مشغرة التي طال شوقنا إليها، مع أنّ معظمها يحمل فواجع ومآسٍ.

كان في برنامج الأب سليم الغزال أن يقيم قدّاساً في كنيسة القدّيسة حنّة للروم الملكيين، التي كان راعيها تشارلز خليل عبّودي، من مشغرة أيضاً، يوم الأحد التالي، على أن تقام سهرة في بيت ابراهيم سمعان الذي يقطن في مدينة أخرى، بعد القدّاس. وتحمّس الصديق فؤاد تكلة لمرافقتي إلى ذلك اللقاء، لأنّ إبني روبير في عمله، وأمّ كميل لا تستطيع تحمّل المشوار، وترافقنا فؤاد وأنا إلى الكنيسة القريبة، لنجدها مكتظّة

(من الباب للمحراب)، فقد رافق الأب سليم كلُّ رعيّته من الميـة وميـة، وكـان قدّاسـاً احتفالياً جميلاً، ودار حديث النـاس فـي دار الكنيسـة حـول خطبـة الأب سـليم الغريبـة علـى رعيّـة "القدّيسـة حنّـة"، إذ لمسوا فيهـا القوّة والتجديد. وبعد التجمّعات والأحاديث التقليدية، تحرّك الموكب إلى دار آل سمعان، بسيّارات يتراوح عددها بين 15 إلـى 20 سيّارة، وفـي دار البيت الواسعة، مدّت الموائد وانتشر النـاس، جماعات حولها. وحول مائدة أصحاب الدار، كنّا ثلاثة من مشغرة، الأب غزال وشقيقته وأنا.

بعد الأكل والشرب، لعبت الخمرة بعض الشـيء ببعض الرؤوس، فصرت أسمع واحداً يغنّـي، وآخر يشتم، وثالث فـي جدال حامٍ مع زميل، وفجأة ساد الهدوء، إذ أنّ كـاميرا الفيديو بـدأت تتجوّل بين الحضور، وتسـجّل الكلام والحركات، وألقـى صـاحب الـدار قصيدته عـن الميـة وميـة، وحين انتهـى وقفت، فاتّجهت إلـيّ الكـاميرا، ومـا أن ابتـدأت حتّـى خنقتنـي العبـرات، فـأمهلني المصـوّر إلـى أن اسـتعدت قـوّتي، وألقيـت قصيدتي:

ياريح شوقي للوطـن ودّي	*وعند الحبايب موكبك هدّي*
مهد الطفولة ومرتـع الغزلان	*وتراب إبنـي ووالدي وجدّي*
وقلّهن هالشوق من إنسان	*بعدو لأهله حافظ مـودّة*
والإغتراب، البعد، والحرمان	*صـابر عليها كلّ هالمدّة*
العدل بدّو ينتصر ويبان	*رغم الظلم والقهر والشـدّة*
ويروح جيش البوم والغربان	*وكلّ فكر معفّن، مصدّي*
وتبقي يا أرض الطهر والإيمان	*ما يعود فيكي نـاس مرتدّة*
ان كنّا الضحايا بتشتري الأوطان	*عنّا ضـحايا، الكون بتقدّي*
النوم منها فارق الأجفان	*الشوك فرشة، والشقا مخدّة*
وشـريكتـي بالهمّ والأحزان	*ياريت متلـي صـابرة، وقدّي*
الحزن انفجر فيها مثل بركان	*لا إلو رادع، ولا مهـدّي*

أمّا أنا، ذكرى الأمل، اللي كان،   يضرب براسي متل المهدّة
مش عجيبة ال صار بيلبنان   بس العجب كيف بعدني مهدّي

ولم تبقَ عين من تلك الجموع إلاّ وشاركتني الدموع، وكأنّ ما أقوله كان نابعاً من صميم نفوسهم، ومعبّراً عنهم.

9. صحافي دون حقيبة

كنت أجتنب في البيت كلّ ما من شأنه أن يثير العاطفة ويجدّد الأحزان، وأنا أرى أمّ كميل تذوب أمام عيني، مثل الشمعة على نار حامية، مع اشتداد وطأة المرض والحزن المقيم.

هذه كانت حالنا في أواخر الثمانينات، 1988 – 1989، نعمل متعاونين، إيلين وروبير وأنا، في مواجهة متطلّبات الحياة، وأثبتت إيلين جدارتها وقوّتها في تدبير أمور عائلتين، بعد نزوحنا من لبنان، في ظروفنا الصعبة واحتياجاتنا الكثيرة، وكانت تستخلص من أنياب الوقت ساعات تذهب فيها إلى الجامعة لنيل درجة في التربية والتعليم، تؤهّلها لفتح دار حضانة، ونالتها بتفوّق. وروبير كان في الدوّامة نفسها، وكان مثل شقيقته في مسألة الدروس اللازمة للعمل والتقدّم، ومسؤولية تأمين المال اللازم لدفع الفواتير المستحقّة في نهاية كلّ شهر.

أمّا أنا فقد تحسّنت صحّتي نسبياً في تلك الفترة، وكان رتشرد ابن أختي يعرف من خلال تلازمنا في العمل، والجلسات الطويلة مع فنجان القهوة، كلّ ما يدور في خاطري، في الأدب والسياسة والاجتماع. وبعد أن برز اختلاف في وجهات النظر بيننا، في أمور السياسة، حيث لم يكن له اتّجاه واضح ومحدّد، سوى أنّه عربي وكفى، وبعد مناقشات طويلة معه، لعبت فيها مطالعاتي المستمرّة منذ معرفتي القراءة، دوراً في إيصال أفكاري إليه، توصّل إلى بعض القناعة في صحّة آرائي. وتولّدت عنده رغبة في أن أرافقه إلى الاحتفالات "العربية" الكثيرة، التي كانت ولم تزل منتشرة في

الولايات المتّحدة، والتي كان يشارك في معظمها، وكان يغمرني بسيل من المطبوعات والمنشورات باللغتين العربية والإنكليزية، مع كونه لا يتقن قراءة العربية.

وذات يوم رافقته إلى إدارة مجلّة "حلقة الأخبار"، التي تصدر باللغتين العربية والإنكليزية، وكان رتشرد يشارك في تصميم غلافها، وفي موضوعات من كتاب يصدر عن تلك الدار، وقدّمني إلى صديقه صاحب المجلّة يوسف رزق الحايك، وتبادلنا بعض الأحاديث القصيرة التي كانت كافية للفت انتباه يوسف، إذ صار يسأل رتشرد عنّي كلّما زاره. وكثرت زياراتنا إليه ممّا أتاح لي المشاركة في الحديث أكثر من مرّة، وكان قد أخبرني رتشرد عن التأزّم والفوضى التي تعاني منها المجلّة، ولمست ذلك بنفسي من خلال تصفّحي لها، فالتبويب والمواضيع التي تتناولها، توحي بعدم الترابط، وبعدم وجود هدف محدّد لها، فهي "من كلّ وادٍ عصاً"، تماماً مثل الاجتماعات التي كان رتشرد يصحبني إليها، والتي يحضرها بالطبع يوسف الحايك كونه صاحب مجلّة.

وفي إحدى المرّات كانت زيارتنا، رتشرد وأنا، ليوسف، تعقب اجتماعاً من تلك الاجتماعات المعهودة، ودار حديث بينهما حول ما جرى في الاجتماع، فأدليت بدلوي في الموضوع، معقّباً، وساد صمت قصير قطعه يوسف بقوله لي:

- "تعال واستلم القسم العربي عندي في المجلّة"
- "أنا!. لست صحفياً"
- "أنت بما تقوله، أكثر من صحافي" وكان جادّاً في كلامه، فقلت:
- "دعنا نجري تجربة في موضوع جانبي، تتعرّف فيها إلى أسلوبي، ونرى بعدها".

وكلّفني بتنقيح وإكمال رسالة، كان قد بدأ يكتب بعض أفكارها، ليوجّهها إلى الملك حسين، أخذت الورقة وانصرفنا، ورافقني رتشرد إلى البيت، ومع فنجان قهوة من تحضير أمّ كميل، تابعنا الحديث الذي ابتدأناه عند يوسف، وطالت الجلسة، ومثل كلّ مرّة نفترق على مضض، لانشغال رتشرد بأمور كثيرة.

تحمّست للفكرة، راغباً في الخروج ممّا أنا فيه من رتابة، فالاجتماعات الحزبية المتباعدة، فعلها ضئيل ضئيل، وكانت تلك فرصة للإسهام في نشر ما أؤمن به وأدعو إليه.

قمت بالعمل المطلوب وكتبت الرسالة وكأنّ الأمر يخصّني، ناسياً يوسف الحايك، وحملتها إلى مكتب المجلّة بمفردي هذه المرّة، وجزت الامتحان بتفوّق، فقد قرأها يوسف وأعجبته، وبعد أن شرح لي مستعيناً بعدد من المجلاّت والمنشورات، طريقة الكتابة المعدّة للطباعة، كلّفني بكتابة مقال للعدد القادم، الذي يتزامن مع الانتخابات الرئاسية في لبنان، والتي كان يجري التحضير لها، آنذاك، مشدّداً على أنّ الوقت يدهمنا، وكان قد عدل عن فكرة الرسالة إلى الملك حسين، وأراني بعض مقاطع ممّا يريد هو أن يكتبه، لكنّه طلب منّي ألاّ أتقيّد به، وأن أكتب ما أريد قائلاً:

- (معك كارت بلانش).

أخذت ما أعطانيه، وذهبت إلى البيت أحمله كالصحافيين، إنّما دون حقيبة، ولم أنجُ من تعليقات أمّ كميل الطريفة أثناء السهرة التي أمضيتها مكبّاً على المطالعة فيما أحضرته، ولم يكن هذا مألوفاً، إذ أنّ السهرة لاجتماع العائلة. وكان ما يشغلني لأكتب عنه، هو الوطن، والحالة المزرية التي وصل إليها، وبدأت وأنا في فراشي أرتّب في ذهني الموضوع بشكل مجدٍ، مع إدراكي الكامل أنّ مقالاً في مجلّة (ما راح يشيل الزير من البير)، إنّما عليّ أن أقول ما لديّ.

وكتبت في الموضوع لمدّة يومين أو ثلاثة، وبأسلوب ملتزم، غير متعنّت، وجدت على إثرها بين يدي ستّ صفحات بخطّ واضح، وحسب المواصفات التي طلبها يوسف الحايك. وضعتها في مظروف ملائم، وحملتها إلى مكاتب المجلّة، وكم كانت دهشتي، حين صدور العدد، إذ رأيت مقالتي تحتلّ كامل الصفحة الأولى، وتمتدّ إلى نصف الثانية، مصدّرةً باسمي: رشيد بركة. لم يخطر هذا الأمر يوماً ببالي، ولم أسعَ إليه. وبالتالي، لم أعلّق عليه آمالاً، إنّما كنت أدرك أنّ ما فعلته ليس إلاّ

مساهمة، كنقطة من بحر، فيما يجب أن يُفعل ويُقال ويستمر، وصولاً إلى غاية واحدة، هي أن يعي شعبنا حقيقته، عبر الحوار وتبادل الأفكار، ليصل إلى درجة معقولة من النضج الحضاري.

تابعت مع يوسف في مجلّته، ورافقنا أحداثاً ساخنة ممّا كان يحدث في لبنان والعالم، كفضيحة "الكونترا"، والسنة الانتخابية في أميركا، ومناظرات بوش ودوكاكيس، والحرب العراقية الإيرانية، وغيرها وغيرها. لكنّ كلّ هذه المسائل والقضايا مجتمعة، لم تكن لتثير من يوسف أيّ اهتمام، بينما يظهر الاهتمام الكبير وتفرد له الصفحات العديدة، عندما يكون هناك حفل أو عشاء لتفخيم أصحاب الكروش الكبيرة، وفي الصفحة التي تحتوي أخبار الأدباء والفنّانين، وجدت مرّة صورة وكلمة لجبران خليل جبران بحجم طابع البريد، وبقية الصفحة خصّصت لصورة وشرح طويل يتحدّث عن الراقصة المصرية "فلانة" ومشاريعها المستقبلية.

وذات يوم قدّمت للمجلّة مقالاً كتبته تعليقاً على ما ورد في رأي للدكتور محمّد مغربي، فرفض يوسف نشره، دون أن يقرأه، بحجّة أنّ مجلّته تعنى بشؤون الجالية، ولا يريد التورّط بغير مواضيع، وجرى بيننا حوار كان يجب أن يُفتح منذ بداية العمل الذي لا ينالني منه سوى التعب وبذل الجهد، وفي النهاية سألت يوسف:

- "يوسف، في كلّ ما تفعله وكلّ ما تسعى إليه، هل لديك هدف أو غاية تحيا، أو تموت، في سبيلها، على السواء؟"

- "أنا عربي"

- "وماذا يترتّب على قناعتك هذه؟"، فصمت ولم يجب، عندها أدركت أنّ عملي مع يوسف الحايك، يضرّني، ولا ينفع أحداً على الإطلاق، فتخلّيت عنه.

زارني رتشرد بعد هذه الواقعة، وفي جلسة طويلة ممتعة كالمعتاد، أخبرته ما جرى مع صاحب مجلّة حلقة الأخبار، وترجمت له مقال الدكتور المغربي، وردّي عليه، وكان كلّ حديث كهذا، يأخذنا في رحلة طويلة من الحوار تتناول شتّى

المواضيع، في الماضي والحاضر وتطلّعاً نحو المستقبل، ليس حبّاً بالكلام، بل لأنّ رتشرد منغمس عملياً في نشاطه الاجتماعي، ويبذل جهوداً وأموالاً، مع إحساس صادق بالحيف الذي يصيب قضايا بلادنا في السياسة العالمية، وأحسست أنّ من واجبي أن أطرح رأيي، وما أعتقد بصوابه، وكان رتشرد يستمرئ سماع المنطق الذي أنطلق منه، والمصادر التي أعود إليها، والتي يفتقر إلى الاطّلاع عليها وعلى أمثالها، بسبب انشغالاته وعلاقاته الكثيرة، وكنت مهتمّاً جدّاً بجدوى تلك الحوارات، لأنّ من أتعامل معه، يتعامل مع أعلى هيئة سياسية في أميركا، بل والعالم، أي مجلس الشيوخ. إذ كان لرتشرد مراسلات وأحاديث مع عدد من أعضاء المجلس، ممّن تجمعهم به صداقات ومصالح. ولم يكن هو يهمل أو يتوانى عن الكتابة في أيّ موضوع يستأهل التدخّل منه، حتّى قبل أن أذهب إلى أميركا، فهو قد تربّى في بيت يتبنّى الشعور والولاء الوطنيين، فعمّه الياس حبّوش ووالده نجيب حبّوش، أسّسا في الثلاثينات في مدينة "إنديانا" جمعية أسمياها "جمعية التآخي الأميركية اللبنانية"، واصلت خدماتها وأعمالها مدى حياة مؤسِّسَيها، ورتشرد، وحده من العائلة كلّها، نحى هذا المنحى، وقد لمست ذلك فيه منذ تعارفنا، وأكثر ما لفتني فيه أنّه كان يستمع، ويستوعب، ويسأل، حتّى يقتنع، ممّا شدّنا في تفاهم وصداقة لا تنفصم عراهما.

10. قربان.. بالواسطة

في تردّد رتشرد إلى بيتنا، عاش معي المعاناة التي كنت أعانيها مع ارتفاع وتيرة مرض أمّ كميل، وكان لا يتردّد في أيّة خدمة يمكن أن يجزيها لنا، رغم أشغاله الكثيرة. وانهمكنا في متابعة مواعيد المستشفيات، التي بدأت أمّ كميل تمضي فيها مدداً تتراوح بين شهر وأكثر.

وممّا كان يضاعف من ألمي، أو من فرحي لا أدري، هو وجود كميل الدائم معنا، وخصوصاً عند زيارة الرفقاء والمسؤولين لها في المستشفى، فتكون في أحسن

حالاتها، وتستوي في فراشها، وتردّ التحيّة، وتقبّل الزهور التي يأتون بها إليها، على أنّها هديّة لكميل، وهي مكلّفة بإيصالها إليه. وكلانا يعتقد، أمّ كميل وأنا، أنّ إصابتها القاتلة بالمرض، هي امتداد لرحيل كميل وتتمّة له؛ وكلّ ما أصابنا بعده، حلقات يشدّها إلى بعضها البعض الفعل وردّ الفعل.

في أوّل حزيران عام 1990، وقد مضت أربع سنوات منذ حزيران 1986 المشؤوم، وكنت أساعد أمّ كميل على النهوض من فراشها، وإذا بها تنهار بين يديّ، ولا تستطيع الوقوف لثانية واحدة، أرجعتها إلى السرير، وكان روبير ما زال في البيت، فاستدعينا الإسعاف ونقلناها إلى المستشفى، وعرفت في قرارة نفسي أنّ النهاية المحتومة أصبحت على قاب قوسين أو أدنى، وأنّ الأيّام المعدودة الباقية تمنحنا فرصة تدبير أمورنا.

المستشفى واحد من مجموعة مستشفيات تملكها وتديرها مؤسّسة راهبات "العناية"، وهناك كاهن في المستشفى للقيام بواجبات المرضى الدينية، وفي أوّل زيارة له إلى غرفتنا، كنت موجوداً، وسألني إن كنّا مسيحيين، فأجبت بالموافقة، ثمّ سألني إن كنّا من رعيّة سان فيمبار الآيرلندي، فأجبت بالنفي، وقلت له أنّنا من رعية كنيسة القدّيسة حنّة "سانت جانيت". فأخذ يستفسر، أين تقع هذه الكنيسة، ومن هو الراعي، وأيّ نوع من الكاثوليك نحن!!. فأخذت أشرح له ماضياً وحاضراً، وأنا لست مقصّراً في هذا الموضوع، وحين عرف (الخميرة والفطيرة) أفهمني بوضوح أنّه يخدم أبناء كنيسته فقط. و(ربّحني جميلة) لأنّه سيعطيها القربانة هذه المرّة، وعلينا في المرّات القادمة أن نستدعي راعي كنيستنا.

أمّا راعي كنيستنا وابن بلدتنا تشارلز عبّودي، وخلال أربع سنوات أمضيناها في أميركا، لم يزر أم كميل ولا مرّة في أثناء مرضها الطويل، وحين اشتدّ المرض عليها، تدخّل وسطاء من أقاربنا ورعيّته، وطلبوا منه أن يعطيها القربان، ففعل بعد مماطلة، ولم يخاطبها بكلمة واحدة، ولم تستغرق زيارته دقيقة واحدة، استدار بعدها وغادر دون

كلمة، لا (الله معكم) ولا (مع السلامة).

لكنّه حين وصول أمّ كميل إلى هذه الحالة، وقد بدأ شبح الموت يلوح في الأفق، ونحن لسنا على دراية بكيفية التصرّف في حال الوفاة، أعطانا بطاقة ورقم هاتف شخص مصري، يتعامل مع شركة كبيرة، أحد فروعها قريب لمدينة "بيربانك". فقلت لروبير:

– "المسألة تتطلّب قوّة، وقرارات سريعة الاتّخاذ والتنفيذ"، وذهبنا إلى مكتب الرجل الكائن في إدارة المؤسّسة، حيث الكنيسة والمدافن بحجم مدينة صغيرة، وهي التي تتعامل معها كنيسة القدّيسة حنّة للروم الملكيين، واتّفقنا مع الرجل واسمه "ريمون كوسى"، على شراء قطعة أرض كمدفن للعائلة، وعلى كيفية الدفع، ونقدناه الدفعة الأولى، واستلمنا صك التمليك.

وعاد شغلي اليومي الذهاب إلى المستشفى، والبقاء مع أمّ كميل طوال الوقت المسموح به، وصرت كأنّي واحد من الممرّضين، والكلّ يعرفني، ممّا ساعدني على التحرّك بحرّية بعض الشيء، وتأمين العديد من الطلبات، ما عدا الأدوية، بنفسي.

11. بين القبر والسماء

مضى على وجود أمّ كميل تسعة وعشرون يوماً في المستشفى، قاست خلالها الأمرّين، وما كنت أشاهده في النهار فقط، يدمي القلب، فأحاول بكلّ إمكاناتي التخفيف عنها بتلبية كلّ ما تطلب بأقصى سرعة، وما أعجز عنه أذهب إلى الممرّضة المسؤولة أسألها المساعدة فيه.

وفي اليوم التاسع والعشرين أفقت باكراً، وذهبت إلى بيت إيلين وراي لأتمّ عملاً ريثما حان وقت الزيارات في المستشفى، وكانت إيلين قد بقيت مع أمّها لساعة متأخّرة في الليل الفائت. وفيما عدت إلى البيت لأغيّر ثيابي، إذا بإيلين تتّصل بي لتخبرني أنّ إدارة المستشفى طلبت حضورنا، وللحال أعلمت روبير وأسرعنا نحن الثلاثة،

ولكنّنا.. لم نجد أمّ كميل. فقد رحلت قبل وصولنا.

الممرّضات، تركتنا لوحدنا فترة كافية لنطلق لعواطفنا العنان، ونجفّف دموعنا إن استطعنا، ثمّ حضرت المسؤولة وأعطتنا التعليمات حول إجراءات المستشفى، وأرشدتنا إلى مساعدة اجتماعية في الطابق نفسه، وأفادتنا الأخيرة في مواضيع كثيرة كنت أجهلها، وقد وجدنا بالفعل تعزية مبدأية في أن يقوم المستشفى بكلّ هذه الخدمات، ولم يطلب منّا غير الثياب التي سيُلبسونها إياها.

أبلغنا الرفقاء والأصدقاء، فهبّوا لمساعدتنا بكلّ حماس، والكلّ تعاطف معنا بلا حدود، نظراً للمكانة التي احتلّتها أمّ كميل في قلوب هؤلاء الرفقاء والأصدقاء، بلطفها ودماثة أخلاقها وكرمها. أمّ كميل التي كانت في أقسى أيّام مرضها تحاول أن تجعل المسألة بسيطة، حتّى في المستشفى، كانت تشفق على الممرّضات، فلا تطلب منهنّ شيئاً إلاّ للضرورة القصوى، ممّا جعلهنّ يحببنها ويتعلّقن بها، حتّى الطبيب الذي كان يعالجها "الدكتور منى"، فقد تعلّق بها جدّاً وأحبّها، لدرجة أنّه بكى فوق رأسها، هل سمعتم قبلاً عن طبيب بكى مريضه؟.

بفضل التعاون والمحبّة التي أبداهما كلّ من تجمّع معنا، أصبح كلّ شيء في البيت من ترتيبات، على ما يرام. وكان علينا إعلام الكاهن كي نتمكّن من إعلان موعد المأتم والدفن، وكتبنا دعوة حملها أحد الرفقاء الخبيرين بمعاملة الكهنة إلى الأب عبّودي، فكان ردّه جافّاً، مفاده أنّه لا يستطيع الحضور لانشغاله بمؤتمر خارج الولاية، وفقط.

وفي الأنطش، أحالونا إلى كاهن مساعد "قبطي كاثوليكي"، تولّت الحوار معه ابنتنا إيلين، وبعد أسئلة تبيّن أنّه، لكثرة انشغالاته، لا يستطيع أن يعطينا من وقته إلاّ موعداً واحداً محدّداً، لا يوافقنا مطلقاً. ولا وجود لديه لخيارات أخرى، فشكرناه واستغنينا عن تلك الكنيسة كلّها، وقلت لهم في نفسي:

- (إنتو عالقبر ما فيكن توصّلونا، بدكن توصّلونا ع السما؟).

12. الشهيدة، أمّ الشهيد

من حظّنا أن وجدنا كاهناً رفيقاً لنا، ويحمل 4 دكتوراه علمية، قليل الكلام خفيف الظلّ، ويتحدّث بما يليق بمركزه العلمي. وحدّد موعد الدفن بعد خمسة أيّام من الوفاة، في 5 تمّوز 1990، وبعفوية الإيمان، امتلأ المكان بأجمل باقات الورد، تتصدّرها الزوبعة البديعة الصنع، يحملها الرفقاء في تنظيم دقيق، ترافقهم عائلاتهم، وكأنّ الجميع أسرة واحدة، حتّى أنّ الأميركان استغربوا ذلك الهدوء والنظام، والتصرّف الراقي من الكاهن وممّن ألقوا كلمات الرثاء، ونقلت أمّ كميل من الكنيسة إلى المدفن محمولة على أكفّ الرفقاء، شهيدة، من أمّهات الشهداء.

ولا أستغرب من المدير وأعضاء المديرية في الحزب، تصرّفهم المتكامل في هكذا حالة، فقد وجدنا فيهم أصدقاء محبّين، هم وجميع من شاركنا، أحاطونا وحوّلوا حالة الغربة الصعبة إلى وطن بكلّ معنى الكلمة.

وغابت تلك الطاهرة تحت الثرى، لأحمل ذكراها في قلبي، دون أن أنسى أنّ سبب موتها، قلب ترمّد واحترق، منذ استشهاد كميل. وكم كانت العودة إلى البيت صعبة بدونها، فكنت حريصاً على عدم تغيير أيّ معْلَم ممّا وضعته يداها، إلاّ بعد حين، والذي لا يستوجب تغييره، بقي كما هو. وكنّا، إيلين وروبير وأنا، لا نكترث للأسبوع، والأربعين، كمواعيد للزيارات، ونعتبر من يزورنا في البيت، ذا فضل عظيم علينا، وزياراتنا إلى حيث ترقد أمّ كميل كانت تأخذ طابع الحرّية وحيث تسنح الفرص، فالزهور متواجدة على مدار السنة، والمكان غير بعيد عن البيت، وفي بعض الزيارات كنت أحمل قصيدة أو بضعة أبيات مع باقة الزهر، يرافقني كميل، وتشدّ من أزري إيلين وروبير، فتجتمع العائلة كلّها إلى جانب ثراها الطاهر.

وتتوارد إلينا رسائل التعزية ممّا يربو على المئة صديق، وتتفرد رسالة إميل رفّول في أسلوبها الرائع، وإحساس صاحبها العميق معنا، فقد اكتوى باللوعة نفسها قبل عشرين عاماً، حين توفّيت زوجته الأولى، وبالمرض نفسه. وكلانا يعرف ويدرك أنّ

الهموم والأحزان تعني أصحابها في الدرجة الأولى، ومشاركة الغير تخفّف من وطأتها وثقلها، وبقدر ما تكون المشاركة صادقة، يكون فعلها في النفس كبير.

13. عقول الناس أجناس

لكلّ يوم همومه التي تأتي معه، ممّا يقتضي المتابعة السريعة لتفاصيل الضرورات الحياتية، والعمل اليومي المتواصل. والنظام أو طريقة الحياة في أميركا، تلبّي كلّ احتياجات الإنسان في أدقّ تفاصيلها، فكلّ شيء موجود، وبما يتلائم مع ذوق الشاري، وقدرته المالية، وهذ ما يسهّل الأمور لمن هم في مثل وضعي، وما أكثرهم. وقد كان وجود إيلين وبيتها القريب، إضافة إلى تعاونها الوثيق، وأيضاً مكان عمل روبير القريب، في دائرة لا تحتاج لاجتيازها إلى أكثر من خمس دقائق سيراً على الأقدام، نعمة لا أنكرها.

كان لبيتنا حصّة من "الكاراج" الواسع العائد للمجموعة السكنية، وقد ابتدأ يتجمّع عندي قطع من عدّة النجارة بحكم الحاجة، فصنعت صندوقاً كبيراً للعدّة يمكن استخدامه كـ (بنك) للشغل في الوقت نفسه، وصار عندي استعداد للعمل، فابتدأت أوّلاً في احتياجات البيت، حتّى لم أدع مكاناً يمكن أن يتّسع لأيّ غرض إلاّ واستفدت منه، وصرت أقسّم أوقاتي على مدار اليوم، ولا أترك مجالاً لما يعتمل في قلبي وعاطفتي أن يدمّر حياتي. وأعلنتها حرباً على الفراغ القاتل، بالمطالعة في أثمن الكتب، والمتواجدة بكثرة، وبالعمل، حيث أكون في أحسن حالاتي عندما أكون مع رفاق يدي، عدّة النجارة، ومع رائحة الخشب. أمّا ما أفعله رغماً عنّي فهو إعداد الطعام، الذي لا مناص منه، لأنّي لم أستطع الانسجام مع المأكولات الجاهزة، وروبير كذلك، فتعوّدنا على ما أصنعه أنا، يساعدني في ذلك تزايد المحلاّت التي تبيع مواد الأكل اللبناني، والتي برع في تجارتها الأرمن من إيران ولبنان، وتمضي الأيّام سريعاً عندما تكون الحال هكذا، (ما حدا فاضي يحك راسه)، شأننا شأن الكثير غيرنا من المغتربين.

ومع الوقت تبيّن لي عدم القدرة على الاستمرار في هواية المراسلة كالسابق، فضيق الوقت يدعو إلى التخفيف منها لأنّ (ما حدا فاضي، ولا حدا بيحب يكتب)، واقتصرت رسائلي على الجوابية منها لمن يكتب لي، مع الحرص على ألاّ يكون فيها أسئلة تستوجب الردّ، إلاّ أنّ رسائلنا، إميل رفّول وأنا، فقد بقيت مستمرّة، ممّا جعلنا نتعايش في أدقّ التفاصيل.

كان البناء – الذي نشغل فيه شقّة تضمّ غرفتين للمنامة ومنافعها، وحصّة في الكاراج – مؤلّف كلّه من ثلاث شقق مماثلة، بالإضافة إلى شقّة صغيرة تحتوي غرفة نوم واحدة ومطبخ صغير وحمّام. تجاورنا فيه ولمدّة أربع سنوات مع سيّدة مسنّة تقطن إحدى الشقق، وفي الشقّة الصغيرة يسكن رجل في مثل سنّي، في السبعينات من عمره، يشكو من (الأزما) التحسّس، وهناك جار ثالث يسكن المبنى المقابل ويملكه. كنت مع هؤلاء الجيران، وكأنّنا في بيت واحد، حياتنا متشابهة في الظاهر، ولكنّ الفرق في الواقع كبير، وكأنّ كلّ إنسان يعيش في كوكب، فالسيّدة تسعينية، ولكنّها بحالة صحّية طبيعية، وتقوم بخدمة نفسها في شقّتها الأنيقة، وتعتمد على سيّدة من أقاربها تزورها كلّ يوم تقريباً، وتعاونها عند الحاجة في شراء ما تحتاجه من السوق، وذات مرّة منذ ثلاث سنوات وفي مناسبة عيد الميلاد قرعت بابنا وفي يدها صحن فيه حلويّات الميلاد، وقالت:

– "هذا آخر عيد ميلاد لي، صار عمري 89 سنة"

– "وهل تعرفين كم ستعيشين؟" وضحكنا، ولم تزل كما كانت، من النادر أن أراها دون كتاب في يدها، تقرأ وتستوعب، وفي كامل قواها العقلية، تتنقّل بين عدّة مقاعد وثيرة في بيت نظيف تتعهّده شركة تنظيفات مرّتين في الشهر لقاء مائة دولار، ويبدو أنّها تعيش في رخاء مادّي. أمّا الرجل السبعيني، فيعيش هو الآخر بمفرده، يتدبّر أموره بنفسه، فيخرج كلّ يوم من أيّام الصحو، بثياب نظيفة وأنيقة، ليشتري الجريدة ويعود، حاولت مرّة دعوته إلى فنجان قهوة، فاعتذر بحجّة أنّه مريض، ولا يريد

أن يزعج أحداً، وسألته إن كان لديه أولاد أو أقارب، ولماذا يعيش وحده، فأجاب أنّه رأى وبالتجربة، أنّ هكذا أفضل، لا أحد يزعجه، ولا يزعج أحداً، وهو بالفعل خفيف الظلّ ولطيف، أمّا محتويات غرفته فهي سرير، ومقعد صغير بجانبه، وطاولة صغيرة لورق اللعب، وتلفزيون. والقناعة كنز لا يفنى.

أمّا الجار الثالث الذي يسكن المبنى المقابل فيبدو وكأنّه شيخ كبير، فهو يربط شعره الأبيض الطويل في مؤخّرة رأسه، ولحيته بيضاء كذلك، وعند تعارفنا أخبرني أنّ عمره اثنتان وستّين سنة، وأنّه من الذين خاضوا الحرب في فيتنام، وهو يشغل الغرفة الصغيرة في آخر المبنى الذي يملكه، ويستعمل الكاراج وحده، يلبس قميصاً وبنطلون (جينز)، ونصف أليته مكشوف بصورة مستديمة، ولم أكلّمه مرّة إلاّ من خارج الغرفة، لأن رائحة الدخّان والأقذار تفوح إلى الخارج، وهو يلوك الدخّان من علب خاصّة، ويوفّر (الولعة)، أمّا الكاراج فلا مندوحة لي من رؤية ما فيه لأنّه يقع مقابل الكاراج الذي أشغله، وهو يحتوي عدّة ميكانيك كاملة، لا يمسّها أحد سواه، ومكتبة حافلة بالكتب الثمينة عن مختلف أنواع السيّارات، فهو حريص على اقتناء كلّ جديد في هذا الخصوص، علماً أنّه لا يحترف الميكانيك، إنّما هواية فقط، ويقتني أيضاً سيّارة شيفروليه (موديل الـ 46) اشتغل فيها ما يقرب السنتين على حدّ قوله، وأدخل إليها قطعاً جديدة من تصميمه وتصنيعه هو، واجتهد في تزيينها من الخارج، إذ أبرز القطع الجديدة، وطلاها بالـ (نيكل)، وتأخذ هذه السيّارة من وقت الرجل معدّل ساعتين إلى ثلاث ساعات يومياً، كي يبقيها لامعة ويحافظ على محرّكها في أحسن حالاته، وسألته ذات مرّة:

- "كم تتوقّع ثمناً لهذه السيّارة؟" فأجاب:
- "أريد ثمنها خمسين ألف دولار"، واستدار إلى عمله، وقلت في نفسي:
- "عقول الناس أجناس".

14. ترتيبات، بالمراسلة

أخبرني إميل في إحدى رسائله، وكان قد صار مقيماً في فرنسا عند ابنه الدكتور حنّا، أنّ ابنه الدكتور وسام المقيم في الخليج، أقدم على طلب عمل وإقامة في أوستراليا، وتلقّى إشارة بالقبول، وهو في انتظار انتهاء الإجراءات القانونية، لتصفية أعماله والانتقال إلى سيدني. وذكرت له في رسالتي الجوابية أنّ عطيّة الحاج، ابن أختي، والمقيم في "سيدني" منذ أواخر السبعينات بشكل شبه دائم، قد وجّه لي دعوة لزيارته، وأنّنا نعمل على تحقيقها، وقلت له:

– "من يدري، لعلّنا نلتقي هناك"، الأمر الذي لم يخطر في بالنا على الإطلاق. وبدأت مداميك تلك الفكرة تعلو دون أن يكون لنا يدٌ فيها، فالدكتور وسام أصبح في أوستراليا مع عائلته، وفي رسالة من إميل أخبرني أنّ ابنه حنّا مزمع على زيارة أخيه وسام في إجازته السنوية، ولمدّة شهر، وسيغادر فرنسا قريباً لهذا الغرض، وكنّا في أوائل خريف عام 1990. أمّا عن زيارتي أنا إلى أوستراليا، فقد أرادها عطيّة أن تكون في فترة أعياد الميلاد ورأس السنة، ولكنّي كنت ملتزماً بمواعيد مع الأطبّاء، فأُجّل موعد الزيارة، وأخذت موعداً في الثامن عشر من كانون الثاني 1991 لإجراء جراحة البروستات، على أن أمكث في المستشفى لمدّة ثلاثة أيّام، أعود بعدها إلى البيت، وقدّرت أنّ تستمر فترة النقاهة حتّى نهاية شباط، وعليه تمّ الاتّفاق مع عطيّة على أنّ يكون موعد وصولي إلى سيدني في أوّل آذار، بعد أن كنت قد حصلت في 20 كانون الأوّل، على تأشيرة دخول سياحية إلى أوستراليا.

هذه الفترة كانت كافية لتصلني رسالة من إميل، تحمل أخباراً مفرحة بعودة الدكتور حنّا من أوستراليا، وقد تمّت خطوبته هناك على الآنسة جوليانا أبو عرّاج، وحدّد موعد الإكليل في 14 نيسان 1991، وما لبثت أن تلقّيت بطاقة دعوة لحضور العرس هناك، قبل مغادرتي إلى أوستراليا بوقت قصير.

15. وصفّق الركّاب أخيراً

كما يقال، كلّ آتٍ قريب، وبعد إجراء الجراحة، وكانت الصعوبة في ما يليها، تابعت في مراجعات دورية، كلّ أسبوع، للطبيب، إلى أن تماثلت للشفاء، بسرعة عجيبة حسب قوله. وبدأت الاستعدادات للسفر مع نهاية شباط، الذي لا يختلف في "بيربانك" عن أشهر الصيف في لبنان، غير أنّ ليلة السفر، كانت غزيرة المطر، دون عواصف، وأوصلني روبير والصديق فؤاد تكلة إلى المطار، وأنا أسبح في أفكاري، وأسبق الزمن إلى أوستراليا. وبعد إنهاء الإجراءات ودنوّ موعد الدخول إلى الطائرة ودّعني روبير، وتابعت وحدي باتّجاه الطائرة الجاثمة أمامنا كالجبل، وكنت أوّل الواصلين، ممّا سمح لي بتفحّص الركّاب الداخلين إلى الطائرة التي تشبه شارعاً طويلاً يعج بالمنشغلين بترتيب حوائجهم، وليس بينهم من يتكلّم العربية، واستغرق تدفّق الركّاب إلى الطائرة ساعة ونصف، حتّى اكتمل العدد، وتحرّكت الطائرة ببطء في ممرّات المطار الكبير، إلى أن وصلت إلى الممرّ الطويل لتنتظر دورها للإقلاع، الذي بدأ بعد خمس وأربعين دقيقة.

كان أمامنا أربع عشرة ساعة طيران دون توقّف للوصول إلى سيدني، وانطلقنا من مطار لوس آنجلوس في الساعة الحادية عشر وخمس وخمسين دقيقة ليلاً، باتجاه الجنوب الغربي. الساعات الأولى من الرحلة كانت معقولة، من حيث التسلية ومشاهدة موقع الطائرة على الشاشة في مراحل سيرها، ومرّ الوقت بين القراءة والنوم. وفي السادسة صباحاً بتوقيت لوس آنجلوس، لم نرَ الصباح، بل كان موعد الوجبة الأولى، وقد تبقّى من زمن الرحلة ثمانِ ساعات، وأطفئت الأنوار ثانية، واستعدّ البعض للنوم، أمّا أنا فكان يشغلني طلوع الفجر، وهذا الخطّ الفاصل الذي رافقناه ساعات، إذ كنت أنظر عن يميني لأرى النهار، بينما عن يسار الطائرة ليل مظلم، وأرى على صفحة المحيط "الهادي" ألواناً جميلة على امتداد لا حدود له، وشغلت بهذه المناظر الخلاّبة عدّة ساعات. ومع أنّي أعرف ساعة الوصول، كنت أتطلّع في ساعتي كلّ خمس

دقائق، وأنظر في البعيد البعيد علّني أشاهد اليابسة الأسترالية من هذا العلوّ الشاهق، وكنت كمن يرى السراب في الصحاري الشاسعة، من تداخل ألوان المحيط مع الأفق، وقد علق في ذهني ما سمعته من الأب سليم غزال إنّ منظر سيدني من الطائرة رائع جدّاً، فصرت حريصاً على ألاّ أغفو، كي لا يفوتني هذا المشهد، وبقيت مصرّاً على مشاهدة الأرض أوّلاً.

أخيراً تنفّست الصعداء، إذ استطعت أن أرى بين الألوان خطّاً مختلفاً أخضر اللون، بدأ يتجلّى، وتكبر مساحته في العمق شيئاً فشيئاً، وصرت ألمح التماعات الشمس على ما يعكس نورها. وبعد نصف ساعة تقريباً، أذاع كابتن الطائرة نبأ الوصول، وبدأت المناورة للهبوط السليم على أرض المطار، ونظر الركّاب مشدود إلى المشاهد البديعة التي بدأنا نراها بوضوح من العلوّ المنخفض، وأجمل مافيها الأنهر التي تنساب كالحيّات في الأودية الخضراء، لتختلط مياهها بمياه المحيط، مشكّلة تموّجات بألوانه، وسطوح القرميد الأحمر تلوّن التلال في تلك اللوحة الخلاّبة، وما أن لامست الطائرة أرض المطار، حتّى صفّق الركّاب لانتهاء ذلك الإرهاق الطويل.

حتّى وصلنا إلى مباني المطار، كانت رحلة بحدّ ذاتها، وفتح الباب إلى النفق المؤدّي إلى المبنى، وتدفّق سيل الناس، كلّ بحسب قوّة عضلاته، ووصلت إلى حيث نترك المبنى، وإذا بموظّف يشير لي إلى جهة اليسار، فيما أحد الركّاب انتهى لتوّه من التفتيش أمامي، وفتح المسؤول حقيبتي الكبيرة نسبياً، وأخذ الآخر جواز السفر اللبناني وتفحّصه جيّداً، وسألني الأوّل ماذا في الحقيبة فقلت له:

– "ها هي بين يديك" وبدأ التفتيش الدقيق والأسئلة الكثيرة التي لم يسبق، في أسفاري السابقة، أن تعرّضت لها، حتّى زجاجات العطر وحبوب الدواء والفيتامين، تمّ فحصها والسؤال عنها، دون أن أُبدي أيّ تذمّر أو احتجاج وأخيراً انتهينا، فقلت له بالعربية وقد حدست أنّه لبناني عتيق:

– (ما كانش أهون بلا هالتعب؟)، فالتفت إلي وضحك.

16. في أستراليا

حلاوة اللقاء تكمن في هذه اللهفة التي تراها من كلا الجانبين، خصوصاً بعد طول انقطاع، هذا ما جرى في المطار حين رأيت عطيّة وزوجته ماري في سيّارتهما أمام الباب. وبيتهما على رحبه، ليس أرحب من قلبيهما المحبّين. حتّى أولادهما، من رائد البكر، إلى جاد الرضيع، وقد انتقلت إليهم عدوى اللهفة من الأهل، أشعروني كلّهم، أنّ وجودي معهم سبق ذلك اليوم بسنين عديدة. ويقع بيت عطيّة على مرتفع عند ملتقى شارعين، من شرفته الكبيرة تستطيع أن ترى أبعاداً شاسعة، وكأنّك تقف على جناح طائرة تكشف منها الجهات الأربع. لم أشعر بالتعب ولا بالحاجة إلى النوم، مع أنّي أمضيت ثلاثة أيّام اختلطت فيها نهاراتها بلياليها، من اختلاف التوقيت، لم أذق فيها طعم النوم بالمعنى الصحيح، إنّما فرحة اللقاء مسحت كلّ هذه المتاعب.

أوّل السهرة أطلّ علينا أصدقاء من مشغرة، موريس الغزال برفقة زوجته ليلي أبو عرّاج، وشقيقته فيوليت، ورينيه أرملة ريمون الغزال، وتخلّل اللقاء في بدايته دموع غزيرة، من ذكريات مرّة، ثمّ مرّت ساعات السهرة مثل لمح البصر، دون أن نشعر بها، أو نتمنّى انتهاءها. ومع الصباح أويت إلى الفراش لأستعيد في خاطري سنين وأوقاتاً حلوة أمضيناها معاً.

استيقظت متأخّراً، وبعد الاستحمام، ومع فنجان القهوة، أخبرتني ماري أن عطيّة لن يتأخّر في عمله، من أجل احتفال الأوّل من آذار، وعاد الأولاد من مدارسهم، لارا وسامر وشادي، أمّا رائد، البكر، فكان يمضي معظم أوقاته خارج البيت، بينما جاد، وعمره 11 شهراً، فكان يدور البيت على الكرسي الدرّاج، يخرّب ما تطاله يده.

في المساء، توجّهنا إلى القاعة التي سيتمّ فيها الاحتفال، وكنت قد كتبت في "بيربانك" بضعة أبيات للمناسبة، أخذتها معي، وتحلّقنا حول مائدة عطيّة الذي يشغل مسؤولية المنفّذ العام لمنفذية سيدني في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وهناك قابلت شقيقه جريس، وتعانقنا، ليعود إلى انهماكه في الاستقبال والترتيب.

ازدحمت القاعة بالقوميين والأصدقاء، وأعلن المذيع عن قرب افتتاح الاحتفال، فهدأت الأصوات وبدأت بالتلاشي، وأصبح الجميع في انتظار الإيعاز، وما هي إلاّ لحظات حتّى هبّ الحضور في وقفة واحدة وبقامات منتصبة، وأُخذت التحيّة مع انطلاق النشيد الرسمي "سورية لك السلام". وبعد الجلوس ثانية، بدأ المذيع جيمس حرب، الذي تعرّفت إليه قبل البدء بالاحتفال، بتقديم الرفيق فؤاد شريدي، ناظر إذاعة المنفّذية، الذي قام بقامته المديدة وشعره الأجعد وحاجبيه الكثيفين، إلى المنبر وألقى قصيدة بالعربية الفصحى، تمتلئ حماساً من بدايتها إلى نهايتها، وفوجئت إذ لم ألمس من الجمهور تجاوباً مع هذا الحماس. وعاد المذيع ليقف أمام "الميكروفون" قائلاً:

– "الرفيق رشيد بركة، الذي حضر خصّيصاً للمشاركة في هذه المناسبة، من الولايات المتّحدة، فليتفضّل"، وصعدت إلى المنبر، وبعد تعديل ارتفاع "الميكروفون" للفارق الكبير بيني وبين الرفيق شريدي، بدأت قصيدتي قائلاً:

من مطلع التاريخ، كان، وهيك صار

من صميم الليل بيطلّ النهار

ياشهر آذار بعد العاصفة

طلّوا الزهور وفتّحوا كلّ الزرار

منتطرّقاً إلى واقع الحال في ذلك الوقت، وحرب الخليج في ذروتها، إلى أن أنهيت القصيدة قائلاً:

ان كانت الأيام حلوة، أو سواد

الكون متحرّك وما بيعرف جماد

طير الفينيق بيقوم من تحت الرماد

بتتغيّر الدنيا وبيموت المستحيل

والحياه بتفيق بـِ أوّل آدار

ودوّت القاعة بتصفيق حادّ لم أتوقّعه، أمّا جيراني على الطاولة، فقد وقفوا

لاستقبالي، والكلمة التي أثلجت صدري، كانت من الدكتور الياس موسى، من صغبين، إذ شدّ على يدي وهو يقول:

- (من صميم الحياة، خلّيتنا نفهم شو عم تقول)، وشعرت بفرح حقيقي وزاد اقتناعي بأنّ الكلمة الحلوة الصادقة والعفوية، تفعل في النفوس العطشى، ما تفعله المياه الباردة لظامئ في صحراء.

*

الجدير ذكره أنّ جوّ سيدني يختلف عن جوّ لوس آنجلوس، إذ تكثر في محيطها الأشجار والغابات الكثيفة ممّا يساهم في تنقية الهواء، ويجعل الإنسان أكثر نشاطاً. فنوم ساعات قليلة، كان كافياً بعد تلك السهرة العامرة. وبيت عطيّة ككلّ بيت كبير يحتاج إلى العديد من الإصلاحات والتعديلات والإضافات، وبشكل مستمرّ، وكان يسعدني هذا، إذ أجد فيه ما أشغل به وقتي. فبدأت منذ الصباح بوضع مخطّط للعمل حسب الأولويات، بالرغم من احتجاج عطيّة ومحاولته لتأجيل هذا الأمر، على أساس (شو صاير، منعملهم بعدين).

بعد مضيّ أسبوع شغلت فيه وقتي، كان عليّ الذهاب إلى بيت جريس ابن أختي للقاء أسرته، حسب الموعد المتّفق عليه، وحضر جريس مع زوجته سامية وأولادهما شيرين وزياد، والصغيرة كريستل، وعمرها سنتان، والتي تسمّيها أمّها "أمّ عطيّة"، للتشابه الكبير في الشكل والحركات مع أختي أنيسة، خصوصاً عندما تضع يديها في وسطها لتصبح على شكل علامة استفهام، دون أن تسأل شيئاً. وبعد سهرة جميلة عند عطيّة، حملتنا سيّارة جريس مسافة طويلة إلى بيته، حيث وصلنا في وقت متأخّر، فلم يبقَ لدينا سوى النوم، من شدّة التعب.

في الصباح خرجت إلى الشرفة لأجد بيت جريس أيضاً يقع على تلّة مشرفة على وادٍ أخضر، ويطلّ على مساحات من مدينة سيدني، وبعد استيقاظ الجميع، وكان يومها يوم أحد وجريس ليس لديه عمل، أمضينا نهاراً طويلاً في الأحاديث ذات

الشؤون والشجون التي طال شوقنا إليها. وكانت فرحتي كبيرة بما أنجزه كلٌّ من عطية وجريس، وهما اللذان يملكان ميزة التفوّق والجدّية في إنجاز أعمالهما، فضلاً عن السمعة الطيّبة في أوساط الجالية وأصحاب الأعمال.

أمضيت أسبوعاً عند جريس، واستأذنته في العودة إلى بيت عطيّة، فوافق، على أن أعيد الكرّة لاحقاً، وأمضيت نهاية الأسبوع عند الصديق موريس الغزال في "وندسور"، الذي تربطني فيه صداقة متينة وقديمة منذ الطفولة إذ رافقته وإخوته، وخبرته، وعرفت أهله الطيّبين، الذين لا يقيمون وزناً إلاّ للكرامة واللطف والمحبّة. وقد صحبني خلال تلك الزيارة إلى معمل الخياطة خاصّته، وكان يمرّ بضائقة نتيجة الركود الاقتصادي العام، كما زرنا بيت جورج أبو عرّاج هناك، وحين أوصلني موريس إلى بيت عطيّة، بدأ يُنزل من صندوق سيّارته طروداً من الملابس كان قد حمّلها من معمله، وقال إنّها لأولاد إيلين، واعترضت خوفاً من أن يظنّها الجمارك للتجارة، لكثرتها، لكنّه رفض اعتراضي.

17. لقاء بعد مراسلات

مرّت الأيّام، وحان موعد وصول الصديق إميل رفّول إلى سيدني، وفي الموعد المحدّد تجمهرنا حشد من أهالي مشغرة، من أقاربه وأصدقاءه أمام باب الخروج في المطار، وما أن أطلّ حتّى تكوّمنا حوله وحول ابنه حنّا وزوجته أمال، مرحّبين ومهنّئين بالسلامة، وعاد رتل السيّارات إلى المدينة، إلى بيت ابنه وسام.

أمضيت مع إميل فترات جميلة وفي لقاءات متكرّرة، بين سهرة في بيت ابنه، وأخرى عند جريس، أو مشوار سيراً على الأقدام في الشمس والبرودة المنعشة، أعدنا فيها تواصل ما انقطع من أحاديث وبثّ شجون وحوارات تحكمها الألفة القديمة، وبدون تكليف، فلا نشبع من الكلام ولا نكتفي من الرفقة.

وحان موعد إكليل الدكتور حنّا رفّول على جوليانا أبو عرّاج، وكان في 14

نيسان يوم الأحد "الجديد"، كما يسمّى الأحد الذي يلي عيد الفصح، حيث ترأّس الأب سليم الغزال خدمة الإكليل، وبعد العرس أقيم حفل "كوكتيل" في قاعة فسيحة احتشدت بأهالي مشغرة حتّى كاد الأمر يختلط علي، هل أنا في سيدني في أستراليا، أم في مشغرة. وكانت فرصة لقاء للذين لم يجتمعوا من أعوام. وتنوّع الحفل بين الزجل والشعر، شاركت فيها بأبيات تهنئة للعروسين، أثنى عليها إميل قائلاً: "أبدعت وأحسنت"، وألقى هو كلمة شكر فيها الحضور، الذين انخرطوا بعدها في حلقات الدبكة، التعبير الوحيد عن قوّة الفرح الراقي وذروته.

وكانت فرصة لي للتعرّف على العديد من أهالي مشغرة المغتربين هناك، والذين دعوني إلى بيوتهم فيما بعد، بكرم ولطف أصيلين.

في أوئل أيّار، قرّرت العودة إلى بيتي، وأقنعت عطيّة أن يحجز لي للعودة رغم اعتراضه، ومحاولته، هو وجريس، إقناعي بالبقاء لمدّة أطول. أمّا الصديق إميل رفّول فقد اعتبر قراري بالمغادرة، أجحاف بحقّه، وكان يرغب ببقائي معه لفترة إضافية، ولكنّي أقنعته بضرورة العودة، إذ من الأفضل، في أيّ موضوع أو نشاط تقوم به، أن تنهيه عند ذروته، فتبقى منه الذكرى الأجمل والأبهى.

وتمّ الحجز في 21 أيّار، وكان يوماً ماطراً وبارداً نسبياً، إذ كنّا في بداية الشتاء في سيدني، بينما كاليفورنيا على أبواب الصيف. رافقني إلى المطار عطيّة وماري وجريس وساميا، ولا أدري لماذا شعرت حين وداعهم أنّها قد تكون المرّة الأخيرة التي أراهم فيها، وسرت وحدي في الممرّات إلى الصالون الفسيح، حيث ينتظر الركّاب صعود الطائرة الضخمة التي ستطير بنا أربع عشرة ساعة متواصلة.

18. إبنة، في الطريق

كأنّني في الطائرة نفسها، التي أتيت بها، وفي المقعد نفسه، أعود إلى لوس آنجلوس بعد 72 يوماً في أستراليا، من أحلى أيّام العمر، أجلس قرب النافذة، وإلى

جانبي مقعدان خاليان، أستعرض الأيّام واحداً واحداً، وكأنّها تأبى أن تتسلخ عنّي، أو أنسلخ عنها، وابتعدنا عن الأرض فوق الغيوم، ورأسي ملتصق بزجاج النافذة، عيناي تنظران إلى البعيد البعيد، بينما عقلي مشغول بألف سؤال وفكرة. وانتبهت فجأة أنّ هناك سيّدة أو آنسة ذات ملامح محبّبة، قد شغلت المقعد الذي بقربي، يفصلني عنها مقعد شاغر، كانت شاخصة بنظرها إلى الأمام، حين تحرّكت في مقعدي معدّلاً جلستي، فالتفتت صوبي، وسألتها:

- "منذ متى أنت جالسة هنا؟"

- "منذ نصف ساعة"، ولمحت في عينيها استدراجاً للمزيد، فسألتها:

- "هل أنت أسترالية؟"

- "نعم"

- "ورحلتك إلى لوس آنجلوس فقط؟" أجابت:

- "نعم" وأردفت جملة لم أفهمها، فطلبت منها أن تأخذ المقعد الخالي الذي بيننا كي أستطيع أن أسمعها جيّداً، ففعلت، ووضعت ما تحمله مكانها، وطال الحديث لتروي قصّتها على مهلٍ، دون أن تحسب حساباً للوقت، أو لكونها تحكي لإنسان تراه لأوّل مرّة، بل كأنّها تروي لإنسان تعرفه منذ زمن، وتقصّ له ما حدث أثناء غيابه، وعجبت من ذلك الانفتاح، وتلك الثقة، ولم يسعني عندما سألت:

- "وأنت ماذا عنك؟" إلاّ أن أبادلها الانفتاح والارتياح نفسه، وصارت تعرف قصّتي واسمي وأسماء أفراد عائلتي، حتّى مشاريعي المستقبلية في لوس آنجلوس. ولم أدرِ كم مرّ من الوقت أثناء حديثنا الطويل، وأحسست أنّها وجدت بي الأب الذي افتقدته ولم تعرفه في حياتها، لتضع بين يديّ همومها وآمالها. وأدركنا النعاس، وساد الصمت وأُطفئت الأنوار، فما كان منها إلاّ أن وضعت وسادتها على ركبتي، وألقت عليها رأسها بكلّ اطمئنان، فوضعت يدي على كتفها، كما أحتضن ابنتي، وغفونا على هذا الوضع مدّة لم أستطع تحديدها.

أُضيئت الأنوار وانهمكت المضيفات في توزيع الفطور، وفي الخارج ظلام دامس، وذهبت جارتي لتغسل وجهها وتصلح زينتها، وعادت لتأكل بشهيّة تحسد عليها، أمّا بالنسبة لي فالأكل، وخصوصاً ما يقدّم في الطائرة، هو واجب فقط. وبدأت خيوط الشمس تتسلّل عبر النوافذ شيئاً فشيئاً، وهذا يعني أنّنا اجتزنا نصف الطريق، وفي المكان نفسه، شاهدت الخطّ الفاصل بين الظلمة والنور، على صفحة الأوقيانوس.

ودبّت الحركة في الطائرة، فالكلّ قد تعب من الجلوس أو النوم، فصارت الطائرة أشبه بسوق تجاري يفتتح أعماله. وابتدأ العد العكسي، جارتي تبتعد عن أهلها وتقترب من المجهول الذي لا تعرفه، ويتملّكها انقباض، بينما أنا عائد لأرى أولادي وأحفادي وبيتي.

وساد سكوت حين دخلت الطائرة في ضباب كثيف لدرجة أنّي لم أعد أرى جناحها، واستمرّت هذه الحالة أكثر من ساعة، ممّا يطبق على القلب، وفجأة ظهرت تحتنا شوارع وأبنية مدينة من مدن كاليفورنيا الساحلية، ولم أستطع تخمينها، فقد اختلطت عليّ الجهات بسبب انحراف الطائرة وتغيير زاوية اتّجاهها، إلى أن حطّت على أرض المطار، ونفثت مثلنا همومها. وفي زحام الركّاب في الصفّ الطويل، اختفت الجارة عن أنظاري، ولم أعد أعرف عنها شيئاً.

19. صورة وتاريخ

بعد استراحة طويلة، وقد اختلط عليّ النهار والليل، استيقظت مساءً لأقول لروبير:

– "صباح الخير، في أيّ يوم نحن؟"، ومع العشاء حاول روبير أن يستدرجني للحديث عن رحلتي، لكنّي لم أكن أعرف من أين أبدأ. في اليوم التالي ذهبنا إلى بيت إيلين وراي، في موعد الغداء، روبير وأنا، وكان اجتماع عائلي حميم طال اشتياقي

إليه. أمّا الذي كان يشغلني، فهو زيارة ضريح أمّ كميل بعد هذا الغياب الطويل، والغريب في الأمر، أنّي أرتاح وتتجدّد قواي بعد كلّ زيارة، وهذا ما حصل معي أيضاً بعد هذا الأحد، إذ أقدمت على العمل بهمّة ونشاط، فأنجزت سريعاً بعض احتياجات المنزل، بل أنّ نشاطي للعمل دفعني إلى التفكير في إنجاز عمل مفيد يستغرق وقتاً وجهداً، لكنّ هذا المشروع لم يكن واضحاً في ذهني بعد.

وذات يوم، كنت أقلّب مجموعة من الصور القديمة والحديثة، وكانت إحداها لكنيسة مشغرة، تلك التي بناها والدي، وقد التقط هذه الصورة فكتر ابن أختي نسيبة، عندما زار مشغرة عام 1971، أخذت أتأمّل هذه الصورة، وأستعيد معها ماضي الكنيسة المتلازم مع عمري، وكنت أحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، حجارتها وهيكليتها من كلّ النواحي، بل أنّي أعرف قصّة بنائها حسبما رواه لي أخي أنيس، إذ كانت طبيعة الأرض مكان البناء صعبة، في بداية العمل، بين 1910 و1912، أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان مكانها كنيسة قديمة، كناية عن غرفة صغيرة تقبع بين الصخور من الجهة الشمالية الغربية، ويجاورها من الجنوب ينابيع مياه كثيرة، وقد أسعفتهم الأرض الصخرية أثناء حفر الأساسات، ماعدا الزاوية الجنوبية الشرقية، حيث الأرض ترابية طرية؛ وعلى عمق (عصفورة حبل) أي ما يقارب 10 إلى 12 متراً، وجدوا مجرى مياه جوفية، فعرفوا بداهة أنّ الأرض تحت المياه صلبة، فجرى طمر تلك الحفرة بحزمات قضبان العريش (جرزون أو كرسبان) أوّلاً، ثمّ بالصخور والحجارة الكبيرة، وهذا ما سمعته بأذني من الحاج بطرس قرقش جار الكنيسة ورفيقها، وصرت أتخيّل أبي والعرق الذي كان ينضح من جبينه، في إنجاز هذا العمل الضخم في تلك الطبيعة الصعبة، إلى أن أصبح بناءً شاهقاً ثابتاً قوياً، لا يشوبه خلل في أيّ جزء من أجزائه، وكأنّه بني في الأمس القريب.

مرّت ببالي كلّ هذه الأفكار وأنا أتأمّل الصورة، وخطر لي أن أقوم بتنفيذ مجسّم لها من الخشب، يكون ذا قيمة فنّية، وتردّدت في بادئ الأمر، وبدأت أحسب كم

سيلزمني من الوقت والعدّة واللوازم، لكنّ روبير شجّعني، كما شجّعني الصديق والرفيق فريد قائد بيه، من عين عنوب، وهو مهندس ديكور، بل أنّه قدّم لي كلّ ما من شأنه أن يعينني في تنفيذ العمل، من كرتون للرسم ومساطر ومعدّات أخرى.

20. الكنيسة، الوطن

وبدأت العمل في تنفيذ مجسّم الكنيسة، ثلاث ساعات تقريباً أُمضيها يومياً في الكاراج، وفي مسار عملي كلّ يوم، أشعر وكأنّني في تلك البقعة المباركة، أكلّم أبي وأستشيره، وأعمل بوحيه في نحت أشكال الحجارة والأعمدة، وبوّابة المدخل الرئيسي، الذي حفظه والدي في ذهنه من بوّابة كنيسة في دمشق، ونفّذه في كنيسة مشغرة، وحين أصل إلى الأقواس المتعدّدة الأشكال، يعود إليّ كميل، أسمع صوته، وأتذكّر كلماته عندما كان يعلّمني طريقة إيجاد نقطة الارتكاز في أيّ قوس، مهما كان شكله، هكذا كنت في بلدي ومع أهلي وعائلتي، عندما أدخل عتبة الكاراج وأبدأ العمل، ولا أنتبه أنّي في أميركا، إلاّ عندما أعود إلى البيت، وأنصرف إلى الأشياء الروتينية، فتنقبض نفسي كالمغترب حديثاً.

الصديق والرفيق فريد قائد بيه، كان يزورني في البيت بصحبة زوجته اليابانية، وكثيراً ما كان يريها ما كنت أقوم به من أعمال في الكاراج، من طاولات وكراسي ويشرح لها صناعتها الغريبة عن المألوف، ونوعيّة الخشب الذي كنت أستخدمه في صناعتي، والذي لا يخطر ببال نجّار، ككرسي من الخشب المعاكس مثلاً. وكذلك الأمر حين بدأت العمل في مجسّم الكنيسة. وحدث أن استأجرت سيّدة الشقّة المقابلة لبيتنا، حديثاً، وحين كانت تنقل أثاثها، لفتت نظري صناعته ونوعيّته، وصرت أتلمّس المفروشات وأدقّق النظر فيها، ولاحظت الجارة الجديدة، السيّدة سوزان، اهتمامي، وسألتني عن السبب، فقلت لها إنّ هذه مهنتي، وأحبّ الثمين والجيّد منها، وبعد أن استقرّت في شقّتها لفترة، وكان الكلام بيننا مقتصر على تحيّة الصباح، سألتني ذات

يوم، وقد لاحظت انهماكي في العمل في الكاراج يومياً:

- "أريد أن أعرف بماذا تعمل؟"، فأريتها صورة الكنيسة، والرسومات على الكرتون بالحجم الذي أطبّقه على الخشب، فما كان منها إلاّ أن أخذت الصورة بيدها، والرسومات، بعد أن وضعت نظّارتها على عينيها، وبدأت تدقّق وتقارن بين الصورة والرسومات والأخشاب المشغولة، ووقفت أنتظر كمن قدّم أطروحة للمناقشة، ولم أكن منزعجاً، بل مستغرباً لهذا الاهتمام الجدّي، ثم نظرت إليّ وابتسمت قائلة:

- "أتحبّ أن تعرف ما هو عملي؟"

- "ليس لديّ مانع"، فصحبتني إلى بيتها، وأرتني مجموعة من الزجاج الملوّن برسومات جميلة مشغولة بدقّة، وبعض قطع السجّاد المحاك يدوياً على طريقة هنود أميركا، وفاجأني أن أبدت استعدادها لمساعدتي. ومنذ ذلك اليوم، دخلت في شراكة معي لصنع المجسّم، حين تسنح لها فرصة عملها.

وأخيراً، وبعد عمل دام أربعة أشهر، وضعت المجسّم على بنك النجارة، بسقفه القرميد، والقبّة، وبرج الأجراس، وقد اكتملت صناعته، وصادف أنّ مرّت الجارة ورأته، ففرحت جدّاً، وأسرعت لتحضر آلة التصوير خاصّتها، وابتدأت بأخذ صور له من كلّ الزوايا والجهات، وعادت بعد أيّام تحمل الصور، وأعطتني المجموعة كاملة، ولم يكن قد تبقّى من العمل سوى تلوينه، فبدأت أضع الألوان المطابقة للأصل، القرميد، والحجر، والإسمنت، وحين انتهيت، كانت كنيسة مشغرة، المصغّرة، قد صارت كائناً حيّاً، يحمل ما يحمله من معانٍ لكلّ أهالي مشغرة الذين كانوا يزوروننا، فيتلمّسونها كشخص عزيز طال اشتياقهم إليه، وقد التقط راي ورتشرد مجموعة من الصور الملوّنة للكنيسة - المجسّم. بل أن رتشرد فكّر في أن نعرضها في مكان عام من الأماكن التي تهتمّ للأشياء الفنّية، ولكنّ الظروف لم تتوفّر لهذا الغرض.

21. سياحة قصيرة

الصديق الطيّب جورج حبّوش، وفي كلّ مكالمة هاتفية بيننا، كان يدعوني بإلحاح لزيارته في "سينسناتي أوهايو"، وما شجّعني أيضاً، وجود رائد ونديم محسن، والأخت ليلى رفّول، في واشنطن، ممّا يسهّل زيارة الجميع في مشوار واحد، وهكذا كان، فقد أمضيت الأسبوع الأوّل عند جورج وعائلته، فصحبني مراراً إلى عمله، وقمنا ببعض النشاطات السياحية، إضافة إلى جلسات الحديث الطويلة، ثمّ إلى واشنطن، حيث رائد ونديم محسن، أبناء الأمين عبد الله. ورائد يتمّ علومه العالية في جامعة "جورج تاون"، بينما نديم يتابع إلى جانب دراسته، هوايات فنّية مسرحية وموسيقية، وتعرّفت هناك إلى الرفيق هاني طبّارة، الذي تولّى مهمة الدليل السياحي في مشوار طويل لنا في واشنطن، وكان في اليوم التالي مغادراً إلى لبنان. أمّا عند الأخت ليلى رفّول، فقد سررت، إضافة إلى اللقاء، بأمرين، أوّلهما بعض احتياجات البيت الخشبية التي منحتني متعة العمل، وثانيهما غنى مكتبة ابنتها التي تدرس اللغة العربية، إلى جانب دراستها الأخرى، ممّا منحني متعة القراءة والحوار حول الكتب ومناقشتها.

ومضى الأسبوعان، وعدت إلى "بيربانك"، حاملاً ذكريات حلوة من الأوقات التي أمضيتها مع الأصدقاء، متذكّراً قولاً بالإنكليزية: "الأصدقاء يجعلون الحياة مقبولة".

22. ثلاثة أصدقاء

هناك قول آخر أثبتت الحياة صحّته: "الدهر إن أضحكك يوماً، أبكاك سنةً"، وقد علّمتني التجارب ألاّ أبكي على يوم مضى ولا أفرح ليوم سيأتي.

ففي الفترة التي كنت أصنع فيها مجسّم الكنيسة، أخبرني رتشرد عن ورم صغير في فكّه الأسفل، ثم أخبرني لاحقاً إنّه يشكو من التهاب في ضرس العقل، وأنّه ذاهب إلى طبيب الأسنان، وقد وصف له الأخير مضاداً حيوياً، ثمّ تطوّر الأمر فاقتضى

إجراء جراحة. ولم يكد الجرح يلتئم، حتّى عاد الورم للظهور بصورة أقوى، وكثرت زيارات رتشرد إلى المستشفى، وفي أحد الاتّصالات، جاءني صوت زوجته إيفيت، لتخبرني أنّ رتشرد لا يستطيع التكلّم معي، لأنّه يخضع لعملية جراحية، فأسرعت إلى المستشفى كي أكون بجانبه، وحين خرج من غرفة العمليات، كانت بسمته تظهر من خلال الأقمطة التي تغطّي نصف وجهه، وكأنّه عائد من نزهة. وسرعان ما بان الأمر إذ أخبره الأطبّاء أن الورم الذي استؤصل، خبيث، ومن الممكن شفاءه بالمعالجة الحديثة، وكانت المرحلة المقبلة من المعالجة، بالأشعّة.

أمّا الصديق فريد قائد بيه، فقد قرّر بيع محلّه، ثمّ وفي فترة وجيزة تمكّن من إيجاد عمل جديد فرح به واعتاده بسرعة، وسرعان ما انتقل إلى بيته الجديد مع زوجته اليابانية، متحمّساً لتحسينه وترتيبه، وكنت أساعده قدر الإمكان، وقد تعمّقت صداقتنا، ووجدت فيه الرفيق والصديق المثالي لروبير، وأكبرت فيه الصدق وعفّة اللسان. وتمضي أيّام يقلقني فيها غيابه، والهاتف في بيته ينبئ بعدم وجود أحد فيه، وعرفت فيما بعد من الصديق فؤاد تكلة، بوجود فريد في المستشفى بعد اكتشاف ورم خبيث في الجهة السفلى من الدماغ. وبدأت المعالجة، وإطالة العذاب.

وفي أستراليا، كان الصديق موريس الغزال على اتّصال كتابيّ مستمرّ بي، بعد عودتي من هناك، ولكن بشكل متباعد، وكانت أخباره تصلني عن طريق شقيقته فيوليت، التي علمت منها بأنّه دخل المستشفى، ثمّ عاد وخرج منها، ولكنّ الورم الخبيث كان قد حقّق إصابته الثالثة.

23. .. والغار والزيتون

رتشرد كان مهتمّاً بتاريخ العائلة، وقد رسم هو وأخوه الأصغر "جيمي" لوحة [شجرة العائلة]، وكانت جميلة للغاية، ولكنّها فقيرة بالمعلومات، وصار اهتمامه بجمع المعلومات عن تاريخ العائلة يكبر، وكذلك الأمر بكلّ ما يدور في لبنان، فكان يأتي

إلـيّ حـاملاً أكداس الصـحف والمجـلاّت التـي تصـدر فـي الولايـات المتّـحدة، ويسـألني شروحات عمّا يكون قد قرأه عن لبنان، بالإنكليزية، ولمست عنده الرغبة في استعجال تحقيق حلم قديم رافقه منذ الطفولة، وهو زيارة لبنان. وأحسست أنّه بحالته الصحية، لم يترك لـي خيـاراً فـي أن أصـحبه فـي تلـك الزيـارة. وصـرنا نشـعر، دون أن نـتكلّم فـي الأمر، وكأنّنا في سباق مع الزمن، وكان الذين زاروا لبنان في صيف وخريف عام 1992، يعودون بأخبار مطمئنة عن الحالة الأمنية، مع الشكوى من الفوضى في السير والنقليات وغلاء الأسعار وعدم النظافة، التي يستغربها ويستهجنها المغتربون. وكنت أقول في نفسي، كلّ ذلك مقبول حالياً، ما دامت الحالة الأمنيّة مستقرّة وتبشّر بالخير.

وفي أوائل آذار عام 1993، حجزنا تذاكر السفر إلى لبنان، لمدّة أربعين يوماً، على أن نتوقّف في رحلتنا في محطّة واحدة، في أمستردام. وكانت الصديقة نجوى بلطجي تنوي مرافقتنا، إلاّ أنّها عادت وسبقتنا بيوم واحد، بعد أن كلّفتني بنقل إحدى حقائبها معي، لكثرة حوائجها. وأتى موعد السفر، فانطلقنا من لوس آنجلوس إلى أمستردام بالطائرة "الجامبو" المريحة، وهناك توقّفنا لأربع ساعات، تابعنا بعدها، وقد صار جميع الركّاب من اللبنانيين، إلى مطار دمشق، ومنها إلى مطار بيروت، لنصلها في الواحدة وعشرة دقائق من صباح الأوّل من نيسان، بعد عشرين ساعة من انطلاقنا، بما فيها التوقّف في أمستردام. ولم نستطع أن نكتم فرحنا، رتشرد وأنا، حين وطئت أقدامنا أرض الوطن.

*

كان في استقبالنا جمع من الأقرباء والأصدقاء، أوّلهم إدما، ابنة أختي أنيسة، وشقيقة عطيّة وجريس، ومعها ابنها وسام، وأيضاً الصديق تمّوز قنيزح، والصديق حسن صادر، والصديقة نجوى بلطجي وابنها فادي، ووقف رتشرد يتأمّل تلك الوجوه المرحّبة في هذا الوقت من الليل، والكلّ يطالبنا بأن ننزل في ضيافته، سلّمت لنجوى

حقيبتها، واعتذرنا من الصديق حسن الذي ألقى القبض على حقيبتنا مصرّاً على استضافتنا، ووعدناه أن نراه لاحقاً، ثمّ انطلقنا مع إدما وابنها إلى جلّ الديب، حيث يسكنون قرب دير الصليب، وحيث كان زوجها الياس الخوري ساهراً ينتظرنا.

في اليوم التالي بدأ رتشرد يلتقط الصور للمنطقة التي يطلّ عليها البيت، والذي يقع على تلّة مرتفعة تشرف على الطريق الساحلي والبحر، وفي المساء اجتمعت عائلة إدما، ابنتها سلوى وزوجها وأولادها، ابنها غسّان وزوجته، وابنها وسام العازب والمقيم معها، أمّا ابنها الأكبر ميشال فهو يقطن في زحلة، وصار رتشرد يستعيد ما عرفه منّي في أميركا عن العائلة، وزيادة في التأكيد راح يلتقط الصور ليسجّل عليها فيما بعد أسماء الجميع، وعلاقة الفرع بالأصل.

كان في برنامج رحلتنا أن يتعرّف رتشرد إلى الأقارب أوّلاً، ثمّ نزور الأماكن السياحية، وأوّل زيارة كانت لابنة عمّة رتشرد، الراهبة في دير الصليب القريب، عجوز مثلنا، أمضت عمرها في خدمة الدير، وهي تعرفنا، فقد سبق لها زيارة رتشرد في أميركا، وعرّفتنا على أقسام الدير في جولة رافقتنا فيها بهمّة ونشاط. وتابعنا الزيارات إلى بيت سامي ابن أخي أنيس، ثم إلى أصدقاء كميل، تمّوز قنيزح، ونغم عرنوق رفيقه وقريبه، وغيرهم. هذه الوجوه الحلوة، هم جزء صغير من مجموعة كبيرة من الناس تربطنا بهم أواصر القربى والصداقة والمحبّة، وهؤلاء هم الذين تهون متاعب السفر ومشقّاته، بلقائهم.

ولم يكن يؤذينا سوى مناظر الأراضي المهجورة، والبيوت التي تشكو بمرارة غياب أهلها، نحن أبناء وطن جبران، الذي وصفه بأنّه "الفلاّحون والكرّامون والبنّاؤون، والغار والزيتون"، نجده اليوم ما زال يئنّ تحت وطأة الموت والدمار الذي أُنزل به، زوراً، باسم الله وباسم الدين.

ينقضي الأسبوع الأوّل في لبنان، ننطلق من البيت إلى بيوت الأقارب والأحباب، ونعود إليه نحمل في قلوبنا ثمار المحبّة التي لا تؤثّر فيها عاديات الزمن

مهما كثرت وتعاظمت. ويأتي دور مشغرة، نذهب في بداية الأسبوع إلى بيت أيجيني، ابنة أختي أنيسة وزوجها جان بركة، فتلقانا بما لقيتنا به شقيقتها إدما، من ترحاب، إذ نجد بيتها بيتنا، نشعر فيه بالطمأنينة والراحة. ورتشرد الذي يحفظ في قلبه كلّ ما رويته له في أميركا عن الأشياء التي تشدّنا إلى مشغرة، وعن مأساتنا، وما سبّبه ذلك الانسلاخ عن الوطن من ألم لا يستكين وجرح لا يندمل. كان يعرف نظرياً كلّ هذا، وهو الذي ولد في أميركا، وأمضى حياته هناك إلى عمر الخامسة والستّين، ولا يعرف لبنان، فعندما كنت أقول له أنّ الأمر مختلف جدّاً في لبنان، من حيث العلاقات والناس والحياة، كنت ألمح في عينيه عدم التصديق، لكنّه لمس ومنذ الساعات الأولى هذا الفرق، ليكتشف بنفسه الأبعاد الحقيقية لكلّ كلمة كنت أرويها له. ففي كلّ مكان نذهب إليه، كان لديه تصوّر مسبق لما سيلقاه، حتّى في الأماكن العامّة من مطاعم ومحلاّت، ولم أحاول بتاتاً إخفاء السلبيات في مطلق الحال، بل كان يعرفها جيّداً أيضاً.

وقصدنا الكنيسة، تلك التي ساعدني رتشرد في صناعة مجسّمها، وقد قال لي وقتها أنّه يريد رؤيتها في لبنان، ولم يصدّق عينيه حين وقف أمامها، بل أنّه أخذ يتلمّس حجارتها وأعمدتها كمن يلتقي حبيبة فارقها منذ زمن، ودرنا حولها أكثر من مرّة، وحين فتحت الأبواب في توقيت الصلاة، وكنّا في أسبوع الآلام، ولجنا لمشاهدتها من الداخل قبل بدء الصلاة، وما إن دخلنا حتّى تجمّع حولنا جمهرة من النساء القريبات والصديقات المجتمعات كالعادة باكراً، وصرت في حيرة، على من أسلّم، أو أقبّل، أوّلاً؟ ومن سأجيب عن أسئلتها قبل الأخريات؟ وخرجنا على جناح السرعة، لنلتقي في الطريق الكثيرات والكثيرين من النموذج نفسه، ورتشرد صامت ومشدوه من هذه التظاهرة، إلى أن ابتعدنا في طريقنا قاصدين بيت فؤاد ابن أخي أنيس، وكان خارجاً من عملية جراحية في القلب، ويبدو عليه الإعياء والخوف من حالته الصحّية، وفي جلسة حديث مطوّلة أخبرنا عن معاناته بفقد زوجته قبل عام تقريباً. وعن وضع

البلدة المتوتّر، من جرّاء استمرار الموجة الأصولية.

وبعد أن أمضينا أسبوعاً في مشغرة بين الزيارات، والمشاوير في الطرقات الجبلية المتعرّجة، وبين أحضان الطبيعة التي أحبّها رتشرد كثيراً، عدنا إلى بيروت على أن نكرّر زيارتنا لمشغرة بعد أن يكون المناخ قد صار أكثر دفئاً.

كان علينا بالطبع، زيارة أهل أمّ كميل، وكانت الصعوبة في أنّ كليمانص، الراهبة، شقيقة أمّ كميل، لم تكن تعلم بعد بوفاتها، إذ كانت تعاني من اضطرابات في القلب، أمّا الآن وبعد ثلاث سنوات فالأمر أهون، وفي بيت رئيف ابن عمّي اجتمعت الأسرة كلّها، وكان عددنا يربو على العشرين، جمعهم رتشرد في صورة تذكارية واحدة.

ثمّ في بيت أخي أديب الذي كان قد صار بعمر الثمانين، كانت سهرة عامرة مع أبنائه وعائلاتهم، وكم سرّ أديب برؤية رتشرد، وبكونه يستطيع التكلّم معه بالعربية، أمّا رتشرد فقد كان في كلّ تلك اللقاءات، يشعر بأنّه جزء من عائلة كبيرة بعددها، وبنفوس أبنائها، يسألونه عن أحواله وعائلته بلهفة لم يتعوّدها قطّ من قبل.

وفي بيوت الأصدقاء لم تكن الحفاوة أقلّ منها في بيوت الأقارب، فقد زرنا الرفيق تمّوز قنيزح، وبيت والده الأمين الياس جرجي قنيزح، ثمّ رتّبنا زيارة بصحبة تمّوز وقريبه الصديق نغم عرنوق، إلى بيت الصديق القديم شفيق ناصيف، والتقينا هناك شقيقه الفنّان والصديق زكي ناصيف، الذي رافقنا بعدها لزيارة بيت الأمين عبد الله محسن، وحدث أن ضللنا الطريق إلى بيت الأمين عبد الله في الحدث، وكان لا بدّ من أن نسأل عن البيت، وتولّى السؤال السيد زكي بحكم موقعه في المقعد الأمامي بجانب تمّوز، وما أن يرى الناس أنّ الفنّان زكي ناصيف، بشحمه ولحمه، يسألهم، حتّى يتحوّلوا إلى سائلين، (كيفك خواجة زكي)، (شو عم تعمل عنّا)، ويضيع الحديث، إلى أن استهدينا أخيراً إلى العنوان المطلوب.

ومن الأمسيات الجميلة التي أمضيناها أيضاً، أمسية شعرية للشاعر إيليا أبو شديد، أسمعنا فيها من الشعر باللغة المحكية ما يسكر أكثر من الخمر، وكان رتشرد

يشدّ على يدي ويقول:

- (خالي، أنا عم إفهم كل كلمة، شي عجيب)، وبعد الأمسية تعرّفنا إلى الشاعر، وشكرناه على الأمسية الرائعة.

24. سياحة في الوطن

وأتى دور الزيارات إلى المناطق السياحية، وقرّرنا أن نبدأ بدمشق، وقد رافقنا سامي ابن أخي أنيس، هناك نزلنا في ضيافة لودي ودلال شفيق ناصيف، وزرنا صيدنايا، ثم الجامع الأموي وقصر العظم، وتناولنا الغداء في مطعم في سوق الحميدية، وكانت دمشق قد تغيّرت كثيرا عمّا كنت أعرفها، وكبرت، وزاد الازدحام فيها، وقد أحب رتشرد المشي في شوارعها، خصوصاً في المدينة القديمة، إذ كان يتركنا ويدخل في الحارات، ليعود لملاقاتنا، مهتدياً بقميص السائق الذي رافقنا، والذي كان مزركشاً كالـ (بنديرة)، وفي إحدى المرّات طالت غيبة رتشرد، وذهب السائق للبحث عنه، واستبدّ بي القلق خوفاً من أن يتوه في الزواريب المتشابهة التي تشتهر بها دمشق القديمة، وبعد نصف ساعة عادا وعلى وجه رتشرد ابتسامة فرح، فقد كانت حصيلة تلك الجولة فيلماً كاملاً من الصور الفوتوغرافية.

عدنا مساءً إلى شتورة، فلم نجد تمّوز، حسب الاتّفاق، فنزلنا عند ميشيل خوري ابن أدما، ابنة أختي. وفي اليوم التالي أصرت زوجته ماري على أن تأخذنا بنفسها إلى بعلبك، وهناك أمضينا في القلعة مايقارب ثلاث ساعات، ورتشرد لا يتعب من التقاط الصور، وكانت القلعة قد عادت حديثاً لإدارة الحكومة، بعد فترة من الإهمال. وعدنا إلى زحلة ظهراً لنتناول الغداء في أحد المطاعم الفخمة، والمتميّز بطعامه اللبناني وخبز الصاج، ومن شتورة عدنا إلى بيروت لنذهب في اليوم التالي باتّجاه الشمال.

هذه المرّة رافقتنا أميمة كنّة أدما الثانية، زوجة غسّان، حيث زرنا متحف جبران

خليل جبران في بشرّي، وكان الثلج ما زال يغطّي المرتفعات، فالتقط رتشرد العديد من الصور داخل المتحف وخارجه، للثلج والخضرة وسطوح القرميد، ثم تابعنا إلى غابة الأرز، حيث النسمات تحمل معها عن الثلوج حنينها إلى دفء الأودية الخضراء، فتشعر برغبة للتحليق معها، فوق تلك الوهاد المملوءة روعة وقداسة.

كان في مخطّط رتشرد أن يزور القدس، ولم يكن باستطاعتي مرافقته، فاغتنمت الفرصة لأقوم ببعض الأعمال الخاصّة، وجمع بعض الحاجيات. وفي الأيّام القليلة الباقية لنا في لبنان قمنا أيضاً بزيارة قصر بيت الدين، فصار في جعبة رتشرد مجموعة ضخمة من الصور عن كلّ الأماكن التي قمنا بزيارتها. وكنت مرتاحاً جدّاً كوني حقّقت الغرض من الرحلة التي كانت بمجملها حلم رتشرد في التعرّف إلى لبنان، وفي أن يتلمّس بنفسه ما كنت أرويه له، وكانت الحصيلة إعجاباً شديداً رغم آثار الحرب والفوضى العارمة وما شاهده من الأسواق المهدّمة، إلاّ أنّه كان يقول:

- "رغم كلّ شيء ما زال لبنان أفضل من أميركا"، وكان يردّد أنّ أجمل ما شاهده في حياته، هو لبنان. حتّى أنّه بدأ يفكّر في العودة نهائيّاً، وصار يسأل عن المكان الأنسب للسكن، وعن مواصفات البيوت وغيرها. أمّا بالنسبة لي، فقد صرت أحسب بدقّة المفاضلة في العيش بين لبنان والولايات المتّحدة الأميركية، وكما يقول المثل (الولاد أهل جداد)، وأفكّر في أنّ أولادي هناك في أميركا، وهذا النسيج الذي تكوّن خلال السنوات السبع الماضية، وكيف صرت مشتّتاً بين الغالي الذي يرقد تحت ثرى لبنان، وذكرى الحادث الذي يحفر في قلبي، وما يحمله من ألم لا يمكنني نسيانه؛ وبين الغالية التي ترقد هناك تحت الثرى في أميركا. وفي عودة إلى العقل الذي أوليته أمري، أوحى إليّ وأنا في قلب المعاناة، أنّ في الحياة أسراراً لا يمكن التعاطي معها بصورة حسابية، بل بالعفوية والبساطة، ورأيت أن أترك الأمر للزمن.

أمّا ما كان يشغل بالي بصورة مباشرة في الأسبوع الأخير في لبنان، هو ظهور ورم في وجه رتشرد كان يتزايد كلّ يوم بشكل ملحوظ، وصار همّي الوحيد أن نعود

إلى أميركا وأن يصل رتشرد إلى بيته والمستشفى، والأطبّاء الذين يعالجونه، وكنّا قد قرأنا في طريقنا إلى لبنان مقالاً في صحيفة "بيروت تايمز" عن الدكتور فيليب سالم، وعيادته في هيوستن وتحدّثنا أنّه من المفيد أن يذهب رتشرد إليه حين عودتنا إلى الولايات المتّحدة.

25. الذاكرة والتاريخ والخلود

عدنا إلى أميركا، وبعد استراحة يومين أو ثلاثة، صرت أمارس رياضة المشي التي استهوتني، يوميّاً، وبدأ رتشرد معاملات الحصول على الجنسية اللبنانية، وكان قد اتّصل بالدكتور فيليب سالم بعد استشارة طبيبه، وتمّت معاينة حالته من قبل الدكتور سالم الذي زوّده بتقرير طويل إلى طبيبه، واستمرّت الاتّصالات الهاتفية بين الطبيبين لمتابعة حالة رتشرد التي استقرّت وتحسّنت نوعاً ما، وأذكر كم تأثّر بوفاة صديقنا المشترك فريد قائد بيه، الذي وافته المنيّة أثناء وجودنا في لبنان، ولم نعرف في حينه، بل أنّ زوجته اليابانية هي التي أتت إليّ بعد عودتي، كي تخبرني، لمعرفتها بمدى صداقتنا المتينة.

كنّا، رتشرد وأنا، نقوم برحلات طويلة بالسيّارة، ونتحدّث في مشاريع طويلة الأمد، ونضع الخطط المستقبلية، ممّا يدلّ على معنويات رتشرد العالية، وتمسّكه بالحياة رغم وضعه الصحّي الحرج، وفي إحدى زياراتنا إلى "سانديبيغو" وكنّا نتناول طعام الغداء في مطعم لبناني، اكتشفنا أنّ صاحب المطعم صديق قديم لرتشرد، فعرّفني رتشرد إليه واسمه ابراهيم النشاشيبي، وجلس معنا، وكنت قد لاحظت أنّ المكان أشبه بمعرض لوحات، وأثناء الحديث فهمت منه أنّه اعتزل المحاماة والتزم بهواية الرسم، وكان لا بدّ من تساؤل حول هذا التحوّل، فأجاب أنّ المحاماة مهنة تكفي صاحبها لقمة العيش ليس أكثر، وأنّه لا يريد ثروة مكوّمة من آلام الناس، بل يريد أن يدخل التاريخ بأعماله الفنّية، وحدّثنا عن أعماله وأرانا العديد منها، فسألته عن

الفنّانة ربيعة سكّرية، فقال أنّه يعرفها، وأخبرته أنّها كانت زميلة ابني الشهيد، في كلّية الفنون الجميلة في بيروت، كما ذكرت له أنّني في صدد وضع كتاب، آمل أن أعيد به ولدي الشهيد إلى الذاكرة، وبالتالي إلى الحياة، وعندما تلفّظت بهذه العبارة، قام واقفاً وقد طفرت الدموع من عينيه، وقال:

– "أتسمع يا رتشرد؟ خالك يريد أن يخلّد ابنه في كتاب". وصمتنا جميعاً وقد فاجأنا انفعاله الذي ما لبث أن حرّض دموعنا، لكنّه سرعان ما تمالك نفسه، وعاد للحديث مؤكّداً على أهمّية الإبداع وخلوده، واتّفقنا في أنّ مقاومة الفساد، الراقية، تكون بتفعيل الطاقات الخلاّقة، المخزونة، وإطلاقها.

26. زاد الطين.. هزّة

زيارات الأصدقاء، هو الأمر الوحيد الذي كان يضفي على الحياة بعض التنوّع، فقد زارتنا الصديقة ليلى رفّول وابنتها، فازدهرت النشاطات والمشاوير والسهرات التي تتنوّع بين حديث الأدب والشعر، وبين الموسيقى التي برع فيها روبير، عزفاً وتأليفاً، وبين أحاديث الذكريات والنوادر. وفي تلك الأثناء كانت مراسلاتي مع إميل رفّول في فرنسا ما زالت مستمرّة وبدأت أشعر أنّ لديه الرغبة في العودة إلى الوطن، وبعد مدّة وصلتني منه رسالة يخبرني فيها أنّه اتّخذ قرار العودة فعلاً، وكتب لي العنوان الذي سينزل فيه، كي تستمرّ المراسلات بيننا، وكنت في تلك الفترة قد أجريت عمليّة (مي زرقا) لعيني اليسرى، ممّا استوجب توقّفي عن الكتابة في السيرة، لكنّي استطعت أن أجيب إميل برسالة إلى عنوانه الجديد في لبنان، ولا أدري لماذا احتفظت بنسخة منها. ومع دخول العام 1994 كانت الأيّام تمرّ بشكل روتيني، إذ أمضي معظم الأوقات في البيت، لا يلوّن عزلتي سوى زيارات الأصدقاء من حين إلى آخر، وخصوصاً زيارات رتشرد التي صارت شبه يومية.

وفي صباح 17 كانون الثاني، وفي الساعة الرابعة والنصف صباحاً، فتحت

عيني لأرى البيت وكأنّه يحاول الإفلات من أساساته، وأصوات أغراض تتساقط عن الرفوف والطاولات، وبعد ستّة عشر ثانية، انقطعت الكهرباء في نهايتها، توقّفت الهزّة الأرضية العنيفة التي ضربت كاليفورنيا، وساد ظلام دامس، واستعنت بالمصباح الكهربائي لتبديده، فوجدت روبير قد صار قربي ليطمئنّ عليّ، ولبسنا ثيابنا بسرعة لنخرج إلى السيّارة في الموقف، ومثلنا فعل الجيران، هنّأنا بعضنا بالسلامة، ودخلنا السيّارة فأدار روبير المحرّك، وجهاز التدفئة، إذ أنّ الخوف والصقيع يتعاونان في حالة كهذه. وتأتي الهزّة الثانية التي تسمّى After Shoc، أو ردّة الفعل، وكانت قويّة لدرجة قريبة من الأولى، وبعد ساعة بدأت تباشير الصباح، وكان بالنا مشغولاً على إيلين والأولاد، لأنّ راي يكون قد غادر البيت قبل ذلك التوقيت بحكم عمله، فذهبنا إليهم، لنجد راي قد عاد إلى البيت على جناح السرعة، وهو يتفقّد الجدران بحثاً عن تشقّقات أو غيرها، بينما إيلين وأولادها في السيّارة أمام البيت، فقد تصرّفت بشجاعة إذ نقلت الأغطية والماء والطعام إلى السيّارة في دقائق، وظلّت محافظة على رباطة جأشها إلى أن أتى راي، فأصدرت قرارها:

– (ما عدش بدّي ضل بهالبلد ولا دقيقة)، ولم يكن أحد من الناس قادراً على قول أيّة كلمة تشجيع لجاره، فالكل مصعوقون من شدّة الهزّة، التي تبيّن فيما بعد، أن مركزها يبعد عنّا خمسة عشر ميلاً فقط.

عند الساعة الثامنة، دبّت الحركة ببطء في الطرقات، وعدنا إلى البيت لنتفقّده، ونقوم بالتنظيفات الضرورية ورفع الزجاج المتكسّر، والهزّات الخفيفة تداعبنا بين الفينة والأخرى، ومع عودة الكهرباء وخطوط الهاتف عاد روبير إلى عمله، وتسمّرت أنا أمام شاشة التلفاز الذي يعرض على جميع أقنيته مشاهد الدمار والخراب الذي أحدثتهما الهزّة، وقد كانت نسبة الأضرار في بيربانك قليلة، بالمقارنة مع المناطق القريبة من مركز الهزّة، حيث لم يحصل هنا إخلاء بيوت أو انقطاع طويل في الماء والكهرباء. ومع ذلك سبّبت هذه الهزّة كساداً في السوق، وهبوطاً في أسعار البيوت والعقارات،

وكثرت اليافطات المكتوب عليها "برسم البيع"، واستمرّت أعمال الترميم مع الهزّات الخفيفة المتوالية.

27. وداعاً "بيربانك"

في نهاية الأسبوع أصرّت إيلين أن أذهب معهم إلى بلدة "كامبريا" التي تبعد حوالي 250 ميلاً إلى الشمال من "بيربانك"، لقضاء عطلة الأسبوع، وكانت هي وراي من زبائن تلك البلدة السياحية القديمين، وكم أعجبتني تلك البلدة، فالسوق فيها يشبه إلى حدّ ما سوق مشغرة، وهو يحوي المكاتب والمطاعم والمحلاّت على أنواعها، وبعد أن استلمنا مفتاح البيت المحجوز من قبل، دخلنا أحد البارات، وكنت أتوقّع وجود أناس سكارى، وضجيج وزحام، ولدهشتي، وجدت هدوءً عزّ نظيره في الكنائس، وبعد احتساء البيرة، توجّهنا إلى البيت المفروش والمرتّب والنظيف، وهو مؤلّف من ثلاث غرف للنوم ومطبخ وحمّامات، وبإيجار مئة دولار في الليلة، ما يعادل إيجار غرفة في فندق، وفيه كلّ أسباب الراحة، وكانت سهرة هادئة أمام نار مدفأة الحطب، والأهم من هذا أنّنا تخلّصنا من هاجس الهزّات الأرضية الذي يرافقنا في بيربانك، إذ كانت الهزّة الأخيرة، ما زالت تردّداتها مستمرّة منذ أربعة أيام، ولا أحد يعلم إلى متى. وفي الصباح ساعدنا الطقس الجميل في التجوّل في حرش الصنوبر الذي يحيط بالبلدة، حيث تزدحم مشاوي الفحم على جانبي الطريق، وتتوزّع الطاولات الحجرية، التي يلتفّ الناس حولها في الهواء الطلق والشمس.

بعد أن عدنا إلى بيربانك، فهمت من إيلين وراي أنّهما يفكّران جدّياً للانتقال إلى كامبريا، وشراء بيت وفتح عمل هناك، وبالفعل، وبعد عدّة أسابيع، بدأت الإجراءات التنفيذية للفكرة، التي كان الدافع الرئيسي لها هو الخوف من الهزّات الأرضية، التي تتعرّض لها منطقة بيربانك بكثرة.

أمّا أنا فقد كنت مستمرّاً في توزيع وقتي بين القراءة والكتابة، وأعمال البيت

الضرورية، تتخلّلها فترات الراحة والاستجمام التي أمضيها مع رتشرد. وتصلني رسالة من إبن أختي، عطيّة، في أستراليا، يخبرني فيها عن عزمه على السفر إلى بيروت، لدراسة مشروع يختمر في ذهنه، وكان روبير أيضاً قد اتّخذ قراراً بعدم البقاء في الولايات المتّحدة، وقد قرّر السفر إلى لبنان خلال إجازته السنوية في شهر تمّوز، ولمدّة 21 يوماً لبحث إمكانية العودة النهائية، ولكن وبعد مداولات في الأمر، رأينا أنّ الأمر صعب على روبير، ومكلف في آنٍ معاً، وارتأيت أن أذهب أنا أوّلاً ولمدّة ثلاثة أشهر، لترتيب بعض الأمور العالقة، وللتحضير لمجيء روبير فيما بعد. وهكذا وضعت نفسي في مواجهة أمور تفوق قدراتي، نظرياً، أوّلها السفر الذي عانيت منه الأمرّين في عام 1993، وثانيهما التنقّلات الصعبة والمكلفة من وإلى بيروت، وداخلها، ولأنّها أصعب بالنسبة لروبير لغيابه الطويل عنها، قبلت كلّ ذلك مختاراً ومتحمّساً، وصار عندي جدول حافل بالمهمّات الواجب إنجازها، في بيربانك أوّلاً.

أشدّ ما آلمني هو موافقتي على هدم ما بنيناه خلال ثماني سنوات، مضافاً إليها الفترة التي سبقنا فيها روبير. وصار همّي الوحيد إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فصنعت صندوقاً كبيراً نسبياً، لنشحن فيه نواة البيت العتيد الموكول أمر تأسيسه لروبير، في لبنان. وبدأت أجمع ما أمكنني من الأغراض المفيدة وذات القيمة، دون أن أترك فراغاً مهما كان صغيراً، وبعد أن ملأت ثلاثة أرباع الصندوق، تركت الربع الأخير للأغراض التي تلزم روبير، والذي سيترك البيت في نهاية أيّار بعد أن يتمّ شحن الصندوق، وكنّا في سباق مع إيلين وراي اللذان دفعا القسط الأوّل من ثمن مطعم في كامبريا، وقد أعلنت إيلين عن إقفال دار الحضانة التي تديرها، في آخر أيّار، كما سيتمّ تسليم البيت إلى المالك الجديد، وبيع الأغراض المكوّمة منذ تأسيس البيت، والتي لا تصلح للبيت الجديد في "كامبريا"، أمّا في بيتي فبعد أن جمعت الأشياء الأكثر أهمّية، وجدت أنّ كلّ ما لدينا مهمّ، وكلّه كان وليد حاجة، وفي النهاية تركت الأمر لإيلين وروبير، فالذي لا يمكن شحنه يباع. وهكذا كان. فقد كان مقرّراً أن أعود

من لبنان إلى بيت إيلين في كامبريا، لأقيم معها.

أنهيت كلّ ما عليّ استعداداً للسفر الذي بات مقرّراً في الخامس من أيّار 1994، وكان يصعب عليّ أن أترك رتشرد وهو في هذه الحالة الصحّية، لكنّ الأمل في الدواء الجديد الذي وُعد به رتشرد، خفّف عنّي بعض الشيء، وفي الخامس من أيّار قلت وداعاً لبيربانك، وانطلقت إلى لبنان.

28. أغنية الميلاد

بعد محطّة في باريس، وصلت مطار بيروت، وقد أتعبتني الحقيبة الكبيرة، لا لثقلها، بل لضعفي، ووجدت عطيّة وتمّوز في انتظاري، نزلت في بيت أدما إبنة أختي، كما في المرّة السابقة، منذ عام، وفي غضون أيّام استطعت أن أرى معظم الأصدقاء والأصحاب، وتفرّغت لإنجاز ما أتيت من أجله، فذهبت مع عطيّة إلى مشغرة ونزلنا عند أخته إيجيني، ومع أنّ سنة واحدة فقط قد مرّت على وقوفنا، رتشرد وأنا، على الشرفة نفسها حيث أقف الآن مع عطيّة، إلاّ أنّني لاحظت الفرق في زيادة العمران، الذي غيّر الطبيعة حول مشغرة، والمؤسف أنّ البنايات ترتفع كيفما اتّفق، فلا فرق بين سهل وتلّ، أو حرش وأرض جرداء، وأكثر ما أسفت عليه هو غابة (الشعيرية) الرائعة التي اجتاحها العمران الفوضوي. في اليوم التالي قابلت السيّدة التي تشغل بيتي، والتي كانت قد التزمت بإخلائه منذ السنة الماضية، ووعدت بالإسراع في الأمر، ثمّ زرت الصديق جميل الراسي في عيتنيت، والذي كنت كلّفته ببيع المحل والمكائن قبل سفري، وروى لي ما صاحب تلك الفترة من أزمات، واستأذنته بوضع صندوق الأثاث عنده حين وصوله، فأبدى استعداده على الرحب والسعة، وفي اليوم التالي عدت مع عطية إلى بيروت وفي طريقنا قمنا ببعض الزيارات لرفقاء وأصدقاء. ثمّ نزلت إلى الحمراء وأمضيت عند تمّوز بضعة أيّام، أنجزت خلالها بعض الأمور كفتح حساب في البنك، كما تسلّمت من روبير "فاكس" مفاده أنّه أنهى توضيب

الصندوق وسلّمه إلى شركة الشحن، واتّصلت أيضاً بإيلين لأستوضح منها آخر التطوّرات، وكان هذا آخر اتّصال إلى بيربانك.

عدت إلى مشغرة ثانية لاستلام البيت، لكنّي لم أنزل فيه، رغم أنّه كان مرتّباً ونظيفاً، وفي اليوم التالي تابعت العمل في الحصول على بيان من البلدية عن البيت والمحل، حيث ضاعت كلّ المستندات من سندات إيجار وغيره، وأنجزت العمل سريعاً بهمّة الصديق جودت ابراهيم أمين البلدية، كما راجعت المحامي في أمر المحلّ الذي انتقلت ملكيّته إلى حامد رزق، لإنهاء بعض الأمور المعلّقة، وتوّصلنا إلى تسوية مع المالك الجديد، دون اللجوء إلى المحاكم.

يوم السبت في 28 أيّار، أمضيته في بيتي في مشغرة، أبحث في الأشياء المتروكة، وبعضها ما يلامس شغاف القلب، أنفض عنها الغبار وأعيد ترتيبها، صرفت ساعات طويلة هناك، ولم أتمكّن من انتزاع التأثّر الذي تملّكني من الذكريات والمشاهدات التي تذكيها، وحين عدت إلى بيت إيجيني، فضّلت أن أنام باكراً، لما أنا فيه من توتّر.

يوم الأحد 29 أيّار، كان عيد ميلاد كميل، وكنت أفكّر في دعوة بعض الأصحاب والأصدقاء للاحتفال معاً، كما اعتدت كلّ سنة، وأخبرت عطيّة عن نيّتي، فقال إنّ لدينا مساء اليوم لقاء، نحوّله احتفالاً بالذكرى، وطمأنني، وبعد نهار أمضيناه بالزيارات، اتّجهنا مساءً إلى عيتنيت، واجتمعنا ما يقارب الاثني عشر شخصاً في بيت رفيق لنا، معظمهم لا أعرفهم من قبل، وتحلّقنا حول مائدة عامرة، ودارت الأحاديث التي تحمل همّ الوطن والأمّة، ثمّ بعد مضّي وقت من السهرة، وكنت أروي لهم عن المعاناة التي تملّكتني في أعقاب عارض مرضي في أواخر 1987، وكيف ولدت أوّل قصيدة وأنا في طور النقاهة، وساد صمت كأنّه سكون معبد، وكنت جالساً على رأس المائدة، فألقيت لهم القصيدة وسط الهدوء والعيون الشاخصة، التي ما لبثت أن اغرورقت بالدموع، وبعضها ترقرق على الوجنات لآلئ غالية، ومع انتهاء القصيدة

تبدّت لي رؤيا شموع مضاءة، وسمعت أجراساً تصدح بأغنية الميلاد.

29. أودعتها قلبي

في بيروت قمت بزيارة من لم أزرهم بعد، كالصديق شفيق ناصيف، وشقيقه زكي، كما قابلت وريث صاحب البيت الذي نشغله في مشغرة، والذي مازال باسمنا، ولكنّنا لم نتوصّل إلى حل بشأن البيت. واتّصلت بالصديق إميل رفّول، وأتفقنا على اللقاء، وبالرغم من مضيّ شهر على تواجدي في لبنان، إلاّ أنّي كنت أجد كلّ تحرّك صعباً، وكلّ شيء جديداً عليّ، من الوصول إلى (السرفيس)، إلى الجهة التي أقصدها، إلى أزمة السير، والفوضى المركّبة في التعامل، جميعها عوامل تسبّب الإرباك. وكنت قد علمت من إميل أنّ رسالتي الأخيرة لم تصله، وكنت لحسن الحظّ قد احتفظت بنسخة عنها، وجلبتها معي من أميركا لأسلّمها له باليد، ولكني نسيت أن أحملها معي حين قصدته في بيته، والذي تعبت إلى أن اهتديت إليه، وكان لقاءٌ واصَلَ ما انقطع من أخبارنا، وأخبرني أنّ بدّل عدّة بيوت، قبل أن يستأجر بيته الحالي ويستقر. وأخبرته، بدوري، أنّ أمامي عودة إلى أميركا، لأقيم مع ابنتي في مدينة لا أعرفها، ولا أعرف ماذا ينتظرني فيها.

في مشواري الثالث إلى مشغرة أتممت صفقة بيع المحل التي كانت ما زالت معلّقة، ونمت في البيت بعد تأمين بعض الحاجيات، حيث استطعت إنجاز بعض الترتيبات فيه أيضاً، وكان قد وصلني "فاكس" من روبير، يبلغني فيه عن موعد قدومه في 14 حزيران، فعدت إلى بيروت لأكون في استقباله.

في اليوم التالي ذهبت إلى هيلانة، التي كان يسكن عندها كميل أيّام دراسته، وكان الصديق نغم عرنوق قد قطن الغرفة، فطلبت منه أن يكون روبير معه بصورة مؤقّتة، ولم يكن نغم يعرف روبير، ولكنّهما سرعان ما تصادقا.

ومرّت الأيّام سريعة بين رؤية الأقارب والأحباب، وفي لقاء ثانٍ مع الصديق

إميل رقّول، أخذت له نسخة الرسالة التي لم تصله، وفاجأني جوابه على سؤالي عن أحواله، إذ قال بمرارة:

- "أنا نادم على مجيئي إلى لبنان" وأتبعه ببيت من الشعر:

وظلم ذوي القربى أشدّ مرارة

على النفس من وقع الحسام المهنّد

وفهمت للحال ماذا يعني، إذ أنّي أعرفه وأعرف ظروفه التي تشابه ظروفي إلى حدٍّ ما، إنّما الفرق بيننا هو أنّي "لا أحزن على يوم مضى، ولا أفرح ليوم سيأتي"، أمّا إميل فيحمل هموم الماضي والآتي معاً، وشعرت بمرارة عندما ودّعته، دون أمل في اللقاء، ولا في استمرار المراسلة، وأذكر كلامه في إحدى الرسائل السابقة إذ قال ما معناه:

- "نحن كفرسي رهان في تبادل الرسائل، ستكون أنت الفارس المجلّي في نهاية الشوط" وبالفعل، ولا أدري السبب الذي جعلني حريصاً على إيصال الرسالة التي أجبته فيها على رسالته الأخيرة من فرنسا، والتي لم تصله بالبريد، لتكون الكرة في مرماه، في آخر الشوط.

مع اقتراب موعد السفر، توجّهت إلى مشغرة بصحبة الصديق شفيق ناصيف، وروبير، هناك استلمت من الصديق حسين صادر القادم من أميركا، رسالة لي من رنتشرد، وأخبرني حسين عن حالة الضعف الشديد التي يعاني منها رنتشرد ويحاول إخفاءها. وقمنا بالجولة الوداعية التي من أجلها كانت زيارتنا لمشغرة.

مشغرة الحبيبة، ذهبت لأودّعها للمرّة الأخيرة، وقفت على أطلالها، فلم أجد مشغرة التي أعرفها وأحملها في قلبي أنّى رحلت، مشغرة التي لا تموت.

ولأنّي أعرف أنّ للباطل جولة، وأؤمن بالثوابت التي لا تتغيّر وإن تغيّرت مظاهرها الخارجية، أمّا حقيقتها فتبدو واضحة لكلّ عين بصيرة وقلب منفتح، ولأنّي أصبحت قادراً على التمييز بين الذي يموت حقّاً وبين الذي يكتب اسمه في سفر

الخلود، لم أودّعها، بل أودعتها قلبي ووجداني.

باعوا الكرامة، تآلفوا، عملوا زمر،

تعاهدوا، للشـّر عملوا مؤتمر

عندن بلد إلها قمر بإسمها،

جرحوا سهرها، وما اكتفوا، اغتالوا القمر.

30. مرحباً "كامبريا"

غادرت إلى أميركا، وبقيت معي ذكريات جميلة لكلّ وجه وضحكة وكلمة، ممّن أسعدني الحظّ برؤيتهم، تاركاً روبير في بداية طريق مجهول، يتلمّسه بحذر لدى كلّ خطوة يخطوها، داعياً له بالتوفيق فيما اختاره لحياته.

في لوس آنجلوس أمضيت ليلة مع الصديقين سليم الدرزي وسمير سركيس، وفي اليوم التالي اتّصلت برتشرد، وأبلغته أنّنا سنمرّ لرؤيته في طريقنا إلى "كمبريا" حيث إيلين وعائلتها، وقد أدمى قلبي وضع رتشرد المتردّي، وتأثّره البالغ للقائنا، وبعد جلسة قصيرة معه تابعت مع سليم وسمير إلى "كمبريا".

رغم أنّنا في الصيف، 18 تمّوز، كان الجوّ بارداً، وموقع البيت جميل جدّاً، تحيط به الخضرة من كلّ جانب، فمدينة "كمبريا" التي تقع على الشاطئ في منتصف المسافة تقريباً بين سان فرانسيسكو ولوس آنجلوس، معروفة كبلدة سياحية، عدد سكّانها خمسة آلاف نسمة، فيها شارع تجاري واحد متعرّج يقع في القسم الشمالي من المجموعة السكنية الكبيرة والمتناثرة في حرش صنوبر كبير يغطّي عدّة تلال، والبيوت مرتّبة ومنظّمة بشكل جميل يجمع بين مواصفات المدينة والقرية، ويلبّي احتياجات السكّان على مختلف المستويات.

ورتّبت أغراضي في الغرفة المخصّصة لي، ومرّت بضعة أيّام يشغلني فيها التفكير بحالة رتشرد، وكان أخبرني حين التقيته أنّه أخذ الدواء قبل يوم واحد من

وصولي، وللدواء تأثير سلبي يستمرّ عدّة أيّام بعد كلّ جرعة، فقدّرت أنّ ثمانية أيّام مرّت، كافية لتحسّن حالته، وقرّرت أن أزوره وأمضي أيّاماً معه، ورحّب هو بذلك حين أخبرته هاتفياً عن عزمي، ويوم الأحد أوصلني وليم شقيق راي إلى بيت رتشرد، وتابع إلى بيربانك، على أن يعيدني يوم الجمعة معه إلى كمبريا.

في اليوم التالي رافقت رتشرد في رياضة المشي التي اعتادها صباحاً بعد أن سقى الحديقة، وبعد الظهر ألمحت له عن رغبتي بالذهاب إلى بيربانك لقضاء بعض الأمور ثمّ العودة إلى كمبريا، وما دفعني إلى هذا، هو خوفي من أن أثقل عليهم، لكنّ رتشرد رفض بشدّة، كعادته:

– "No, No, No"، وأكّد أنّ أموري في بيربانك تحلّ هاتفياً، وبالفعل اتّصلت زوجته إيفيت بمكتب بيربانك للشؤون الاجتماعية الذي كنت أنوي مراجعته، وقضي الأمر فوراً.

على مدى خمسة أيّام، كنت خلال المشوار الصباحي الذي أرافق فيه رتشرد ألاحظ التحسّن الطفيف في حالته، وفي آخر نزهة لنا أتممنا الدورة المعتادة كاملة، وخلالها جلسنا للاستراحة على حافّة الطريق، في ظلّ شجرة، نستعيد ذكريات زيارتنا سويّة للبنان في العام الماضي، وكعادته صار رتشرد يتكلّم في مشاريع مستقبلية، وأحلام، لكنّه أرفقها بكلمة (إذا قدرت)، وعدنا باتّجاه البيت والحديث مستمرّ، وصار يسألني عن روبير وآخر أخباره، فأجبته بما أعلم، واقترحت عليه أن يراسله ليحصل على إجابة دقيقة، وقد لاحظت أنّ أمراً ما، لم يصارحني به، يشغله.

في اليوم التالي عند الواحدة ظهراً مرّ وليم إلي ليصحبني إلى بيربانك، فودّعت إيفيت وشكرتها، وجاء دور رتشرد، ومرّ في خاطري أنّها قد تكون المرّة الأخيرة التي أراه فيها، لكنّي تمالكت نفسي وحبست دموعي، إلى أن صعدت إلى السيارة وغبت عن ناظريه، فأطلقت لها العنان.

31. طارت الحقيبة وحطّت الخطيبة

في اليوم التالي وصلتني رسالة من روبير، فكتبت له الرد، وحيث أنّ البريد في السوق، ولا استطيع النزول سيراً على الأقدام، لبُعده، نزلت مع إيلين يوم الاثنين، ووضعت الرسائل في البريد واشتريت بعض الحاجيات وعدت معها ظهراً، وفي صباح اليوم التالي أيقظني جرس الهاتف في السابعة صباحاً، وقدّرت أنّ الاتّصال من لبنان، وبالفعل جاءني صوت روبير ينبئني بفقدان حقيبة اليد خاصّته، والتي تحوي جميع أوراقه الثبوتية والمستندات، ويطلب منّي إرسال بعض الأوراق المطلوبة، بالفاكس ليستطيع استكمال الحصول على بدل عن ضائع.

للحال نزلت مع إيلين وراي وبدأت بإجراء اللازم، وكنّا مازلنا بانتظار أخبار تفيد بأنّه وجد الحقيبة، ولكن دون طائل، وبعد مدّة وردتني منه رسالة يروي فيها ظروف فقدان الحقيبة، كما يخبرني بخطوبته، وحصل من هذا المزيج لون باهت، فلا فرحت، كما يجب بخطوبته، ولا انتفى منّي الشعور بالحنق من فقدان الحقيبة، التي لم يصادفها من له ضمير حي، ليعيدها. وامتدّت معاناة روبير أسابيعاً مع أوراقه، وقد كان للرفيق والصديق حسين صادر دوراً مهمّاً وجهوداً مثمرة في تأمين العديد من الأوراق المطلوبة، كما أنّ إيلين بحيويتها وفكرها الثاقب لم تترك منفذاً إلاّ ونفذت منه، في البنك والشركات التي لروبير علاقة معها وعلى أحسن وجه، تنتبه لكلّ شاردة وواردة، وتصحّح الأخطاء التي وردت في بعض الوثائق كرجل قانون بارع، إلى أن حلّت جميع المسائل ما عدا الـ G.C. أو "الغرين كارت" الذي فقد أيضاً مع المحفظة.

كان مجموع ماكتبته من رسائل لروبير في موضوع أوراقه، يربو على الخمسة عشر رسالة، يقابلها منه أربع رسائل، لكثرة الأشغال المتراكمة أمامه، فهو كان قد بدأ عملاً جديداً يتطلّب منه وقتاً طويلاً، إضافة إلى اهتمامه بالاستحصال على بدلٍ عن الوثائق التي تخّصه في لبنان، ولم يكن من مجال لملامته، بل على العكس، فقد شعرت أنا بالذنب كوني تركته في خضمّ ظروف صعبة تتطلّب الكثير من الجهد

والوقت، وقد بدت بوادر التغلّب على جزء منها لا يستهان به، أمّا الذي غيّر الأجواء، وفتح نافذة على الأمل، هو عثور روبير على رفيقة الدرب والحياة، وأذكر أنّه قبل أربع سنوات، وكنّا روبير وأنا في أحاديث متكرّرة عن الزواج، خصوصاً بعد وفاة والدته، كان يجيب بكلمة أو كلمتين، أو لايجيب، وذات مرّة حسم الموضوع وأجابني:

- "يا أبي، أتمنّى أن تنسى هذا الأمر ما دمنا في أميركا"، وفهمت تماماً ما يقصد، ونسيت الموضوع فعلاً. لكنّه بعد أن وصل إلى لبنان بمدّة من الزمن، وكان قد عاد والتقى بأصدقائه ورفقائه، بادرني بالحديث سائلاً:

- "هل تعرف "هلا" إبنة الأمين محمود غزالة؟" فقلت:

- "أذكر أنّ لديه ابنتين، ولكنّي لم أرهما منذ كانتا صغيرتين، ولكن لماذا تسأل؟"

- "هلا أعرفها منذ زمن، وكنت أعجب بذكائها وتفهّمها للأمور، وسرعة خاطرها".

في الأصل أنا مع حرّية الاختيار، خصوصاً أنّ روبير صار في الثانية والثلاثين من عمره، وما سمعته منه يؤكّد أنّه لايسعى إلاّ للمضمون الراقي والقيم الإنسانية، في من ستكون شريكة حياته، وكلانا متحّرر من العقد الطائفية والتقاليد البالية، ونعمل على تجسيد مبادئنا وقيمنا، ولم يكن في الأمر ما يشكّل خلافاً. فكان ما أجبته به لا يعدو كونه نصائحاً بضرورة التفكير وتحديد الأهداف، مع تمنّيات بالتوفيق. ومرّت الأيام، إلى أن وصلتني منه الرسالة التي يبلغني فيها بخطوبته على هلا غزالة.

32. (بخاطرك يا خالي)

بعد عودتي من عند رتشرد، اتّصل بي هاتفياً، وكان يبدو مرتاحاً من نبرة صوته وحديثه، وأخبرني أنّه راسل روبير في موضوع مشروع مشترك بينهما، يدرسان

إمكانية تنفيذه في لبنان، واستلم منه رسالة جوابية، ووعد أنّه سيكتب له ثانية، وفي السابع عشر من آب شعرت بضيق لا أعرف مصدره، فاتّصلت ببيت رتشرد وأجابتني زوجته أنّه متضايق جدّاً وهو تقريباً لا يأكل ولا يشرب، وكانت تتكلّم من غرفتها والباب مغلق، لكنّ رتشرد سمعها وأصرّ أن يتكلّم معي، ولم يكن الصوت إلاّ حشرجة ختمها بقوله:

– (بخاطرك يا خالي)، كلمات كسرت قلبي وآلمتني، وتركتني طوال ذالك اليوم في أشدّ حالات الانزعاج، وفي اليوم التالي شغلت نفسي بالنزول مع إيلين إلى السوق قبل الظهر، وبالقراءة مساءً، لكنّي بقيت قلقاً، وفي الساعة السابعة والربع جاءني صوت "كِني" إبن رتشرد على الهاتف، ينعي لي والده، وكان قد توفّي منذ ساعة وعشر دقائق.

رحل رتشرد، الشجاع الذي لايخشى قول الحقّ في أقسى الظروف، والذي جاهد وناضل، ولم يبخل، لا بوقته ولا بماله، في سبيل ما آمن به، وجميع الذين تعاملوا معه أولوه ثقتهم، ومعرفتي به تعدّت كونه ابن أختي، فقد كانت بيننا مراسلة امتدّت إلى زمن بعيد قبل حضوري إلى الولايات المتّحدة، وابتدأت العلاقة الفعلية فور هذا التاريخ، في البداية كانت اكتشاف واختبار، ما لبثت أن تحوّلت إلى صداقة عميقة.

اتّصلت بالصديقين حسين صادر، وفؤاد تكلة، كما اتّصلت بنا ربيعة سكّرية، وفكتر شقيق رتشرد من "سانتا مونيكا". وكان المأتم قد حدّد في الثالث والعشرين من آب، فاجتمع حشد كبير من الأصدقاء والأقرباء للمشاركة في الصلاة على روح الفقيد، وبعد الصلاة ألقى رئيس جمعيّة الـ A.D.C. في لوس آنجلوس، وكان رتشرد من أعضائها العاملين، كلمة رثاء باللغة الإنكليزية، تلاه عدّة أشخاص منهم الدكتورة المصرية فدوى الجندي، وحان دوري وكنت قد كتبت أربعة أبيات كانت الوحيدة التي ألقيت بالعربية، قلت فيها:

يانبتة الحلوة اللي شلّعها الهوا

يانسمة الخير بماضيك وحاضَرك

بالعلّة المالها لا طبّ ولا دوا

غبت عنّي والحكيم محاصرك

تلفنت لي وخبّرتني ما في نوى

كسرت قلبي بس قلت: بخاطرك

نحنا من المفروض أنْ نبقى سوى

إبني ناطرني وإنت إبنك ناطرك

إذ أنّ رنتشرد كان قد فقد ولداً من أبنائه منذ زمن.

وانتهى ذلك اليوم وقد رافقني إحساس أنّي أكثر الناس خسارة بفقد ذلك الإنسان، رنتشرد حبّوش، تلك القيمة الإنسانية التي ووريت تحت الثرى.

33. طريق النحل

من نافذة غرفتي التي تقع في الطابق الأرضي، أرى تراكم الغيوم، وانفلاشها، وتجمّعها من جديد، وأرى الشارع الخالي من المارّة، لا صوت لسيّارة، ولا لإنسان، أبواب مغلقة وستائر على الشبابيك تقول للناظرين دعني وشأني. وأستطيع من مكاني أنّ أعدّ عشرة بيوت في الجهة المقابلة، وأكثر من مئة شجرة صنوبر تحتضن تلك البيوت العشرة، والتي أعرف أسماء أصحاب ثلاثة منها فقط. ليس إذاً من سلوى سوى القراءة، أو الكتابة، وانتظار الأخبار من لبنان عبر الرسائل، ومن تلك النافذة تقع عيني على صندوق البريد، وأرى موزّع البريد حين يقبل بحمل جديد ليضعه في الصندوق، ولطالما طال انتظاري. وذات يوم خاطبته قائلاً:

ياصندوق البريد ليش معاديني

إنت بهالعداوة، حرقت ديني

صرت عاطيك مجموعة رسايل

وإنت، مكتوب بعدك مش عاطيني

وحين فرغت من تدوينها، التفتّ إلى الصندوق وإذا بسيّارة البريد تصل، وتصل معها رسالة من تمّوز قنيزح انتظرتها طويلاً.

يوم تركنا بيتنا في بيربانك، اتّفقنا، روبير وأنا، أن اقطن مع إيلين وعائلتها إلى أن نرتّب وضعاً أفضل، وهكذا كان. ولكن مع بداية تساقط الأمطار، وتعذّر التحرّك بحرّية، نظراً لبعد المسافة بين البيت والسوق، بدأت أشعر أنّ الحال غير ملائم، لكنّ إيلين كانت ترى أنّه من غير الممكن أن أسكن وحدي في مكان بعيد عنهم، وعملت ما في وسعها لتأمين كلّ احتياجاتي، وبعد عدّة مداولات، بقيت إيلين مصرّة على موقفها، ممّا دفعني إلى توجيه رسالة كتابية لها من ستّ صفحات شرحت لها الأسباب والعوامل التي تدفعني إلى هذا الإجراء، وعلى رأسها العامل الصحّي، حيث أنّ المدن الكثيفة بالسكّان تكثر فيها العيادات والمستشفيات التي يسهل الوصول إليها، والتي تتعامل مع الضمان الصحّي الذي يكفل من هم في مثل حالتي. فاقتنعت أخيراً ولكن على مضض. وبالفعل توجّهت إلى بيربانك مجدّداً، وبمساعدة أهل راي استطعت أن أجد سكناً مريحاً في منزل هادئ ونظيف، وقريب من السوق ومن جميع احتياجاتي اليومية.

*

والآن، حيث أجلس وحيداً مع أوراقي، وأمامي أكوام الكتب والصحف والأوراق، وجهاز التلفزيون ينقل العالم كلّه إلى غرفتي، والقلم ما زال بين أصابعي، أشعر أنّي مع (فيروز) على طريق النحل، (بيصير يرسم دواير يكتب عالهوا سطور). نثرات من هنا وهناك، ممّا أشاهد وأقرأ:

- قرأت في صحيفة، [إنّ الأسلحة التدميرية الموجودة اليوم، تكفي لتدمير الأرض ثلاثين أو أربعين مرّة]، ولكن، من سيحتاج إلى تدميرها بعد المرّة الأولى؟.

- قرأت مقالاً يقول كاتبه أنّ منظّمة التحرير الفلسطينية لا تعارض مبدأ التقسيم. تذكّرت القصّة التي تحكي عن حكمة سليمان في حلّ خلاف امرأتين على غلام، ولا يعرف أيّهما أمّه، فكتبت:

حكمة سليمان، والـ فيها خلد

حكمة قديمة، وما خلي منها بلد

اللي رفضت القسمة، صانت إبنها

والـ قبلت التقسيم، مش أم الولد.

- أجمع حلف الأطلسي على ضرورة إيقاف الحرب في كوسوفو، من أجل ذلك شنّوا حرباً على الصرب، كما حصل تماماً مع العراق، ذكّرني ذلك برجل الدين الذي يعظ رعيّته قائلاً: (اللي بيسبّ الدين، بحرق دينه)!!.
- فعلاً، إنّ البلاء الأعظم، هو فكرة إلغاء الآخر.

34. رسالة

إبني الحبيب كميل..

لقد طال اشتياقي إليك، مع أنّك لم تفارقني لحظة، خصوصاً في السنوات الأربع الأخيرة. بعد أن زرتك في لبنان في مثواك، وشعرت بكياني كلّه ينتفض، وما في داخلي ينبئني أنّك تتململ وقد أضناك أن تكون وحيداً كلّ هذه السنوات. غادرتك وفي رأسي دوّامة من الأفكار تريد هي أيضاً أن تخرج للضوء والهواء الطلق، وكان المخاض عسيراً والولادة صعبة، ولكن ما إن ترافقنا سنة حتّى أصبحت صفحاتك تربو على المائتين، ابتداءً من سنيّ طفولتك ومدرستك، وتابعت وأنت معي، تشدّ من أزري وتمنحني القوّة، أستوحي من عينيك بحوراً من الكلام، أبقى على شواطئها، ولا أجرؤ، حتّى، على النظر إلى أعماقها، خوفاً من أن يأتي البوح دون السويّة المرتجاة، وهو لكذلك.

لا يتشابه الموت، لا، فهو ياولدي جسر عبور لقلّة من الناس، والبقيّة يموتون عند الوصول إليه.

اثنتا عشرة سنة مرّت، وما زلت ترافقني، وأراك الآن تكبر وتورق من بين الصفحات، أراك مع الأصحاب والرفقاء، وعند إيلين في بيتها ومع أبنائها، كما أتخايلك عند روبير في بيته الجديد، هو وزوجته هلا، يقرأونك بين السطور، يحملونك في أفئدتهم فكرة لا تموت.

أنت يا حبيبي كميل من القافلة المرافقة للتاريخ، الذين عبروا جسر الموت واجتازوه إلى الخلود، في كلّ أنحاء العالم. ما أعظمكم، بما تحملونه من معانٍ وقيم، حيثما كنتم وأينما حللتم.

لو نسأل التاريخ أو قول الرواة

عن شخص باقي حيّ، والمفهوم مات!

منعرف، بيموت الموت، وبتبقى الحياة

اَللّي بيخلد الفكر، والـ بيموت "طين"

أنت معي ياكميل في مطلق الأحوال

دعني الآن أقبّل شاربيك

والدك رشيد بركة

U.S.A. Burbank 1997 / آب / 8

ملحق القصائد

حكاية وطن

رماني الدهر بسهامو رماني صرت من جرح، بعد الجرح، عاني
جرحني جرح ياريتو قتلني، وتركني، وما أخد أغلى الأماني

وتركني دوب عَ تربة بلادي ال أنا من الأصل بعبدها عبادي
ولا عيني تشوف كيف صاروا الأعادي يزلّوا الناس عَ مرّ الثواني

يزلّوا الناس، كيف الناس صاروا عَ فعل الشرّ من بعضن يغاروا
صار الجار ينهب بيت جارو وينسى العهد ويخون الأمانة

وينسى كلّ معنى الإنسانية، تركها، واعتمد عَ الطائفية
وعندو الطايفة صارت قضيّة فكرة كلّ مغرور وأناني

فكرة يحمل سلاحو ويحارب، يحارب مين؟ أهلو والقرايب؟
اليهود اللي إجو متل العقارب وحطّوا السمّ بيكلّ القناني

وحطّوا السم بالفكرة، رضينا، وسقونا المرّ من علقم وكينا
لحتّى يقتلوا الإنسان فينا وتفضى أرضنا ال كانت ملانة

....

صاروا الناس بين أحمد وحنّا شي أسود صار، شي بأحمر تحنّا
وصدف، من "قلّة" الأديان عنّا جابوا فكر، من برّا، وديانة

جابوا فكر، والكفر الْ تجلّى بعمايل ما قبلها العقل كِلاّ

إجوا شياطين يحكوا بإسم الله		بطبل وزمر ودفوف وغناني

....

المهمّ الطايفة تبقى سليمة		الوطن والناس، ما إلهنش قيمة
ومين الْ حطّ هالفكرة العقيمة؟		ونفى من المعرفة كلّ المعاني

نفى الإنسان من حقّ الكرامة		لا قِبل النصح، لا سمع الملامة
علمنا صار "قلّوسة" و"عمامة"		افرحوا وتقبّلوا منّا "التهاني"

افرحوا بالتفرقة ونصب المكايد		انغمستوا، وما حدا منها محايد
بعد ما حلّنا ننسى عوايد		عتيقة، من العهد التركماني؟

عتيقة، منها بالنار اكتوينا		عند ما الأجنبي تسلّط علينا
وتركنا بعد ما كنّا "اهتدينا"		على درب الوشاية والخيانة

على درب الْ نسي عهدو ويمينو		يا تجّار الوطن، يا بايعينوا
قبل ما يكون إنتوا مقسّمينوا		كتبتوا الناس، كل واحد بخانة

كتبتوا الناس وعملتوا حكومة		طوايف خطّها صاير عمومي
ليبقى الشرّ، وتدوم الخصومة		بعدا دايرة هالأسطوانة

وبعدا دايرة والناس ملّوا		حلّو يزول هالكابوس، حلّو
يروح الوحش، تَ يركب محلّو،		وعلى أضرب، يجيبهم وحش تاني

وعلى أضرب، ومنها الكلّ تعبوا
بدنا شخص يبقى يحبّ شعبو

من الحكّام لِ بالحكم لعبوا
مش الْ بيقودهن بالخيزرانة

مش الْ بيقودهن متل المواشي
والخيرات تنزل عَ الحواشي

ويحضن كلّ من فاسد واشي
وباقي الشعب من فقرو يعاني

وباقي الشعب سلعة للتجارة
وأنا من جهّتي بعدّ الخسارة:

خسرها الحكم من سوء الإدارة
أنا اللي زرعت عَ شكلو إجاني

أنا اللي زرعت، جايي بشكل دقّي
تَ ربّ البيت عَ البيدر ينقّي

مهما عملت ما بوصل لحقّي
حبوب القمح من حبّ الزوانة

حبوب القمح والبزرة المليحة
مش الأزعر، والْ كاين فضيحة

تكون القاعدة الصلبة الصحيحة
يجي عَ الحكم ويجيب البطانة

يجي عَ الحكم، من عنّا التحدّي،
العدل مطلوب، والإخلاص عدّة

بفكر مفتوح، والخطّة المعدّة
ويضرب ضربة السيف اليماني

ويضرب ضربة الْ معروف إنّو
وضروري الشعب يبقى خلف منّو

ضروري تنتفي الشبهات عنّو
يسند هامتو، ما يكون حاني

يسند ساعدو بهمّة وجدارة
الحكم والشعب بيقيموا حضارة

لْوَطَن منكوب صار كومة حجارة
إذا عملوا بإخلاص وتفاني

إذا عملوا بيخلّو الخير طايف إذا الدولة مش تكيّة ووظايف
ويبقوا شعب واحد، مش طوايف وتبقى أرضنا حرّة ومصانة

وتبقى أرضنا، ولُو الناس غابوا، بكرا الوطن، رح يرجعوا صحابوا
دم اللي استشهدوا طهّر ترابو وأنا منّي، غصب عنّي هجرتو
واللي صابني منّو كفاني

1988 / 3

الطوفان

من قلب دامي معذّب ومجروح   عم عدّ إيّام بتجي وبتروح
عايش بدنيي مغترب فيها   بعقل واعي، وجسم من دون روح

عم شوف قدّيش الدني صغيرة   ومركّبة عَ الحقد والغيرة
بيملك عليّي كلّ تفكيري   شعب جاهل بيوطن مدبوح

ليش عم تتقاتلوا يا ناس   شو الحرب لعب ولاد؟ أو وسواس؟
شو الغرض، شو القصد، شو المقياس؟   شو الطلب، شو الطرح، شو المطروح؟

منشان يبقى غيركن راضي   إنتو رضيتوا الموت عَ الفاضي
وعَزّ الفدى بالموسم الماضي   ومن يومها بعدو الجرح مفتوح

يا خجلة التاريخ من ذكرى   مرّة وأليمة، ومن بعد سكرة
صارت قريبة ترجع الفكرة،   وما يعود ينفع لا البكى ولا النوح

وين القضيّة، والغرض الكبير،   والطلسم الْ ما في إلو تفسير
منين الوحي، ومنين إجا التأثير؟   خسرتوا الرهان وسرّكن مفضوح

خنتوا الأمانة والعهد والجار   خدمتوا الغريب بعقد إستئجار
ياللي بدلتوا قلوبكن بحجار   بشهادة الدمّ الزكي المسفوح

وين الوفا الْ معروف ببلادي　　　　وين المبادي الْ علّما الهادي
حاجي بقى، والْ صار بزيادة،　　　　عملتوا طوفان الدمّ بيدَيْكن
بسّ ما عملتوا سفينة نوح

1989 / 1

العيد

الشهيد كميل:

إجا هالعيد يا إمّي اذكريني
إذا العالم، من هومو، نسيني
خدي من محبّتي أحلى الهدايا
زرعيها ألف وردة وياسمينة

زرعيها وكتّري منها العطايا
قمار قمار عَ صدور الصبايا
لعلاّ تكون مغفرة الخطايا
وشفى للروح والنفس الحزينة

أنا الوردة، ترابي كلّ حبّة
تدفن حقد وبتنبت محبّة
أنا نبتة جميلة عند ربّي
بأوقات الصلا فيك تشوفيني

أمّ كميل:

أنا يا بني عطيت الحبّ كلّو
إجاني الحزن تَ ياخد محلّو
عيوني من البكا والدمع كَلّو
تَ يشفى خاطري، ما كانش فيني

أنا يابني اللي حطّمني غيابك
وقت الْ كنت في زهوة شبابك
نسمة عطر من ريحة تيابك
عندي أحسن هديّة تمينة

أنا إن متّ، يمكن صير متلك
إصفح عن وحوش الْ رضيوا بقتلك
راح كتير من بعدك، وقبلك،
لكن إنت معبودي وديني

أبو كميل:

أنا اللي بكيت بيدمعات حرّى
وصارت عيشتي صعبة ومرّة
بعدو الشرّ ما ارتاح ولا مرّة
بعد ما اغتال ربّان السفينة

اغتال الحق، واغتال السعادة وأنا رح قول هالكلمة شهادة

ويا يوم العيد، يا يوم الشهادة، قال الناصري ورح قول بعدو:

"إذا بنساك تتساني يميني"

1989 / 5 / 29

أرض وسما

بعدك معانا متل ما كنّا سوى
مع كلّ نسمة عطر أو هبّة هوا

وقلبنا المجروح من أربع سنين
زادت عليه النار عالجرح، انكوى

مش حرام البعد، والكفّة تميل؟
كنتي معانا حاملة الحمل التقيل

ياساكنة بالقلب إنت، مع كميل،
إنتوا الحياة الخالدة، إنتوا الدوا

مهما اشتدّ الخطب مش ممكن نضيع
نحنا بعد تمّوز في عنّا الربيع

وعنّا رصيد كبير، قدّيسة وشفيع،
تْخَرْسَنْ ملاك الموت، عن عرشو هوى

الموت في مفهومنا درب الحياة
الموت إستشهاد، عزّ ومكرمات

والشهيد الحق، ما بيكنش مات
بيكون بعدو حيّ، مرفوع اللوا

خبري يارفيقتي شو صار معك؟
بالهمس، بالإلهام، نحنا منسمعك

قولي عن القوّة اللي قدرت تجمعك
باللي تركنا وراح بِ عزّ الغوى

رحتوا وتركتونا بدنيا الإغتراب
وكيف اللي كانوا بالوطن صاروا قراب

من طهركن إنتوا اللي قدّستوا التراب
وصغرت الدنيي بعينين الكبار

أرض وسما صاروا بنفس المستوى

1990 / 8 / 5

أوّل آذار

من مطلع التاريخ، كان، وهيك صار
من صميم الليل بيطلّ النهار
يا شهر آدار بعد العاصفة
طلّوا الورود وفتّحوا كلّ الزرار

بسّ الفرح منقوص بِ واقع الحال
الحرب فوق بلادنا حطّ الرحال
من الغطرسة والعهر، الصلح استحال
والمعركة صارت متل آتون نار

لا حكّموا العقل ولا رضيوا بالوفاق
تحالفوا عَ بلادنا وصاروا رفاق
لمّا بيموت الحق لحساب النفاق
الغار، نقطة بتمسخو، بيصير عار

ونحنْ في مفهومنا منطق جديد
يوم الفدا والتضحية بيصير عيد
كل ما اشتدّ الخطب واستشهد شهيد
بيكون سجّل لِ بلادو انتصار

يا خجلة التاريخ من موقف غبي
احتلّ فيه الجهل أعلى مرتبة
من المكر، والإحتيال، والتعلبة
البنيان، والإنسان، صار كومة حجار

ان كانت الأيّام حلوة، أو سواد،
الكون متحرّك، وما بيعرف جماد
طير الفينيق بيقوم من تحت الرماد
بتتغيّر الدنيي، بيموت المستحيل
والحياة بتفيق بِ أوّل آدار

1991 / 3 / 1

الخميرة والعجين

قالوا عن السجن انبنى للمجرمين
والمجرم من الناس، يبقى متل مين؟
اللي بيقتل العصفور، بيطالو القانون
واللي بيقتل شعب، منصان وحصين

اللي بيقتل شعب، مضمون الغطا
مين الْ شهد للحق، أو ردّ الخَطا
المنطق غبي، والعدل آلة مخربطة
وعُمْيِ البصيرة والبصر، مش شايفين

عمي البصيرة، والمظالم عايمة
ومستفحلة، وصارت بصورة دايمة
القتل داير، والقيامة قايمة
الكبار ما عندن خبر، مش عارفين

الكبار ياللي بيقتلوا وبعيّشوا
وما في حدا فوقن، ولا منّو اختشوا
ياصغار أوعى تطلّعوا وتفتّشوا
المتّهم معروف، والميّت ظنين

المتّهم لِ منعرفو خصم وحكم
والضحيّة، بقدرتو، عليها حَكَم
إنتو اسمعوا هالحكي منّو والحِكم
وشدّوا الرحال وحيّدو يا معتّرين

شدّو الركب عَ أرض حاكمها ظَلَم
وحضّروا للمعركة سيف وقلم
شيلو الخريطة، غيّروا شكل العلَم
وثوروا عَ حكّام الْ إجوا، والْ رايحين

ثوروا على الماضي، على عهد انقضى
وبعدو بِعقليتو على الحاضر قضى
شو قولكن عن ناس بيعهد الفضا
بعدهم متل البهايم عايشين

بعدهم، إن كان بنت ان كان صبي
من خميرة فاسدة، عاش ورِبي
ومن هالخميرة بيطلع الحاكم غبي
وبيضلّ بيعقليّة المجرم، سجين

وبيضلّ في عنّا أمل في شي جديد
عنّا القضا المحتوم، والشعب العنيد
عنّا التراب الْ طهّرو دمّ الشهيد
وصار رسمال الخميرة والعجين

وصار الأمل يخطر بفكر ولادنا
بالعقيدة، بالبطل لِ قادنا
واللي بفضلن رح تعود بلادنا
أمّ الحضارة الراقية والإنفتاح
وجنّة أدون، الوعد للّي ناطرين

ـــ مقـاطـع ـــ

باقة صلا

منمشي مع الأيّام، ومنبذل جهود
بتحصل حوادث من سنين معيّنة

ومهما حصل بيضل إلنا حدود
بتبقى علامة فارقة بعمر الوجود

هالعيد رح يبقى علامة فارقة
وِن ما رضوا أخصامنا، مش فارقة

والحقيقة متل شمس، وشارقة
تحرّرت هالنفس من كلّ القيود

يابني بقلب الْ عارفينك، في مقام
من حيث إنّك كنت داعي للسلام

عَ المحبّة الصادقة، واللطف، قام
كنت متل الحصرمة بعين الحسود

تفتّحوا كلّ المناظر والحلا
بقدّم بعيدك للسما باقة صلا

بِمْطارح الما كَنش ممكن نوصلا
علّمتني كيف العبادة والسجود

29 / 5 / 1988 عيد ميلاد كميل

صورة

مع الأنسام باعتلك رسالة
عاملّك من نزف قلبي قصيدة

إنت يا غايب وساكن ببالي
حتّى تليق بمقامك يا غالي

ليش بعدو عم يجي هالعيد؟ | عَ قلوب مكلومة وفرحها بعيد
ونفس الحكي من كترة الترديد | من المحتوى، ومن بهجتوا، خالي

تلات سنين والفكر ذاتو، | وعندي اتنين لا عتقوا ولا ماتوا
صورة للقلب مصدر حياتو | وصورة جميلة معلّقة قبالي

31 / 12 / 1988

الأمّ الحزينة

عجب يا رفيقة الدرب الأمينة | أنا شو عملت حتّى تتركيني
أنا المفروض إنّي روح قبلك | مش من العدل إنّك تسبقيني

قضينا العمر، والرفقة سليمة | وعلاقة صافية من دون غيمة
إجتنا الحرب، والضربة الأليمة | ببلدنا الغالية الدرّة الثمينة

كان بخاطري جبلك هديّة | تكون تليق بالزوجة الوفيّة
يا حظّ اللي هبط بيك وفيّي | وعطاك رتبة الأم الحزينة

6 / 1990

الذكر العاطر

جبينا نحيّي ذكرك العاطر | في نبضة القلب وومضة الخاطر
من ظلم الزمان وقسوة الأقدار | عفتِ الحياه مكسورة الخاطر

هاجس شغلني قبل ما تروحي
عن خلود النفس، شو بيوحي؟
سألتك سؤال مهمّ، ياروحي
ومنّك جوابو بعدني ناطر

سألتك إذا شفت الضنى بالعين
وكيف اللقا ممكن يكون، ووين؟
شو الإنتقال الْ متل طرفة عين
لا جسر، لا معابر، ولا قناطر

9 / 1990

زرعت الورد

عدّي شهور شو طالت الغيبة
العجب بالأمر، شو بعدك قريبة
أنا مشتاق تَ شوفك بعيني
ياوردة حبّ بالأرض الغريبة

يا زوجة وأمّ من أحلى الهدايا
يأقل الناس في عندن خطايا
حرام يكون مردود العطايا
المرض والقهر والموت الغصيبة

حبّي ضاع ما عدّتش لقيتو
قالولي الناس إنّ الأرض بيتو
جبت الورد وزرعتو وسقيتو
بدل الميّ بدموعي الخصيبة

يا غايبة وبالقلب موجودة
إنت اللي كنت مكمّلة وجودي
البيت بعدو ناطر تعودي
وبكلّ معنى، رافض تغيبي

على عمري الشقي لَوْ عملت جردة
مَ كلّو راح بين شوقي ووجدي

يا محلى القبر حامل ألف وردة عَ شرط يكون زارعها حبيبي

18 / 10 / 1990

قلب الزمان

بسألك وبقول يا ليلي الطويل كيف بيجي النسيان؟، أو عنّو بديل؟
شو الحكمة الخارقة بقلب الزمان وما حدا بيعرفلها درب وسبيل

ويستعملوها الناس، وتكون الدوا لْكِلْ من فقد غالي، وبالنار اكتوى
وما يكون الجرح عَ الجرح انطوى وتبقى حياته متل لو إنّو قتيل

ياما سمعنا من قبل حكي وحكم الواقع على بطلانها قرّ وحكم
مين يا ترى بيناتنا بيعمل حكم ويحطّ عَ الممكن حدود المستحيل؟

الغاية النبيلة

سنين كتير مرّت، مش قليلة، مع الرفقة، على الدرب الطويلة
عشت ايّامها الحلوة وشقاها، صورة واضحة، بعدا مقَبيلي

الماضي راح، والجايي مخبّا الحاضر هَون، بين دَيْن الأحبّا
الدعوة توجّهت، والشوق لبّى، اقتنعنا، وصارت الفكرة جميلة

ضحايا كتير والدهر امتحنّا
ظلمنا وقطّف الزهرات منّا
بطريق التسوية، والحكم عنّا،
بعد قدّامنا نفس المتيلة

كأنّ الحرب صارت فعل ماضي
حتّى يعاملوها بفكر فاضي
بتوزيع المناصب بالتراضي
حلول موقّتة، وغاية هزيلة

نحنا، الكلّ، في عنّا قضيّة
التزمناها، وحافظنا عَ الوصيّة
حباب القلب والرفقة الوفية
المقصد حرّ، والغاية نبيلة

19 / 5 / 1991

المطرح الخالي

بتخطر على بالي
من قول قوّالة
إنّ البشر نسّى
وإنّ الدني زوالة

يادهر يا غدّار
اللي حرمتنا من الدار
وصارت لنا الأشعار
مالي وموّالي

ياهل ترى منعود
وباقي العمر بيحود
نتفقّد العنقود
الْ كان زينة الدالي

نتفقّد القيثار
والعود والأوتار
ومنسألن شو صار
من أوّل وتالي

ومنسألن عنّو عن لمستو وفنّو وسمعتهم أَنّو
من المطرح الخالي

وسمعتهم قالوا نحنا اشتقنالوا والبيت من حالو
محافظ على الحالة

* * *

أبيات إميل رفّول، على الوزن والقافية نفسها التي كتبت عليها القصيدة الأولى: يا ريح شوقي للوطن ودّي ....، أرسلت من فرنسا بتاريخ 16 / 2 / 1988:

هاج الحنين للأهل والخلاّن — للبيت يشكي جفوتي وصدّي
للأرض يضحك طيرها بنيسان — ويشدي بميّة مطلع وردّة
ناديتها بلهفة حبيب ولهان — يا أرض، ما سْمعتِ الندا؟ ردّي
هجرتك أنا، مغلوب، مش رضيان — بالهجر جافي الغير، واشتدّي
كُوني القضا المكتوب، والديّان — وهاك الغريب المعتدي، صدّي
رح ينجلي هالليل، والهربان — ناطر تَ إيّام القسى تعَدّي
ويعود يطفي حرقة العطشان — بتراب، من خمر الضحى مندّي
قصرِتْ سنين البعد والحرمان — عدّي معي أيّامها، عدّي
رح نرجع بإيمان من صوّان — وصوبِك أيادي كتير ممتدّة
هيدي أيادي رجالك الشجعان — هلْ حضّروا للمعركة العدّة
رح نرجع نعمّر وطن خربان — وتنْبَيَضّ فينا سنين مسوَدّة
ونقول للغربان: يومك حان — شدّي الرحال عن أرضنا شدّي
وللأرض: يامّ الشعر والألحان — ردّي البلابل للشجر ردّي
أرض الوطن أقوى من النسيان — ياما انْمَرغْ عَ ترابها خدّي
أرض الشهيد، الدمّ والشريان — ثورة شمم عالقدر مشتدّة
ما كان قلبي غيرها عشقان — وحدا حنيني ولهفتي وودّي
سنين السجون، وسطوة السجّان — ما غيّرت من همّتي الحدّة
أيّام مرّت وانطوت أزمان — وبعدا بلادي مطلبي وجَدّي
والتضحية والصدق والإيمان — كانت دروعي وخوذتي وحَدّي
يا بو كميل، مهما قدرنا خان — منضلّ حرب الحقّ عَ الردّة

صرنا شيوخ، وعزمنا ما لان همّة شباب من صخر منقدّة

بكرا منرجع نحرس الميدان وغيرو هدف ما بدّك، وبدّي

بكرا الشيوخ بتسابق الفتيان، وان كانت الفتيان محتدّة

بالمرجلة وبشرب بنت الحان وان ما إجوا الحباب، وبقيت وحدك

معي، بتبقى الدني حدّي

ملحق صور



مجسّم كنيسة مشغرة



الشهيد كميل رشيد بركة



المؤّلف في بيربانك، الولايات المتّحدة الأميركية

قبل صدور هذا الكتاب رُزِقَ ابن المؤلّف، روبير بركة وزوجته هلا غزالة بمولود ذكر أسمياه "كميل".



ولم يكن يؤذينا سوى مناظر الأراضي المهجورة، والبيوت التي تشكو بمرارة غياب أهلها. نحن أبناء وطن جبران، الذي وصفه بأنّه الفلاّحون والكرّامون والبنّاؤون، والغار والزيتون، نجده اليوم ما زال يئنّ تحت وطأة الموت والدمار الذي أنزل به، زوراً، باسم الله وباسم الدين.

تصميم الغلاف والإخراج: «سنديانة» للهندسة والتخطيط